كلاسيكيات جدل

JADAL CLASSICS

آن برونتي

أغنس غري

ترجمة: لولو البريدي

مراجعة وتقديم: مؤمن الوزان

رواية

جدل

منشورات جدل

JADAL PUBLISHING

أغنس غراي

أغنس غري
آن برونتي
ترجمة: لولو البريدي
مراجعة وتقديم: مؤمن الوزان
العنوان الأصلي باللغة الإنجليزية
Agnes Grey
Anne Bronte

1847

الطبعة الأولى: أغسطس 2022م
ISBN: 978-021-774-51-5
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر©
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع والنشر، النجعل عملية الإبداع أكثر أمانًا.

منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

دولة الكويت
المملكة العربية السعودية
جمهورية مصر العربية
(+965) 99900921
(+554658820 966)
WWW.JADALBOOKSTORE.COM
JADAL PUBLISHING
JADALBOOKSTORE

J A D A L

آن برونتي

رواية

أغنس غراي

ترجمة

لولو البريدي

مراجعة وتقديم

مؤمن الوزان

«إن أغنس غري ذات السرد النثري الأكمل في الأدب الإنجليزي؛ السرد الواضح والجميل مثل ثوب موسلين. ندرك حين نطالعها أننا أمام عمل عظيم. لم تخطّ سوى العبقرية هذه السطور بسلاسة كبيرة دون أيّ عائق. إنّها الرواية الوحيدة في الأدب الإنجليزي المحافظة على كمالها في الأسلوب، والشخصيّات، والموضوع. ولو عاشت آن عشر سنوات بعد لأصبحت جين أوستن أخرى، أو ربّما في مقامٍ أعلى».

جورج مور (1852 - 1933) روائي أيرلندي.

مقدمة:

لم يحالفِ الحظّ آن برونتي، الأخت الصغرى لشارلوت وإيميلي برونتي، في حياتها للبروز أدبياً، فقد أدت وفاتها المبكرة دوراً مهمّاً في تعزيز خفوت بريقها أكثر، فتلاشت إلى الظلِّ في السنوات التي تلت وفاتها لأسباب مختلفة. ومع بزوغ شمس شارلوت برونتي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولاسيما بعد أن نشرت إليزابيث غاسكيل سيرة حياتها «حياة شارلوت برونتي»، اقترن الصيتُ والشهرةُ باسم شارلوت حتى الربع الأخير من القرن؛ إذ بدأ نجم إيميلي وروايتها (مرتفعات وذرينغ) بالصعود، ثمَّ بفضل شِعرها استطاعت الأخت الثانية أن تحجزَ لنفسها مقعداً بين الأدباء البارزين في القرن التاسع عشر وتاريخ الأدب الإنجليزي. لكن ما نالت آن برونتي أيَّ فرصة لتَبْرزَ أو يُعاد تسليط الضوء عليها، فهُمِّشت من النقاد، ورأوا فيها موهبةً أقلَّ من أختيها، أو حتى مُكرِّرة لتجربتيهما الروائيتين. وبغضّ النظر عن صدق هذه الرؤية تجاه إنتاج آن برونتي الأدبي، ارتبطَ أدب الأخوات برونتي بحياتهنّ الشخصيَّة، وصارت رافداً مهمّاً في تقييم أدبهنّ، فحين نشرت إليزابيث غاسكيل سيرة حياة شارلوت في عام 1857م، بعد نحو سنتين من وفاة شارلوت، أضفت على حياة شارلوت هالةً من القدسيَّة، ووشَّتْ حياتَها بحقيقة الكفاح والصراع والجَلَد، فأصبحت شارلوت أيقونةً ومثالاً للمرأة المكافحة في العصر الفيكتوري، والأديبة الروائية الذائعة الصيت برواياتها الأربع. ولا يختلف حال إيميلي برونتي، فقد كانت حياتها هي الأخرى مليئة بالغموض والسوداويَّة، وذات طابع مثير للجدل فكريّاً ودينيّاً خاصةً، وهذا ما نراه جليّاً في روايتها الوحيدة (مرتفعات وذرينغ). فكانت سيرة حياتها الأولى التي نشرتها ماري روبنسون، في عام 1883م، بداية جديدة، وجسرَ دخول إيميلي بقوَّة إلى الساحة، وأضحت في العقود اللاحقة، مع تزايد شهرة الأخوات برونتي، حديث الدوائر الأدبية، ثم جُمعت قصائدها كلها ونُشرت في ديوان، في عام 1908م، بتحقيق كليمنت شورتر. في خضمِّ كلِّ تسليط الضوء هذا والقراءة وإعادة القراءة لأدب شارلوت وإيميلي، لم يُلتفت إلا قليلاً نحو آن، ولم يكن التفاتاً كافياً ليُنظرَ إليها على محمل الجد، وتُقرأ قراءةً متفحصة ودارسة إلا في القرن العشرين، فنشرت عنها أول سيرة حياة، في عام 1954م، إيسيل ترست؛ أي بعد أكثر من قرن على وفاتها في عام 1849م، ولحقتها بعد خمس سنوات وينفريد جيرن، وهي المتمرّسة في كتابة سير حيوات آل برونتي، بكتابِ سيرة حياةٍ محترمٍ عن آن.

إنَّ الربط المباشر بين أدب الأخوات برونتي وسيرة حياتهنّ -وإن بدا غريباً تقييم إنتاج أدبيّ لكاتب بمعرفة حياته- هو بالضبط مكمن الشهرة وبدايتها، فنُظرَ إلى أدب الأخوات برونتي وحياتهنَّ نظرة متقاربة، وكثيراً ما قُرِئت

الرواياتُ على أنّها حياتهنَّ فعلاً، ونادراً ما حدث أمرٌ مماثلٌ في تاريخ الأدب الروائي. يعلّق الروائي الأمريكي هنري جيمس على ذلك فيقول: «لا يزال الإرث الرومانسي للأخوات برونتي مساعداً للأجيال اللاحقة بقوّة مستقلّة عن قدراتهنّ المستخدمة، وذلك عبر الصورة الشاخصة لحياتهنّ الكئيبة والفقيرة ووَحْدتها وتاريخها المأساوي. عُلّقت هذه الصورة قُبالتنا بديمومةٍ وحيويّة كأيّ صفحة من رواية (جين إير) أو (مرتفعات وذرينغ). وإذا كانت هذه الأمور «قصصاً» كما نقول، وقصصاً ذات فائدة زاهية، فإنَّ الوسطَ الذي انبثقت منه، في المقام الأول، قصةٌ في ذاته، وقصّة كهذه ستنال بإنصافٍ أحقيَّةَ تقديرنا. إنّها تغطّي وتدعم مادَّتهنّ، وأرواحهنّ، وأساليبهنّ، وموهبتهنّ، وذوقهنّ؛ إنّها تجسِّد في الواقع الأحجية الفكرية الأكمل -إنْ لم أبالغ في القول- التي حققها جمهورنا الرائع في سؤال الأدب». ويسأل الناقد فالنتين كونينغهام سؤالاً ما زال مفتوحاً لا إجابة وافية عنه: «كيف أمكن العوانس الثلاث، اللائي نشأنَ في بيت خوري صارم في هاورث الكئيبة، أن يكتبنَ أعمالاً مثل هذه؟».

هكذا أدّت سيرة حياة الأخوات دوراً في جذب الأضواء وتوسيع دائرة القراءة لأدبهنّ. وتضافرت الجهود بعد نشرِ سيرة حياة آن برونتي في السنوات اللاحقة لإعادة قراءة أدبها، روايةً وشِعراً. وكان لموضوع روايتَي آن، ولاسيما روايتها الثانية (نزيلة قصر ويلدفيل)، أهميةٌ مع سنوات الإصلاح النسويِّ في القرن الماضي وزيادات الدراسات النسوية الأدبية؛ لكون رواية (نزيلة قصر ويلدفيل) من أوائل الأعمال ذات الموضوعات النسويَّة المُركّزة على الزواج، واستقلال المرأة المادي، والعنف الزوجي، والظلم الاجتماعي؛ بيد أنَّ هدفَ آن كان تقويمياً وإصلاحياً، لا تخريبياً أو عشوائياً غير موجَّه، مُقدَّماً في إطار محافظ دينيّاً وأخلاقيّاً، وحاضّاً على السلوك القويم والأخلاق النبيلة والإيمان المسيحي. أمّا روايتها الأولى، المترجمة هنا أوّلَ مرةٍ إلى العربية، فهي ذات موضوع آخر لا يختلف كثيراً بتركيزها على شقَّين مُهيمنيْن: الأول هو معاناة المرأة في مهنة المربّية، التي كانت رائجة حينئذٍ للفتيات؛ لكونهنّ غير قادراتٍ على الانخراط في الدراسة الجامعية على عكس الذكور. وتكتب السيدة أمبيرلي (واحدة من أوائل النسويات الإنجليزيات المطالبات بحقّ الاقتراع، والمدافعات عن حقّ المرأة في السيطرة على الحَبَل) في يومياتها: «أقرأ أغنس غري، وعلى كلّ عائلة تملك مربّية أن تقرأها، وسأقرأها مجدداً إذا حظيت بمربّية؛ لتذكرني بأن أكونَ إنساناً». إنَّ الصراع في هذه المهنة هو صراع المربّية إنساناً ضدّ العائلة التي تعمل لديها ولا ترى فيها إنساناً. تبزغُ الرغبة في إثبات الذات بإجبار المُوظِّفِ على أن ينظرَ إليكِ باحترام، لا أن تبقَي معلّقةً بين مقام المربّية ومقام الخادم، فلا أنتِ مربية ولا أنتِ خادم، هكذا تجلّت معاناة أغنس في هذه الرواية. أما الشقُّ الآخر المهم لهذه الرواية فيشتمل على عدَّة موضوعات منها: التربية، والنقد الاجتماعي والإنساني،

والتأديب النفسي، والكفاح في الحياة، وهو ما يجعل (أغنس غري) رواية سيرة لحياة مؤلفتها. لكن قبل أن نخوض في غمار التلاقي بين حياة أغنس وحياة آن، لنلقِ نظرةً على حياة آن برونتي القصيرة:

وُلِدت لتموت مُبكّرًا:

شهدَت عائلة الخوري باتريك برونتي، في السابع عشر من كانون الثاني/يناير 1820م، ميلادَ آن برونتي، الأخت الصغرى، والسادسة في ترتيبها بعد أربعِ أخواتٍ وأخٍ وحيد، في ثورتون، قُبيل انتقال العائلة إلى قريةِ هاورث؛ حيث استقرَّت ووافتها المنيَّة ودُفِنت خلا آن. كان ميلادُ آن إيذاناً بمآسٍ عديدة قاستها العائلة؛ فبدأ صراع والدة آن، ماريا برونتي (ماريا برانويل)، مع المرض (في الغالب هو السرطان)، وبقيت في حالٍ يُرثى لها، واستنفدت محاولةُ علاجها مدَّخرات زوجها حتى كاد يُفلس تماماً لولا معوناتٍ حصل عليها، ووافتها المنية في الخامس عشر من شهر أيلول/سبتمبر عام 1821م. ويبدو أنَّ ماريا قد أكسبت ابنتها الصغرى ضعفاً ولادياً، وأصيبت آن بالرّبو في صغرها، فتلقَّت عناية العائلة ورعايتها. وتكتب شارلوت في سنواتٍ لاحقة قائلة: «بدا عليها أنها وُلدتْ لتموت مبكراً». اضطُرت خالة الأخوات برونتي، إليزابيث برانويل، إلى القدوم إلى قرية هاورث وإعانة زوجِ أختها المتوفاة في تربية أطفاله وإدارة شؤون المنزل، وساعدته ماديّاً كذلكَ، رغمَ رفضه قبول إحسانها؛ فكانت تدفع له إيجار غرفتها في المنزل لكيلا تجرح مشاعره بالعطاء المباشر. تعلَّقت الخالة بآن وحفَّتها برعاية خاصة نظراً لأنها البنت الصغرى وأشبه الأخوات بأمها. وكان لمذهب الخالة الميثوديِّ تأثيره الكبير في الصغيرة آن. تقول وينفريد جيرن: إنّ الخالة برانويل حاولت أن تجعل من هذه الصغيرة، ذات الطبيعة المحبوبة والاستثنائية، مُشكَّلةً مثلها عقلاً وقلباً. وهذا ما نرى ملامحه كثيراً في روايتيْها وشِعرها.

نشأت آن في جوٍّ عائلي حضَّ على المعرفة والقراءة، وبدت النجابة واضحةً على محيّا الأطفال الصغار، وهذا ما لاحظه الأب باتريك، فيَذْكرُ في إحدى رسائله حادثةً تعزّز من هذا الاستقراء لبيئة نشأة الأطفال: «عندما كان أطفالي صغاراً، وبقدر ما تُسعفني به الذاكرة، كانت كبراهم في سنّ العاشرة تقريباً، والصغرى في سنّ الرابعة. اكتشفت أنّهم كانوا يعرفون أكثر ممّا ظننت. ولجعلهم يتحدّثون بخجلٍ قليل، ظننتُ أنني -لو جعلتهم يرتدون غطاءً ما- قد أجني الثمرة التي أريد. وبإيجادي قناعاً في المنزل، أخبرتهم أن يقفوا جميعاً، ويتكلموا بجرأةٍ تحت القناع. ابتدأتُ مع الصغرى (آن) وسألتها: ما أكثر ما ترغب فيه طفلة مثلك؟ أجابت: البلوغ والخبرة. وحين سألت التالية (إيميلي): ما أفضلُ ما يجب أن أفعله لأخيها برانويل الذي كان شقيّاً أحياناً؟ أجابت: أن تحدّثه بالعقل، وحين لا يستجيب للعقل تجلده. وعندما سألت (برانويل): ما أفضل طريقة للتمييز بين عقول الرجال والنساء؟ أجاب: أن نأخذ بعين الاعتبار الاختلاف بين أجسادهم. وحين سألتُ (شارلوت): ما أفضل كتاب في العالم؟ أجابت: الكتاب المقدس. وما الكتاب الذي يليه؟ أجابت: كتاب الطبيعة. وحين

سألت التي تليها (إليزابيث): ما أفضل نموذج تعليمي للنساء؟ أجابت: الذي يجعلها قادرةً على إدارة المنزل جيداً. وحين سألت الكبرى (ماريا): ما أفضل وسيلة لتزجية الوقت؟ أجابت: أن تستلقي في الهواء الطلق وتُحضِّر لخلود سعيد».

لم تستمرّ الأجواء الهادئة في العائلة؛ إذ سرعان ما نزلت عليهم ثاني المصائب بعد إرسال الأخوات الأربع الكبريات، في عام 1824م، إلى مدرسة كاون بريدج الداخلية؛ فلسوء التغذية والصحة هناك مرضت الأختان الكبريان ماريا وإليزابيث وتوفيتا في النصف الأول من عام 1825م تباعاً في نحو شهرٍ واحدٍ. كان لهذه الحادثة أثرها في العائلة والأخوات، ومرَّت عليها شارلوت في الفصول الأولى من روايتها (جين إير). وما يعنينا هنا في هذه المدة هو بقاء آن وحيدة في المنزل مع خالتها والخادم «تابي» التي سيكون لها دورٌ في حياة الأخوات، وقد شهدت وفاتهنَّ جميعاً. تتعارضُ الأخبار والتحليلات حول شخصية الخالة إليزابيث برانويل، فترى فيها جيرن شخصيةً حادة الطباع وصارمةً، فلم تُظهر عاطفةً كبيرة تجاه ابنة أختها، وما كانت لتُقبِّلها قبل النوم؛ حيث نامت آن وحيدة في غرفة مظلمة غير مهوَّاة. في حين يرى كاتب السيرة نيك هولاند عدم صحّة هذا، وأنَّ خالتها أبدت عاطفة كبيرة ورعاية خالصة لآن، بيد أن ما يُلاحظ من بواكير كتابات آن الشعرية أنّها عاشت في عالمٍ ورعٍ تقيٍّ انعكس في شخصيتها، وتصف شارلوت أختها بعد سنوات لاحقة بالورَعة والمتديِّنة. والقارئ لروايتي آن يكشف ذلك بسهولة على عكس روايات شارلوت أو إيميلي.

التأَم شملُ الأخوات مجدداً بعودة شارلوت وإيميلي، في خريف عام 1825م، من مدرسة كاون بريدج. واستمرَّ تعليم الأخوات الذاتي بإشرافٍ من والدهنّ وخالتهنّ، وبدأت بعد نحو سنتين تتفتَّق موهبةُ الأطفال الأدبية، فدوَّنت شارلوت وبرانويل، دون أختيهما، (مجلات صغيرة) و(حكايات الجُزُر). وأدّى فارق السن بين آن وشارلوت وإيميلي وبرانويل دوراً في ترعرعِ آن قريبةً من إيميلي كأنّها توءَمها، كما وصفتها إلين نوسي صديقة العمر لشارلوت، وشاركتها الكثير في حياتها، وتعلمت منها حبَّ الطبيعة. وبقيت طوال حياتها مقرَّبة من إيميلي، الأخت العزيزة والصديقة، وهي تَظهرُ في رواية (أغنس غري) بشخصية الأخت ماري. تعزّزت العلاقة بين آن وإيميلي بعد ذهاب شارلوت لإكمال دراستها في مستهلّ عام 1831م في مدرسة روهيد حتى عودتها في نهاية عام 1832م. وكانت هاتان السنتان كافيتين لتشرعَ الأختان في كتابة قصتهما الخاصة، وهي قصة متنامية عن جزيرة (غوندال Gondal) في المحيط الهادئ، استمرَّ تدوينها حتى سنين متأخرة من حياة الاثنتين، وربّما لم تتوقَّفا قطّ كما تُلمح بعض القصاصات وأوراق اليوميات المتبقِّية، بيد أنّ

محتوى قصة غوندال لم ينجُ لأسباب مجهولة، من أكثرها شيوعاً تخلّص شارلوت من كتابات إيميلي وآن بعد وفاتهما؛ فلم تحتفظ إلا بالأشعار.

مارست شارلوت دوراً إرشادياً في توجيه أختيها أدبيّاً وفنيّاً حين كانت تدرس في روهيد، وبعد عودتها إلى هاورث حتى عام 1835م، حين وجبَ على إيميلي مغادرة هاورث إلى روهيد للدراسة مع أختها شارلوت التي حظيت بوظيفة معلّمة في المدرسة ذاتها، بيد أنَّ طبيعة إيميلي الانطوائية والمتعلقة بالمنزل أجبرت العائلة على إعادتها إلى المنزل واستبدالها بآن برونتي، التي عانت من وَحدةٍ، وشعرتْ بالتغيير الكبير في حياتها بسبب التحاق إيميلي بالمدرسة الداخلية وابتعادها عنها. واستمرَّت هذه التنقلات والتغييرات في حياتها بعد التحاقها هي بالمدرسة الداخلية، وابتعادها عن إيميلي مجدداً. قضت آن سنتين وثلاثة أشهر في مدرسة روهيد، وأبدت فيها تفوُّقاً ونجاحاً حتى عادت بعد إكمال الدراسة إلى منزلها في هاورث. وبفضل الآنسة وولر، ناظرة مدرسة روهيد، حظيت آن بأوّل وظيفة لها للعمل مربّية لدى آل إنغام، في نيسان/أبريل عام 1839م، بيد أنّها لم تستمرّ كثيراً لدى آل إنغام، ولم تتأقلم مع الصغار الأشقياء جوشوا، وماري، ومارثا في هذه العائلة، واستُغنِي عن خدماتها قُبيل نهاية السنة نفسها. وحظيت بعد نحو خمسة أشهرٍ في أيار/مايو 1840م بوظيفة مربّية جديدة لدى آل روبنسون، وبدأت العمل في قصر العائلة «ثورب غرين»؛ حيث قضت معهم نحو خمسة أعوام حتى صيف عام 1845م. تركت آن العمل بقرارٍ مفاجئ تُعزى أسبابه لعلاقة أخيها برانويل بالسيدة روبنسون بعد أن أمَّنت له آن وظيفة مرشد للابن إدموند ما بين 1843م - 1845م. كان لهذه السنوات تأثيرها الكبير في شخصها وأدبها، وعرَّفتها على مجتمع جديد مختلف في أخلاقياته عما تعوَّدت عليه آن، ونمَّت مبادئها القويمة وسلوكها الحصيف وفكرها الرزين، وهو ما يظهر لنا جليّاً في روايتها الثانية (نزيلة قصر ويلدفيل)، وألمحت إلى بعض تلك السلوكيات والأجواء الاجتماعية في رواية (أغنس غري)، لكنها اقتصرت عموماً في هذه الرواية على تجربة العمل مربّيةً لدى الأسرتين.

لا يُعرف على وجه اليقين إن أحبَّت آن رجلاً في حياتها، لكنْ يذهب بعض دارسي حياتها إلى وقوعها في غرام ويلي وتمن في سنوات عملها مربية. جاء وتمن في شهر آب/أغسطس عام 1839م إلى هاورث ليعمل مساعداً لوالدها الخوري باتريك، ولازمه حتى وفاته المبكرة في عام 1842م جرَّاء الإصابة بمرض الكوليرا الذي انتقل إليه لكثرة اختلاطه برعايا الأبرشية وعيادته لهم. أحبَّت آن وتمن حبّاً، في الأرجح، لم يُعرف إن كان متبادلاً أو من طرفٍ واحد، لكن له أثره في عواطفها وفكرها. وظهر وتمن في شعرها، وفي روايتها (أغنس غري) بشخصيّة الخوري وستن. نشأت علاقة قوية بين باتريك برونتي

ووتمن وصفها باتريك بأنّها علاقة أبٍ بابنه، وهو الوحيد الذي حظي بامتياز الولوج ومجالسة عائلة باتريك، كأنه فرد من العائلة، بيد أنّ شارلوت انزعجت منه بسبب طبيعته التحبُّبية للنساء، وقالت إنّه سيقع بغرام أيّ امرأة يقابلها، ويبدو أنّها شعرت بالغيرة كذلك؛ إذ تكتب في رسالةٍ لصديقتها نيلي في كانون الثاني/يناير 1842م: «قعد مقابلاً لآن في الكنيسة متأوِّهاً برقة ومحدِّقاً إليها بطرف عينيه ليكسب مشاعرها، وآن هادئة جدًّاً ومطأطأة الرأس، كأنهما لوحة». لم تُكتب لهذا الحب خاتمة جميلة، وبقي قصة غير مكتملة بسبب وفاته في عام 1842م، وهي السنة التي شهدت أيضاً وفاة الخالة إليزابيث.

اجتمعت الأخوات مجدداً في عام 1845م، بعد ترك آن عملها في قصر ثورب غرين وعودتها إلى هاورث، وسبقَ ذلك فشلُ فكرة الشروع في تأسيس مدرسة داخلية تُديرها الأخوات، بعد أن سعت شارلوت وإيميلي لتحقيقها دون أن يحالفهما النجاح. هكذا وجدت الأخوات أنفسهنَّ بلا عملٍ ولا مصدر دخل، وليس لديهنّ إلا ما تركته خالتهنّ من إرث. وشهدَ خريف هذه السنة واحدةً من أهمّ الانعطافات في تاريخ الأدب الإنجليزي الحديث. تذكر شارلوت في مقدمة روايتي أختيها (أغنس غري) و(مرتفعات وذرينغ)، المنشورتَين في طبعة خاصة عام 1850م، عن تلك الانعطافة (كتبت شارلوت المقدمة بلسان رجل): «في أحد أيام خريف 1845م، وقعتُ بالمصادفة على مجلد أشعار أختي إيميلي بخطّ يدها. وبطبيعة الحال، لم أكن متفاجئاً وعارفاً بأنّها كانت قادرة على نَظْم الشعر: تفحّصته جيداً، وتملّكني شيءٌ ما أكثر من الدهشة؛ إيمانٌ عميق بأنّ ما كُتب كان أكثر من مجرّد إراقة شائعة، ولا بشعر يشبه ما تكتبه النساء عموماً. رأيته شعراً مكثَّفاً، وموجزاً، وقويّاً، وحقيقيّاً. وكان له وقع في أذني بموسيقا جامحة مميزة، وسوداوية، ورفيعة [...] في غضون ذلك عرضت أختي الصغرى [آن] قصائد من نظمها، طالبةً مني الإطلاع عليها لمّا كانت قصائد إيميلي قد أبهجتني. ولم أتمكن من ألا أكون جائراً في حكمي، ومع ذلك ظننتُ أنَّ في ثنايا شِعرها، أيضاً، عاطفة حلوة صادقة». نتجَ عن هذا الإقناع لإيميلي، وكشفِ آن لقصائدها التي كانت تدوِّنها في سنواتها السابقة، صدورُ ديوانٍ جمع قصائد مختارة للأخوات الثلاث على حسابهنّ الخاص من الناشر Messrs Aylott & Jones، في بدايات شهر أيار/مايو 1846م، بأسماء مستعارة هي: (آكتون بيل «آن»، إيليس «إيميلي»، كُورير «شارلوت»). كان الديوان أنيقاً، ومكوناً من 165 صفحة بطبعة واضحة وورق جيّد، ومغلّفاً بقماش أخضر مُدهام، بيد أنَّ هذا العمل لم يلقَ نجاحاً على مستوى المبيعات أو التلقي الأدبي والنقدي؛ لذا قررت الأخوات التحوّل إلى الرواية لعدَّة أسباب منها أنهنّ زاولنَ الكتابة النثرية خلال سنواتهنّ السابقة، ولشارلوت محاولات قصصية. تحقّقَ للأخوات الثلاث كتابة روايات (أغنس غري) لآن، و(مرتفعات وذرينغ) لإيميلي، و(الأستاذ) لشارلوت، في عام 1847م، وبدأنَ رحلة بحثٍ عن ناشرٍ انتهت بقبول الناشر

روايتَي آن وإيميلي ورفض رواية شارلوت، فسعت بعد ذلك لإقناع Newby الناشرين بروايتها، وجاءها في الأخير رفضٌ محترمٌ من الناشر جورج سميث، الذي سيصبح ناشرها لاحقاً، وطلبَ منها عملاً آخر؛ فخرجت إلى الحياة رواية (جين إير) في تشرين الأول/أكتوبر 1847م، ولمَّا تُنشر بعدُ روايتا آن وإيميلي إلا بمرور ثمانية أشهر تقريباً في كانون الأول/ديسمبر في ثلاثة مجلدات؛ ضمَّ أول مجلدين رواية إيميلي، والمجلد الأخير رواية (أغنس غري)، التي نُشِرَت باسم مستعار هو آكتون بيل. والجدير بالذكر أنَّ الأخوات لم ينشرنَ أعمالهنَّ بأسمائهنّ الحقيقية في حيواتهنّ قط، ولهذا أسباب أُجملها لغاياتٍ تخصّ التقبل النقدي، وتجنُّب أيّ تحيُّز ضد أدبهنّ لأنهن نساء. وتكتب شارلوت عن هذا القرار: «ولنفورنا من اطّلاع العامة على هُويَّاتنا، ارتأينا النشر تحت أسماء كورير، إيليس، آكتون بيل، وكان هذا الخيار الغامض خَلْجَةً من خلجات النفس باستخدام أسماء مسيحيَّة رجوليَّة، ولم نرغب في الكشف عن هُوياتنا النسائية -دون الافتراض في حينها أن يُعامل نمط كتابتنا وتُظنُّ أنّها كتابات «نسائية»- فقد انتابنا انطباع مبهمٌ بأنَّ المؤلفات عرْضةٌ لأن يُعاملنَ بتحيُّز، ولاحظنا أنَّ النقَّاد أحياناً يستعملون في عقابهم سلاحَ الشّخْصَنة، وفي جزائهم الإطراء، وهو ليس بالإشادة الصادقة».

لم تتوقف آن عند رواية (أغنس غري)؛ إذ لم تبُحْ بكلّ ما في جَعبتها في هذه الرواية؛ فأردفتها بروايتها الثانية (نزيلة قصر ويلدفيل)، ونُشرت من ناشرها الأول Newby في حَزيران/يونيو 1848م، وأظهرت فيها براعة وتميُّزاً، وحظيت بإشادةٍ نقديةٍ وردِّ فعلٍ متباين لموضوعها الاجتماعي النقدي الصريح واللاذع، الذي كان سبباً في رفض شارلوت منح الإذن بإعادة طبعها بعد وفاة أختها، ووصفتِ العملَ بالغلطة الكبيرة، وهو سبب من الأسباب التي أرجِّحُ أنها أدَّت إلى انزواء آن إلى ظلّ أختيها نحو قرنٍ من الزمن.

عادت المصائب إلى عائلة برونتي في عام 1848م؛ إذ توفّي الأخ الوحيد برانويل في أيلول/سبتمبر، بعد صراعٍ مريرٍ ومعاناة إثر علاقته المشؤومة مع ليديا، زوجة السيد روبنسون، موظّفة آن الثّانية، التي انحدرَ جرَّاءها إلى إدمان الكحول والأفيون. وبعد نحو ثلاثة أشهر تُوفّيت إيميلي مصابةً بالسلّ في واحدةٍ من أغرب وفيّات العائلة؛ إذ رفضت العلاج مدَّعيةً سلامتها وعدم إصابتها بالمرض، الذي ما أقرَّت به إلا قبيل ساعاتٍ من موتها. كان لهاتين الوفاتين أثرٌ كبير في شارلوت وآن والأب باتريك، بيد أنَّ المصائب لم تنتهِ عند هذا الحدّ؛ إذ بدأت في السنة التالية صحّة آن بالتدهور مصابةً بالسلِّ أيضاً، حيث أحسَّت فيها بقدوم الموت، فخلَّدت أحاسيسها في آخر قصائدها الوجدانيَّة الورعة المخاطبة لربها، جاء فيها:

ظلامٌ مُفزعٌ يقتربُ/ من عقلي الحائرِ/ دعني أعاني ولا آثمُ/ وأعذَّبُ بعد الاستسلامِ

رغمَ عالمِ الضبابِ الأعمى/ لا يزالُ يتركني أنظرُ إليه/ ويَمنحني الشجاعةَ لأقاومَ/ الشيطَانَ حتى يهربَ

تُوفّيت آن في الثامن والعشرين من أيار/مايو 1849م في منطقة سكاربرا الشاطئية؛ حيث البحرُ الذي أحبَّته آن، بعد أن ذهبتْ في أيامها الأخيرة إلى منتجعٍ سياحيّ برفقة شارلوت وإلين نوسي، على أمل أنَّ تغيُّر الأجواء يساعد على تحسُّن صحّتها. دُفنت آن في ساحة كنيسة القديسة ماري، وكُتب، بخطأ من نوسي، على شاهد قبرها أنّها تُوفّيت في الثامنة والعشرين من العمر، في حين أنّها قد أتمَّت التاسعة والعشرين قبل وفاتها. وبسبب عواملِ التعرية المناخية، سقطت أجزاء من شاهد قبرها، ووضعَ مجتمع برونتي لوحاً في عام 2011م ذاكراً المكتوب على شاهد قبرها الأصلي مع التصحيح.

أرجو من القارئ الكريم الانتقال إلى قراءة الرواية والعودة إلى قراءة الجزء الأخير من هذه المقدمة.

رواية سيرية:

لفَهمِ رواية (أغنس غري) فَهماً حسناً لا بدَّ للقارئ من أن يربط ما بين الرواية وحياة الكاتبة؛ لأنّ الرواية، كما وصفتها شارلوت، «مرآةُ عقل الكاتبة». وما توانت آن في جعل عملها الأول سجلّاً حياتياً وإن تَقَنَّعَ في بعض أحداثه، لكنّه يبقى، في جزءٍ كبيرٍ منه، سيرةً لحياتها في قالبٍ روائي، وسعتْ، في بعض فصوله، إلى أن تمنحَ بطلتها أغنس الحياة التي تمنَّتها هي، كما هو الحال مع زواج أغنس من الخوريّ وستن. لا يعني هذا، بحالٍ من الأحوال، أن تؤخذَ الرواية على أنّها سيرة تامة، لكنّ الجدير بالملاحظة والإدراك، أثناء وبعد قراءة العمل، أنّه قائمٌ على حقيقة كونه انطباعاً وإعادة تدوين لحياة آن وما مرَّت به في تجربتها المهنية.

تستند الرواية فعليّاً إلى سني 1839م - 1845م من حياة آن، وعملها مربّيةً لدى آل إنغام، وآل روبنسون، الذين ظهروا في الرواية في عائلتي السيد بلومفيلد والسيد مري وأطفالهما، فشخصية السيدة بلومفيلد هي السيدة إنغام، والأطفال: توم بلومفيلد هو في الحقيقة الطفل جوشوا إنغام، وماري آن هي ماري، وفاني هي مارثا، وهاريت هي إيميلي. أما في عائلة مري فكانت شخصية السيدة مري هي السيدة ليديا روبنسون، والبنتان: روزالي في الواقع هي ليديا، وماتلدا هي إليزابيث، والابنان: تشارلز هو إدموند، وجون هو ماري. كما أدّت عائلة آن نفسها دوراً في بناء شخصياتٍ من الرواية: كوالدها، وخالتها (دور أمها)، وأختها إيميلي التي ظهرت في شخصية ماري أخت أغنس. والأهم بين كلّ هذه الشخصيات هي شخصية الخوري وستن المعادل الروائي لمساعد والدها ويلي وتمن، الذي أحبّته على الأرجح آن، وهذا ما تعضده الرواية ولاسيما نهايتها.

ليس مستغرباً على آن ذلك؛ فالأخوات برونتي، ولاسيما شارلوت، جعلنَ من حيواتهنَّ مادة خصبة لرواياتهنّ. وأقرت شارلوت، على سبيل المثال، بحقيقة عدم مقدرتها على الكتابة في موضوعات لم تجربها وتعايشها وتعرف أبعادها وخصائصها التي بالإمكان أن تنقلها إلى عالم متخيَّل. لا يفرق الأمر كثيراً عن آن، والسبب، في اعتقادي، كامنٌ في طبيعة الحياة التي عاشتها الأخوات منعزلاتٍ في هاورث، وهي حياة -وإن بدت بعيدة عن صخب المدينة والحضارة والدوائر الأدبية في لندن- كافية بطبيعتها لأن تكون قصة زاهية كما وصفها هنري جيمس. عَمَّ ستكتب الأخوات لو لم يكتبنَ عن الموضوعات التي كتبنَ فيها؟ وأيّ مصدر سيُلهمهنَّ إن لم يعتمدنَ على حيواتهنّ منبعاً للأفكار؟ إذا ما استثنينا رواية إيميلي (مرتفعات وذرينغ) فإنّ روايات الأخوات الستّ الأخرى تصدر من تجربةِ الحياة والواقع، ويمنحنا تتبع حيواتهنّ ورواياتهنّ رؤية شاملة وعميقة لفهم كلِّ حدث وشخصيةِ تقريباً في روايات الأخوات برونتي.

كانت تجربة العملِ مربّيةً مثريةً جدّاً لآن، ومصداق ذلك أنَّ هذه السنوات الست تقريباً من حياتها كانت الركن في روايتيها، اللتين قدَّمت عبرهما رؤيتها الأخلاقية وغايتها الإصلاحية في المجتمع الذي عاشت فيه، كما في رواية (نزيلة قصر ويلدفيل)، وكذلك في تدوين المرحلة الأهم في حياتها المتمثلة في العمل والحب في رواية (أغنس غري). سلّطت آن الضوء على عالمها الداخلي ومشاعرها وطبيعتها الهادئة الرزينة في شخصيتها أغنس، التي كانت هي آن تماماً، لكنها النسخة الصريحة منها في البوح والكشف عن مشاعرها وخلجات نفسها؛ وقادت دارسي سيرتها إلى الاعتماد كثيراً على رواية أغنس في فَهمِ أفضل لحياة آن، ونرى هذا واضحاً لدى جيرن، التي اسثمرت هذه الروايةً واعترافَ أغنس في لجوئها إلى تدوين الشعر بالعودة إلى شعر آن والتيقُّن من مشاعرها تجاه ويلي وتمن وتحليلها. صحيح أنَّه ليس لدينا دليل جازم من كتابات آن غير الروائية على حبّها لهذا الرجل، بيد أنَّ من الممكن معرفة اعتبار هذا الرجل وقدره عند آن بقراءة شخصية الخوري وستن، فما وستن إلا وتمن الذي أحبَّته آن، فقد نقلت إلى وستن طبيعة وتمن الدمثة والخلوقة وعنايته برعايا أبرشيته وكثرة مخالطتهم في الرواية. وفي الوقت الذي اختطف فيه الموت وتمن سريعاً، لم يُختطف وستن من يدي أغنس، ليشعر القارئ بأنَّ نهايةَ رواية (أغنس غري) سعيدةٌ بزواج أغنس ووستن، في حين أنّ القراءة الرابطة ما بين حياة آن وحياة أغنس تُرينا أنَّ هذه النهاية عكس ذلك، فهي حزينة في مصدرها الذي انبثقت منه. أرادت آن أن تعوّض نفسها في منح بطلتها ما لم تستطع هي الحصول عليه؛ أن تمنح أغنس حبيبها وستن في الوقت الذي حُرمت فيه هي من وتمن. إنّها النهاية المُتمنّاة في الواقع والمتّحققة في الخيال، وهذا يُبرزُ لنا جانباً إنسانياً تؤديه الرواية حين تخلق عالماً وحياةً كما يشتهي مُبدعها، فيمنح نفسه ما لم يحصل عليه، ويُجري الأمور على هواه ومشيئته، وفي الوقت ذاته تكشف هذه الهشاشة النفسيَّة التي لم تستطع التجاوز، وتريد وقوع المرغوب فيه حتى لو كان مستحيلاً، وأيّ استحالة أكثر من إحياء الميت؟ لكنّ آن أعادته في عالم الخيال والأحلام، وسطَّرت العودة على الورق. في آخر المطاف ليست الغاية من معرفة القارئ القواسم المشتركة بين حياة آن ورواية (أغنس غري) استعطافه أكثر من منحه أدوات الإدراك لبُنية العمل وأحداثه، وشخصياته، وأسسه.

تحمل هذه الرواية، بعيداً عن الجانب الحياتي المتعلِّق بكاتبتها، أهمية فنيَّة في أسلوبها الحذق الرصين، وأحداثها المشدودة سرديّاً، فلا يلمس القارئ أيّ ترهلات سردية أو إضافات تُخلُّ بأحداثها، أو تفسح المجال للساردة في بثِّ رؤاها، والاستطراد في ما لا يمتُّ إلى النص بصِلة.

ويتحتَّم على القارئ الانتباه إلى مسألة جوهرية في السرد المرتبط بوظيفة المربّية في الرواية؛ إذ أثرت النظرة المتجاهلة للمربّية في الساردة، فتسرد الأحداث كأنها موجودة وغير مرئية، فيختفي السارد رغم وجوده، ويعكس اختفاءَ المربّيةِ الإنسانةِ في حياة الأسرة التي تعمل لديها. وهو أمر غير مقتصر على آن، بل شملَ شارلوت كذلك كما في روايتها (جين إير)، لكنّ الفرق أن شارلوت ركّزت في روايتها على المحيط انطلاقاً من الخارج إلى الداخل، في حين ركزت آن في روايتها على الذات، فكان الانطلاق من الداخل إلى الخارج. هنا نرى آن مهتمّةً بذاتها وقَدْرِها ونظرتها لنفسها، ومحاولة إثباتها والمحافظة على كرامتها، مدركةً إهمال الآخر لها، فكانت في سعي دائم لإثبات نفسها لا في عيني رأسها، بل في عيني الآخر، وغالباً ما فشلت في ذلك؛ إذ تنقصها الجرأة لإبداء ما ترغب في قوله أو فعله، وكثيراً ما تكتشف أن منطلقاتها الفكرية والأخلاقية والدينية إنْ بدت متشابهة مع منطلقات الآخر فإنّ التنزيل في الواقع كان رصيناً حقيقيّاً راسخاً لديها، ومنعها الالتقاء مع الآخرين. لم تتوارَ أغنس عن ذاتها أو تجهلها في حياتها مع العائلتين، لكنها تعايشت مع الحال الذي ألفت نفسها فيه دون أن تَرْضخَ للواقع تماماً، أو تُرضِخَ الواقع لها، في حالة بينية تقوقعت فيها على ذاتها وحفظتها من التشوُّه دون أن تنفصل كلياً عن الواقع. وهذا ما نلمسه في ثبات الصوت السردي لدى أغنس وعدم تطوّر شخصيتها، فهي تبدأ ناضجة وتنتهي ناضجة برغباتها ذاتها ومخاوفها وإحجامها وقلَّة جرأتها، لكنّ ما يشفعُ لهذا الجمود في بُنية الشخصية أنها رواية مكتوبة بلسان أغنس الناضجة بعد مرورها بكل تلك التجربة، فهي لا تكتب دون أن تعي مآلات الأحداث التي خاضتها، لذا إنَّ الكتابة لم تكن تدويناً للحدثِ الآنيِّ الوقوعِ، بل لحدثٍ وَقَعَ وانتهى، فمكّنها ذلك من تقديم شخصية راسخة وثابتة، محتفظة بمبادئها طوال المشوار، دون أن تشعرنا بأيّ اختبارات أخلاقيّة شديدة تمرُّ بها، أو مخاضاتٍ عسيرة، فالهدوء سمة أغنس، والثقة مزيتها[1]

مؤمن الوزان

1

بيت الكاهن

تحوي كلُّ القصص الحقيقية إرشادات، لكن قد يعسرُ العثور على الجوهر في بعضها، وإنْ عُثِر عليه فهو شحيح المقدار شُحّاً تكاد تعوِّضُ فيه النواة الجافة المتغصّنة عن مشقّة كسر الجوزة. لا أحسبني أهلاً لأقرِّر ما إذا كان ذلك حال قصتي أو لا؛ إذ إنّي أرى قصتي أحياناً مفيدةً لطائفة من الناس ومسليةً لأخرى، لكن للعالَم أن يقرّر ذلك بنفسه. لا أخشى المجازفة، فأنا محميّة بخمولِ ذكري، ومضيِّ السنين، وبضعةِ أسماءٍ زائفة، ولأعرضنَّ أمام الملأ ما لن أطلع عليه أحمَّ صديقة.

كان أبي كاهناً من شمال إنجلترا، احترمه -وحُقَّ له ذلك- كلُّ من عرفه. عاش في أيام شبابه عيشة هنية في مُلكه الصغير المريح الدافئ، معتاشاً على دخلٍ مشترك لمنصب صغير تولاه. أما أمي، التي تزوجته معارضةً رغبة أصدقائها، فكانت ابنة مالكِ أراضٍ وامرأة شجاعة؛ إذ شُرِح لها عبثاً أنها إن أصبحت زوج الكاهن الفقير، فعليها أن تتخلّى عن مركبتها وخادمها وكل ما يوفره الغنى من ترفٍ وأناقة، وهي أمور عَدَّتها غير ضرورية للحياة. إنَّ مركبةً وخادماً لَهُمَا وسيلتان عظيمتان من وسائل الراحة، لكنّ لها –حمداً لله- قدمين تحملانها، ويدين تتوليان احتياجاتها. إنَّ بيتاً أنيقاً وأراضي رحبة ليست بأشياء تُمقَت، لكنّها تُؤثِر العيش في كوخ مع رتشارد غري على العيش في قصر مع أيّ رجلٍ آخر في العالم.

حين اتَّضح أنّ النقاشات لا طائل منها، أخبر أبوها أخيراً العاشقَين بأن بوسعهما الزواج إن رغبا في ذلك، لكن إن فعلا ذلك فستفقد ابنته كلّ جزء من ثروتها. توقع أن يهدّئ ذلك من حماستهما، لكنه كان مخطئاً، فقد فَطِن أبي إلى أنّ ثروة أمي، التي تفوق ثروته، لا يُؤبَه لها؛ لأنه رآها في ذاتها ثروةً فوق كلّ اعتبار، ولو لم تقبل بسوى تزيين جوانب مدفأته المتواضعة، فسيسعده الزواج بها بأيّ شروط، في حين فضَّلت هي أن تعمل بيديها على أن تُفَرَّق عن الرجل الذي أحبّته، الرجل الذي يسرُّها أن تكون مَولدَ فرحته، وقد اتَّحدَ معها سلفاً قلباً وروحاً. بذلك انتقلت ثروتها لتملأ جزدان أختٍ أحكم منها، أختٍ تزوّجت رجلاً ثريّاً ذا مكانة، وانتقلت هي، داهشةً كلّ من عرفها ومثيرةً أسفهم المتعاطف، لتدفنَ نفسها في بيت الكاهن المتواضع في القرية بين تلال ألـ***.

ورغم ذلك، بغضّ النظر عن كلّ ما حدث، وبغضّ النظر عن معنويات أمي المرتفعة ونزوات أبي، أنا موقنة بأنّ بوسعك أن تفتش في إنجلترا كلّها وتفشل في إيجاد زوجين أسعد منهما.

كنتُ وأختي ماري، من بين ستة أطفال، الوحيدتين اللتين نجتا من مخاطر سنّ الرضاع والطفولة المبكرة. عَدُّوني، لأني أصغر منها بخمس سنين أو ست، الطفلةَ ومحبوبةَ العائلة المدللة. اجتمع أبي وأمي وأختي كلّهم على تدليلي، ليس بالتساهل غير المسؤول الذي يصيِّرني مشاكسة وصعبة المراس، بل باللطف المتواصل الذي جعلني أعجز من أن أقارع هموم واضطرابات الحياة، وأشدّ اتكالية، وغير مؤهَّلةٍ لمقاساتها.

نشأتُ وماري في كنف عزلة تامة، وأخذت أمي، التي كانت كيسة جدّاً ومثقفةً على نحو حسن ومولعةً بالعمل في الآن ذاته، على عاتقها وحدها مسؤولية تعليمنا بأكملها، باستثناء اللغة اللاتينية التي تولّى أبي تعليمنا إيّاها، حتى إننا لم نرتد المدرسة قط. وتألّف اتصالنا الوحيد مع العالم، لعدم وجود مجتمع في الحي، من حفلة شاي فخمة بين الفينة والأخرى مع فلاحي المنطقة المجاورة الرئيسين وتُجَّارها (فقط لنتجنب وصمنا بأننا أعزُّ قدراً من أن نختلط بجيراننا)، وزيارة سنوية لبيت جدنا لأبينا؛ حيث عاش مع جدتنا الطيبة، وعمة عانس، واثنين أو ثلاثة سيدات وسادة كهول، الأناس الوحيدين الذين رأيناهم. تُمتعنا أمي، في بعض الأوقات، بقصص ونوادر من أيام صباها أيقظت، رغم أنها أمتعتنا متعة عظيمة، كثيراً، عندي على الأقل، أمنيةً خفيّة برؤية قدرٍ أكبر من العالم.

ظننتُ أنّها كانت -لا شك- سعيدة جدّاً، لكنها لم تبدُ نادمة قط على الأيام الخوالي. رغم ذلك، أزعج أبي، الذي لم يكن هادئ المزاج أو مرحاً، نفسه بإفراطه في تأمّل التضحيات التي قدّمتها زوجه العزيزة له، وإقلاق رأسه بالتفكير مليّاً في خططٍ لا نهائيّة لزيادة ثروته القليلة لأجلها ولأجلنا. عبثاً طمأنته أمي بأنّها مسرورة جدّاً، ولو أنه يدّخر القليل للطفلتَين فحسب فسنحظى كلّنا بالكثير في الحاضر والمستقبل، لكنّ الادخار لم يكن موطن قوّة أبي، لم يكن ليصبح مديناً (أو في الأقل حرصت أمي على ألا يصير مديناً)، لكن ما دام يملك المال فعليه إنفاقه؛ أحبَّ رؤية بيته مريحاً وزوجه وابنتيه مرتدياتٍ ثياباً حسنة ومخدوماتٍ خدمةً جيدة، وكان، إلى جانب ذلك، ميالاً إلى الإحسان، مُحِبّاً للتصدق على الفقراء بالقدر الذي تسمح به موارده المالية أو، كما قد يظنّ بعضهم، بأكثر من القدر الذي تسمح به.

سُررنا وأبي بتطلعاتنا المشرقة، صحيح أنّ ثروتنا اقتصرت في الوقت الحاضر على دخل وظيفة الخوري، لكن بدا أنّ أبي يرى أنّ ما من حاجة إلى أن نحدَّ نفقاتنا على نحو دقيق على ذلك الدخل، لذا بدَينٍ سارٍ من السيد جاكسن، وثانٍ من السيد سميث، وثالثٍ من السيد هوبسن، عشنا عيشة أهنأ حتى من ذي قبل، مع أنّ أمي أكّدت أنه يُستحسن بنا الالتزام بما يسمح به دخلنا؛ لأن تحقّق تطلّعاتنا للثراء ليس أمراً متيَقناً بعد كلّ شيء، ولو أنّ أبي يعهد بكلّ شيءٍ لإدارتها فحسب فلن يشعر أبداً بأنه قد بُخِل عليه، لكنّه كان، لأول مرة، عنيداً.

ما أبهجها من ساعاتٍ قضيتُها وماري جالستَين في مكان عملنا بجانب النار، أو متجولتَين في التلال المغطاة بالخلنج، أو منفقتَين الوقت كسلاً وتراخياً تحت شجرة البتولا الباكية (الشجرة الضخمة الوحيدة في الحديقة)، مُحَدِّثَتَين نفسينا وأبوينا عن السعادة المستقبلية، وعن ما سنفعله ونراه ونملكه بلا أساسٍ أرسخ لبنيتنا الفوقية الضخمة من الثروة المتوقع أن تفيض علينا من نجاح تخمينات التاجر الكُفء. كان أبي متلهفاً بمثل تلهّفنا تقريباً. الفرق الوحيد أنّه تكلف ألا يكون جديّاً جداً في تعبيره عن آماله المشرقة وتوقّعاته المتفائلة، وذلك بالدعابات والنكات المازحة، التي بدا لي دائماً أنّها تتّسم بذكاءٍ ومتعةٍ شديدَين. ضحكت أمّنا بابتهاجٍ لرؤيته ممتلئاً بالأمل والسعادة، لكنّها ظلّت، رغم ذلك، خائفة من كونه تواقاً إلى الأمر أكثر من اللازم، وسَمعتُها ذات مرة تهمس قائلةً، وهي تغادر الحجرة: «عسى ألا يخيب أمله! فلا أعرف كيف سيقوى على تحمّل ذلك».

خاب أمله، خاب بمرارةٍ أيضاً. وقع الخبر علينا كأنّه قصف الرعد؛ خبر أنّ المركب التي تحوي ثروتنا قد غرقت وسقطت في الأعماق بكلّ مخزونها مع بضعة أشخاص من طاقم السفينة والتاجر التعيس نفسه. حزنتُ عليه، حزنتُ على سقوط قصورنا الواهية الأسس، لكن تعافيتُ سريعاً من الصدمة بفضل مرونة الشباب.

مع أنّ للثروة سحرَها، فإنّ الفقر لا يشكّل ترهيباً لفتاةٍ غرَّة مثلي. ثمّة -لا شك- لأصدقكم القول، شيءٌ منعشٌ في فكرة أنّنا نُقتاد إلى العسر، وأننا مضطرون إلى الاعتماد على أنفسنا. تمنّيتُ فقط لو كان بابا وماما وماري يماثلونني الرأيَ، وبذلك، بدلاً من رثاء نكبات الماضي بوسعنا جميعاً الشروع في العمل على إصلاحها بمرح، وكلّما عظمت الصعوبات وتفاقم الحرمان انبغى أن يتعاظم معها ابتهاجنا لتحمُّل الثاني ونشاطنا لمكافحة الأول.

ما رثتْ ماري نكباتِ الماضي، لكنّها شغلت ذهنها شغلاً متواصلاً بسوء الحظ الذي أصابنا، وغرقت في حالة اكتئابٍ لم تفلح أيٌّ من جهودي في انتشالها

منها. لم أقدر، بأيّ حال، على أن أحمِلها على أن تنظر إلى الجانب المشرق من الأمر مثلما فعلتُ، وكنتُ -لا شك- أخشى أنْ أُتَّهم بالعبث الطفولي أو اللامبالاة الحمقاء، إلى حدّ أني احتفظتُ، بحذرٍ، بمعظم أفكاري الذكية وآرائي المبهجة لنفسي، لعلمي تمام العلم بأنّها لا يمكن أن تُستحسن.

شغلت أمي تفكيرها فقط بمواساة أبي وقضاء ديوننا وتخفيض نفقاتنا بكلّ وسيلة ممكنة، لكنّ النكبة سحقت أبي بالكامل؛ تدهورت صحته وقوته ومعنوياته تحت وطأة الضربة، ولم يستردّها استرداداً كاملاً قط. عبثاً جاهدت أمي لإبهاجه بتذكيره بتقواه وشجاعته وحبّه لها ولنا. كان ذلك الحبّ تحديداً عذابه الأعظم، فلأجلنا كان توقه الشديد إلى زيادة ثروته، إنّها مصلحتنا التي أعارت آماله إشراقاً، وأضفت على محنته الحالية مرارة. هو الآن يعذّب نفسه بالندم على إهماله نصيحةَ أمي التي كانت، في الأقل، ستكفيه العبء الإضافي المتمثّل في الدَّين. عبثاً وبَّخ نفسه على جلبها من الكرامة والرخاء ووسائل الترف، التي وفرتها لها منزلتها الاجتماعية السابقة، لتكدح معه في هموم الفقر وأعماله الشاقة. كان كالعلقم لروحه والأسى المرير أن يبصر تلك المرأة الباهرة، الكيّسة، مَن كانت ذات يوم تُعشَق وتُغازَل كثيراً، تتحول إلى زوج نشيطةٍ مقتصدة، يداها ورأسها مشغولان على الدوام بأعمال المنزل واقتصاده. الطواعية التي أدت بها تلك الواجبات، الابتهاج الذي احتملت به حظوظها العاثرة، الطيبة التي جعلتها تمسك عن رميه بأصغر لوم، حرَّف معذِّب النفس المبدع هذا كلَّ ما سبق بجعلها تفاقماتٍ لمعاناته، وهكذا أتلف العقلُ الجسدَ وعَلَّ نظام الأعصاب اللذين زادا مشاكل العقل حتى أضحت صحّته، نتيجة الفعل ورد الفعل، ضعيفة ضعفاً خطِراً، ولم يكن في وسع إحدانا إقناعه بأنّ أوضاعنا ليست بنصف الكآبة التامة واليأس الخالص اللذين يصورهما له خياله المَرَضي.

بِيعت مركبة الجياد النافعة ومعها الجواد القوي حسن التغذية؛ جوادنا القديم المفضل الذي قررنا قراراً لا رجعة فيه أنّ عليه قضاء أيامه الأخيرة بسلام وألا يخرج عن ملكنا، وأُجِّر بيت المركبات الصغير والإسطبل وسُرِّح الصبي الخادم، والخادمُ الأكفأ من بين خادمَين (لكونها أعلى راتباً) من العمل. رُمِّمَت ثيابنا وثُنِيَت ورُتِّقَت إلى أدنى حدٍّ تسمح به الحشمة، قلَّ طعامنا، الذي كان دوماً قليلاً، الآن، إلى درجةٍ غير مسبوقة باستثناء أطباق أبي المفضلة. اقتصدنا بفحمنا وشموعنا اقتصاداً شديداً مؤلماً؛ قُلِّص زوجا الشموع إلى شمعة استخدمناها بأقصى تقتير، واقتصدنا بحذرٍ في استخدام الفحم في حامل نار الموقد نصف الفارغ، خصوصاً حين كان أبي خارجاً يؤدي واجباته الأبرشية، أو طريح الفراش خلال مرضه، ثمّ جلسنا وأرجلنا على سياج المدفأة، نحكّ الجمرات التي تخبو ببعضها بين الفينة والأخرى، ونذرُّ عليها

أحياناً غباراً خفيفاً وكِسَراً من الفحم فقط لنبقيها مشتعلة. أمّا سجاداتنا فقد أصبحت، في آخر الأمر، رثةً ورُقِّعَت ورُتِّقَت أشدّ حتى من ثيابنا. توليتُ وماري مسؤولية العناية بالحديقة توفيراً لنفقة البستاني، أمّا كلّ أعمال الطبخ والمهمات المنزلية، التي لم يكن من السهل على خادم واحدة تولّيها، فتولتها أمي وأختي، مع مساعدة صغيرةٍ منّي بين الفينة والأخرى، مساعدةٍ صغيرة فقط؛ لأنني، رغم أنني حسبتُ نفسي امرأة، ما زلتُ طفلةً في نظرهما، ولم تُوهب أمي، حالها كحال النساء النشيطات المقتصدات، بنات نشيطات جدّاً، لهذا السبب، ولأنها ماهرة ومجتهدة جدّاً بنفسها، لم يُغْرِها قط أن تعهد بشؤونها إلى أحد ينوبها، لكنّها، على النقيض من ذلك، مستعدّة لأن تتصرّف وتفكّر لغيرها كما لنفسها أيضاً، وجنحتْ إلى الاعتقاد بأنّه، أيّاً كان الشأن الذي ينبغي تدبّره، لا أحد بوسعه تدبّره خيراً منها؛ إذ كلّما عرضتُ عليها يدَ المساعدة تلقّيتُ إجاباتٍ من قبيل: «لا يا حبّي، لا يمكنك ذلك بطبيعة الحال، ما من أمرٍ هنا بوسعكِ فعله. اذهبي وساعدي أختكِ أو أقنعيها بالتنزّه معكِ، أخبريها أنّه لا ينبغي لها كثرة القعود والبقاء في البيت على نحوٍ متواصل كما تفعل، فهذا سيجعلها هزيلة ومكتئبة».

«يا ماري، أخبرتني ماما أن أساعدكِ أو أقنعكِ بالتنزّه معي، قالت إنكِ ستبدين هزيلة ومكتئبة إن لزمتِ البيت باستمرار».

«لا يسعكِ مساعدتي يا أغنس، ولا يسعني الخروج معكِ، فلديّ الكثير جدّاً لأقوم به».

«إذاً، دعيني أساعدكِ».

«لا يسعكِ فعلَ ذلك بطبيعة الحال يا طفلتي العزيزة. اذهبي وتدربي على العزف أو العبي مع الهريرات».

ثمة الكثير دائماً من أعمال الخياطة في متناول أيدينا، لكن لم أُعَلَّم طريقة تقطيع ثوب واحد، وعدا قليلٍ من أعمال التهديب والدرز اليسيرة، لم يوجد إلا قليلٌ بوسعي فعله حتى في ذلك المجال؛ لأنهما كلتاهما قد أكّدتا أن قيامهما بالأعمال بنفسيهما أيسر بكثير من تجهيزها لي، كما أنّهما فضّلتا رؤيتي أواصل دراستي أو أمتّع نفسي، فما أطول الوقت الذي سيتسنّى لي فيه القعود محنية الظهر فوق عملي مثل عقيلة وقورة حين تصبح هرتي الصغيرة المفضلة عجوزاً وقرينة لي. لم يكن تبطلي في ظروف كتلك -وإن لم أكن بأكثر فائدة من الهريرة- بلا مبرّر تماماً.

لم أسمع أمي تتشكى من افتقارنا إلى المال قط خلال كلّ متاعبنا، إلا مرة واحدة؛ علّقت قائلةً لي ولماري مع دنوّ الصيف: «ما أحسن قضاء أبيكما بضعة

أسابيع في منتجع مائي. أنا متيقنة من أن هواء البحر وتغيير المكان سينفعانه نفعاً كبيراً». ثمّ تنهّدت وأردفت قائلة: «لكن، كما تريان، ما من مال». رجونا كلتانا بشدّة لو كان بوسع ذلك أن يحدث، وأسفنا أسفاً عظيماً لكونه غير ممكن الحدوث. قالت: «لا طائل من الشكوى على أيّ حال، ربّما هناك ما يمكن فعله لتطوير المشروع بعد كلّ شيء. يا ماري، أنتِ رسامة بارعة. ما رأيكِ في رسم بعض اللوحات الإضافية بأفضل أسلوب عندكِ ثمّ تأطيرها مع اللوحات المرسومة بالألوان المائية التي رسمتِها سلفاً، ومحاولة بيعها لتاجر لوحات كريم يتمتّع بحاسة تخوّله تبيُّن قيمتها؟».

«يا ماما، يسعدني ظنّكِ أنّها يمكن أن تُباع، وبأيّ ثمنٍ يستحقّ العناء».

«محاولتنا تستحقّ العناء مع ذلك، تدبّري يا عزيزتي أمر اللوحات، وسأحاول العثور على مشترٍ».

قلتُ: «أرجو أن يكون بمقدوري فعل شيء».

«أنتِ يا أغنس! من يدري، أنتِ ترسمين رسماً جيداً أيضاً. إن اخترتِ لوحة زيتية يسيرة لموضوعكِ؛ يسعني القول إنَّ بمقدورك إنتاج شيء سنفخر كلنا بعرضه».

«لكن لديّ خطة أخرى في رأسي يا ماما، جالت في رأسي منذ وقت طويل، لكن لم يرُق لي ذكرها فحسب».

«عجباً! أطلعينا عليها رجاءً».

«أودّ أن أكون مربّية».

هتفت أمي متفاجئةً وضحكت. أوقعت أختي عملها من الدهشة، وهتفت قائلة: «أنتِ مربية يا أغنس! ما الذي عساكِ تحلمين به؟».

«حسناً! لا أرى في ذلك أمراً استثنائيّاً جدّاً. لا أجرؤ على القول إني قادرة على تعليم الفتيات الكبيرات، لكني، بالتأكيد، قادرة على تدريس الصغيرات، وأرغب في ذلك بشدة. أنا مولعة بالأطفال، اسمحي لي بذلك يا ماما!».

«لكن يا حبي، أنتِ لم تتعلّمي الاعتناء بنفسكِ بعد، كما أنّ الاعتناء بالأطفال الصغار يتطلّب تقدير أمور وخبرة على نحوٍ أشدّ بكثير من الأطفال الكبار».

«لكن يا ماما، لقد تجاوزتُ الثامنة عشرة من العمر، وأنا قادرة على الاعتناء بنفسي وبغيري على أكمل وجه. أنتِ غير مدركة لنصف الحكمة

والتعقل اللذين أتمتّع بهما؛ لأن أحداَ لم يختبرني قط».

قالت ماري: «فكري فحسب، ما الذي ستفعلينه في بيت مليء بالغرباء دون وجودي وأمي للتحدّث والتصرّف نيابة عنكِ مع مجموعة أطفالٍ، إضافةً إليك، عليكِ الاعتناء بهم، وليس حولك من أحدٍ تستشيرينه؟ لن تعرفي حتى أيّ ملابس عليكِ ارتداؤها».

«هذا ظنّكِ بي لأني أفعل دائماً ما تطلبينه منّي دون أن يكون لي رأيي الخاص، لكن اختبريني فحسب، هذا كلّ ما أطلبه، وسترين ما بوسعي فعله».

دخل أبي في تلك اللحظة وشُرح له موضوع نقاشنا.

صاح قائلاً: «ماذا؟ صغيرتي أغنس مربية!». أضحكته الفكرة رغم اكتئابه.

«أجل يا بابا، إيّاك أن تعترض على ذلك، ستعجبني الوظيفة جدّاً، أنا متيقنة من مقدرتي على تدبر أموري تدبُّراً سارّاً».

«لكن، يا عزيزتي، لا يسعنا الاستغناء عنكِ». وتلألأت دمعةٌ في عينه وهو يردف قائلاً: «لا، لا! نحن إن كنا مبتلين فلسنا بالتأكيد مضطرّين إلى هذه الخطوة بعد».

قالت أمي: «أوه لا! ما من حاجة على الإطلاق إلى هذه الخطوة. هذه ليست إلا محض نزوة من نزواتها؛ لذا ينبغي عليكِ إمساك لسانكِ أيتها الفتاة الشقية، لأنك إن كنتِ على أهبة الاستعداد لمفارقتنا فإنكِ تعلمين جيداً أنّه لا يسعنا مفارقتكِ».

أُسْكِتُّ ذلك اليوم ولأيام عديدة تبعته، لكني ما زلتُ لم أتخلَّ بالكامل عن خطتي العزيزة. حصلت ماري على لوازم رسمها، وشرعتْ في العمل بمواظبة. حصلتُ على لوازم رسمي أيضاً، لكني فكرتُ في أمور أخرى وأنا أرسم؛ ما أبهج أن أكون مربية! أن أخرج إلى العالم، أن أشرع في حياة جديدة، أن أتصرف كما أحب، أن أستغل قدراتي غير المستخدمة، أن أختبر قواي المغمورة، أن أكسب رزقي الخاص وشيئاً يريح ويساعد أبي، وأمي، وأختي، بالإضافة إلى عتقهم من توفير مطعمي وملبسي، أن أُريَ بابا ما بوسع صغيرته أغنس فعله، أن أقنع ماما وماري بأنني لستُ المخلوقة العاجزة المتهورة التي يتصورانِها. علاوة على ذلك، ما أجمل أن أوتمن على الاعتناء بالأطفال وتعليمهم! شعرتُ بأني مؤهلة تماماً للمهمة، بغضّ النظر عمّا قاله الآخرون. تذكري الواضح لأفكار طفولتي المبكرة سيكون مرشداً موثوقاً أكثر من تعليمات أنضج ناصح، فليس عليّ إلا أن أتحول من تلاميذي الصغار إلى نفسي

حين كنتُ في سنهم، وسأعرف فوراً كيف أكسب ثقتهم وحبهم: كيف أوقظ الندم في المذنب، كيف أجعل الخجول أجرأ وأواسي المحزون، كيف أجعل الفضيلة سلوكاً ممارساً، والتعليم مرغوباً، والدينَ محبباً إلى النفس ومفهوماً.

يا لها من مهمّة سارّة[2] !

أن تُعلِّم الفكرةَ الصغيرة كيف تتبرعم!

أن تدرب النباتات الغضة وتشاهد براعمها تتفتح يوماً تلو الآخر!

ظللتُ عازمة على المثابرة متأثّرة بدوافع عديدة، رغم أن خوفي من إثارة استياء أمي، أو إقلاق مشاعر أبي، منعاني من استئناف الموضوع عدة أيام. ذكرتُ الموضوع لأمي مجدداً أخيراً على انفراد، وجعلتُها تعد، بشيء من الصعوبة، بأنها ستساعدني بمحاولاتها؛ نلتُ موافقة أبي المتمنعة تالياً، ثمّ شرعت أمي العزيزة الطيبة، رغم أن ماري تنهدت مُفصحةً عن رفضها، في البحث عن عمل لي. راسلتْ أقرباء أبي، وراجعتْ إعلانات الصحف؛ إذ قطعتْ صلتها بأقربائها منذ وقت طويل، وكلّ ما حظيتْ به منذ زواجها هو تبادل رسائل رسميّ بين الفينة والأخرى، ولم تكن لتلجأ إليهم في أيّ وقت في مسألة من هذا النوع. لكن عزلة أبويَّ عن العالم كانت طويلة وكلية تماماً؛ إذ انقضت أسابيع كثيرة قبل أن تُنال وظيفة مناسبة. وقُضِي لي أخيراً -ما أبهجني جدّاً- أن أتولى مسؤولية عائلة حديثة، عائلة السيدة بلومفيلد التي عرفتها في شبابها عمتي غري الطيبة المتشدِّدة، وأكّدت أنها امرأة لطيفة جدّاً. زوجها تاجرٌ متقاعدٌ حقّق ثروة كافية، لكنْ لم يكن ممكناً إقناعه بإعطاء راتب أكثر من خمس وعشرين جنيهاً استرلينياً لمعلّمة أطفاله. أمّا أنا فكنتُ سعيدةً بقبول ذلك بدلاً من رفض الوظيفة، الأمر الذي كان أبواي يَعُدَّانه خطة أفضل.

لكن ما زالت هناك بضعة أسابيع إضافية مكرّسة للاستعدادات. ما أطول وأضجر ما بدت عليه تلك الأسابيع! لكنّها، على نحو عام، أسابيعُ سعيدة مليئة بالآمال المشرقة والتوقعات المتأججة. ما أغرب اللذة التي استشعرتُها وأنا أساعد في خياطة أثوابي الجديدة، ثمّ حزم صناديق ثيابي! لكن هذا الفعل الأخير ممزوجٌ بالمرارة أيضاً، وحين فرغتُ منه، حين تهيَّأ كلّ شيء لرحيلي في الصباح، واقتربت آخر ليلة في البيت؛ بدا أن كرباً مباغتاً قد فعم فؤادي. بدا أصدقائي الأعزاء حزينين جدّاً، وتحدثوا بطيبة بالغة، حتى إني كبحتُ، بشق الأنفس، عينيَّ من أن تفيضا، لكن تيسر لي، رغم ذلك، تصنّع المرح. تجولتُ جولتي الأخيرة مع ماري في البراح، سرتُ سيري الأخير في الحديقة وحول البيت، وأطعمتُ معها حماماتنا المدللة للمرة الأخيرة، تلك المخلوقات الجميلة التي دجَّنّاها على أن تلتقط بمناقيرها طعامها من أيدينا. مسدتُ كل ظهورها

الناعمة كالحرير تمسيدة وداعٍ حين احتشدت على حجري، قبَّلتُ من أخصّهما بالتفضيل قبلاً رقيقة؛ زوجي الحمام المِرْوَحِيّ الثلجيّ البياض، عزفتُ مقطوعتي الموسيقية الأخيرة على البيانو القديم الذي أَلِفتُه، وغنيتُ أغنيتي الأخيرة لبابا؛ ليست الأخيرة -أملتُ ذلك- لكنها الأخيرة في ما بدا لي زمناً طويلاً.

ربما حين أقوم بتلك الأمور مرةً أخرى سأقوم بها بشعور مختلف، فقد تتغيّر الظروف، وهذا البيت قد لا يعود أبداً بيتي الذي أستقرّ فيه. ستتغيّر صديقتي العزيزة الهريرة بالتأكيد. لقد كبرت القطة الجميلة سلفاً، وفي الأرجح، حين أعود في زيارة سريعة في عيد الميلاد، تكون قد نَسِيتْ رفيقة لعبها ومزاحها المرح. لعبتُ معها بصخبٍ للمرة الأخيرة، وحين مسدتُ فراءها الناعم الزاهي، أثناء خرخرتها وهي توشك على النوم مستلقية على حجري، كانت تمسيدة يكتنفها حزن لم أتمكن من إخفائه بسهولة. ثم، في وقت النوم، حين أويتُ وماري إلى الفراش في حجرتنا الصغيرة الهادئة، حين أُفْرِغَت أدراجي سلفاً، وأضحت حصتي من خزانة الكتب فارغة، وحيث ستضطر إلى النوم وحدها من الآن فصاعداً في عزلة موحشة على حدّ تعبيرها؛ اغتمّ فؤادي أكثر من ذي قبل. شعرتُ كما لو كنتُ أنانية ومخطئة لإصراري على الرحيل عنها. وحين ركعتُ، مرة أخرى، بجانب سريرنا الصغير، دعوتُ الربَّ أن يباركها وأبويَّ بحماسة لم أعهدها قط. دفنتُ وجهي في يديَّ لأخفي مشاعري، وما أسرع ما اغتسلتا بالدمع. أدركتُ، أثناء نهوضي، أنها كانت تبكي أيضاً، لكنْ كلتانا لم تنبس ببنت شفة، وشرعنا في الرقاد بصمت، زاحفتَين إلى بعضينا على نحو أكثر قرباً لوعينا بأننا سنفترق قريباً جداً.

لكن الصباح جلب أملاً ونشاطاً جديدَين. توجب عليّ الرحيل مبكراً لتعود وسيلة النقل التي أقلتني (عربة استأجرها السيد سميث؛ بقَّال القرية، وتاجر شايها، وبائع أجواخها وألبستها) في اليوم ذاته. نهضتُ، واغتسلتُ، ولبستُ، وازدردتُ فطوراً سريعاً. تلقيتُ الأحضان الحنونة من أبي، وأمي، وأختي. قبَّلتُ القطة، الفعل الذي استهجنته الخادم سالي بشدة، ثمّ صافحتُها، وركبتُ العربة. أسدلتُ طرحتي على وجهي. في تلك اللحظة بالضبط، وليس قبلها، شرعتُ بالبكاء. سارت العربة، نظرتُ إلى الخلف، ما زالت أمي وأختي العزيزتان واقفتين عند الباب، تتبعاني بأعينهما، وتلوحان لي تلويحات الوداع. لوحتُ لهما بدوري، ودعوتُ الله من قلبي أن يباركهما. نزلنا من التل ولم يعد بوسعي رؤيتهما.

أبدى سميث ملاحظة قائلًا: «إنَّه لصباح تشوبه بعض البرودة يا آنسة أغنس، وشمسٌ مظلمة بعض الشيء، لكن لعلنا نصل إلى وجهتنا قبل أن ينهمر المطر بغزارة».

أجبتُه قائلة بأقصى ما استطعتُ من الهدوء: «أجل، آمل ذلك».

«لقد أمطرت بغزارة ليلة أمس أيضاً».

«أجل».

«لكن، لعل هذه الريح الباردة تبعد المطر».

«لعلها تبعده».

انتهى حديثنا هنا. عبرنا الوادي، وأخذنا نصعد التل المقابل. في أثناء تقدمنا صعوداً بمشقة، نظرتُ إلى الخلف مجدداً؛ حيث يستدفئ برج القرية، وخلفه بيت الكاهن العتيق الرمادي بشعاع شمس مائل. كان محض شعاع واهن، لكن كل القرية والتلال المحيطة بها قابعة في ظلال مظلمة. واحتفيتُ بالشعاع المتجوّل إذ عددتُه فألَ خيرٍ على بيتي. توسلتُ، ويداي متشابكتان، باتقادٍ أن تحلّ البركة على ساكنيه، وأشحتُ بوجهي سريعاً؛ إذ رأيتُ شعاع الشمس آخذاً في الأفول، وتجنّبتُ بحذرٍ أن أرمقه بنظرة أخرى خشيةَ أن أبصره محاطاً بالظلال الموحشة كبقية البرِّية من حوله.

2

الدروس الأولي في فن التعليم:

تحسّن مزاجي مجدداً، أثناء سير العربة، وعدتُ أتأمّل مسرورةً الحياة الجديدة التي سألجها. على الرغم من أن الوقت لم يتجاوز منتصف شهر أيلول/سبتمبر، كانت الغيوم الكثيفة والريح الشمالية الشرقية العاتية قد اجتمعت لتُصَيِّر اليوم كئيباً وشديد البرودة. وبدا أن الرحلة ستطول؛ لأنَّ الطرق، كما لاحظ سميث، «موحلة جدّاً»، وحصانه، بالتأكيد، ثقيل جدّاً أيضاً[3]؛ إذ تقدَّم ببطءٍ صاعداً التلال، ودَرَجَ نازلاً منها ولم يهبط بجسده إلا ليَخُبَّ هازَّاً جانبيه حين تكون الطريق تامة الاستواء أو منحدرة انحداراً يسيراً جدّاً، وهو شيءٌ نادر الوجود في تلك المناطق الوعرة؛ لذا قاربت الساعة الواحدة قبل وصولنا إلى وجهتنا. رغم ذلك، ورغم كلّ شيء، حين ولجنا المدخل الحديدي الشاهق، وسارت العربة على مهل فوق طريق العربات الممهد تمهيداً حسناً، وذي المروج الخضراء على جانبيه، والمرصع بالأشجار الصغيرة، واقتربنا من قصر ويلوود الفخم مع جِدَّته معتلياً أيكاتِ حَوْره الفطرية؛ خذلني قلبي، وتمنيتُ لو أنَّه أبعد بميل أو ميلين. أول مرة في حياتي عليّ أن أصمد وحدي، ما من سبيل للانسحاب الآن، عليّ أن ألج ذلك المنزل، وأعرِّف بنفسي بين سكانه الغرباء. لكنْ أنّى لي أن أفعل ذلك؟ صحيح أن عمري قارب التاسعة عشرة، لكن بفضل حياتي المنعزلة، وعناية أمي وأختي المصونة، أدركتُ أنَّ العديد من الفتيات ذوات الخمس عشرة سنة أو أقل قد وُهبن أسلوبَ حديثٍ أكثر أنثوية واطمئناناً وثقةً بالنفس وأعظم ممّا لدي. لكن إن كانت السيدة بلومفيلد امرأة طيبة رؤوماً فقد أتدبر أمري تدبراً حسناً رغم كلّ شيء. أمّا الأطفال فسأرتاح معهم قريباً بطبيعة الحال، وأملتُ ألا أضطرّ إلى التعامل مع السيد بلومفيلد إلا قليلاً.

حدثتُ نفسي قائلة: «اهدئي. مهما حدث اهدئي». لقد حافظتُ على هذا التصميم حفاظاً جيداً حقّاً، وشُغِلتُ جدّاً بتهدئة أعصابي وإخماد خفقان فؤادي المتمرد، حتى إنّي حين أُدخِلتُ حجرة الجلوس، وأُرشِدتُ إلى حضرة السيدة بلومفيلد، كدتُ أغفل عن ردّ تحيّتها المهذبة، وخطر في بالي، فيما بعد، أن القليل الذي قلتُه قيل بنبرةِ مَن هي شبه ميتة أو شبه نائمة. كان أسلوب السيدة فاتراً قليلاً أيضاً، وهو ما اكتشفتُه حين تسنّى لي الوقت للتفكير مليّاً

في ما حدث. كانت امرأة طويلة، نحيلة، جليلة، شعرها أسود كثيف، وكانت عيناها رماديتين باردتين، وبشرتها شديدة الشحوب.

لكنّها أرتني، من باب التهذيب، حجرةَ نومي، وتركتني هناك لأنال قسطاً من الانتعاش. ذُعرتُ قليلاً حين أبصرتُ مظهري في المرآة؛ ورَّمتِ الريحُ الباردة يديَّ وحمَّرتهما، وأسدلتْ شعري وعقَّدته، وصبغتْ وجهي بنفسجيّاً شاحباً. أضف إلى ذلك أنَّ ياقتي تجعّدت تجعّداً رهيباً، وثوبي نضح بالوحل، وقدميَّ مرتديتَان حذاءَين متينَين جديدَين عاليَي الساق، ولم تُجلب أنضادي، لذا بعد أن سُقط في يدي واصلتُ، متفلسفةً، سيري نزولاً بخطواتٍ ثقيلة صاخبة على سُلَّمتين من سلّمات الدرج، وأنا أنعِّم شعري ما استطعتُ، وأشدّ ياقتي العنيدة بقوّة مراراً وتكراراً، واهتديتُ، بشيءٍ من الصعوبة، إلى طريقي نحو الحجرة؛ حيث انتظرتني السيدة بلومفيلد.

قادتني إلى حجرة الطعام؛ حيث مُدَّت سفرة غداء العائلة. وُضع أمامي بعض شرائح اللحم والبطاطا نصف الباردة، وفي أثناء ما كنتُ أتغدى، قعدتْ قبالتي تشاهدني (بحسب ما ظننتُ) ساعيةً للمحافظة على شيءٍ أشبه بالمحادثة؛ محادثة تتألف، في المقام الأول، من تعليقاتٍ عادية متتابعة قيلت برسميّة جافة، لكن لعلّ ذلك خطئي أكثر ممّا هو خطؤها؛ لأني كنتُ حقّاً لا أجيد تبادل الأحاديث. كاد كلّ انتباهي في الواقع ينصبّ على غدائي، لا لنهمٍ في شهيتي، بل لضيقي من صلابة شرائح اللحم، وخدرِ يديَّ اللتين شُلّتا تقريباً جرّاء تعرّضهما للريح القارسة خمسَ ساعات. كنتُ لآكل البطاطا بامتنانٍ وأترك اللحم، لكن لأنّ قطعة كبيرة من هذا الأخير قد وُضعت في طبقي، ما كان لي أن أكون فظة وأتركها؛ لذا بعد عدة محاولات خرقاء فاشلة لقطعها بالسكين، أو تمزيقها بالشوكة، أو قطعها إرباً بشدِّها بينهما، ولإدراكي أنّ السيدة المَهيبة شاهدةٌ على محاولاتي كلّها، أمسكتُ يائسةً أخيراً السكين والشوكة بقبضتَي كطفل ذي سنتين، وشرعتُ بتقطيعها بكلّ ما أوتيت من قوة، لكن استلزم ذلك شيئاً من الاعتذار، تصحبه محاولة واهنة للضحك. قلتُ: «لقد خدَّر البرد يديَّ تخديراً حتى إنّي أكاد أقوى على استخدام سكيني وشوكتي».

أجابتني قائلةً بوقارٍ ثابت فاتر لم يُفلح في طمأنتي: «بوسعي القول إنّكِ مدركة أنها ستكون باردة».

قادتني إلى حجرة الجلوس مجدداً عقب انتهاء المراسم؛ حيث رنَّت الجرس مستدعيةً الأطفال.

قالت: «ستكتشفين أنهم غير متقدمين جدّاً في محرزاتهم العلمية؛ لأني لا أملك إلا القليل جداً من الوقت لتولّي تعليمهم بنفسي، وارتأينا أنّهم أصغر من

أن يحظَوا بمربّية حتى الآن، لكنّي أحسبُ أنّهم أطفال أذكياء ومتأهّبون للتعلّم، ولاسيما الفتى الصغير الذي أعدُّه أفضلهم؛ فهو فتىً سمحٌ، نبيل الروح، فتىً يُقاد، لكنه لا يُساق، واستثنائيٌّ لملازمته الصدق دائماً، ويبدو أنه يزدري الخداع». (كانت تلك أخباراً جيدة). واصلتْ قائلة: «تتطلّب أخته ماري آن المراقبة، لكنها، في المجمل، فتاة في منتهى الطيبة، مع أني أرغب في أن تظل بعيدة عن بيت الحضانة قدر الإمكان؛ لأنها قاربت الآن أن تبلغ السادسة من عمرها، وقد تكتسب عادات سيئة من الحاضنات. طلبتُ أن يوضع سريرها في حجرتكِ، وإن تكرّمتِ بالإشراف على استحمامها وتسريح شعرها وتولي أمر ثيابها، فلن يكون لها شأن بعد ذلك بخادم الحضانة».

قالت: «ستكتشفين أنهم غير متقدمين جدّاً في محرزاتهم العلمية؛ لأني لا أملك إلا القليل جداً من الوقت لتولّي تعليمهم بنفسي، وارتأينا أنّهم أصغر من أن يحظَوا بمربّية حتى الآن، لكنّي أحسبُ أنّهم أطفال أذكياء ومتأهّبون للتعلّم، ولاسيما الفتى الصغير الذي أعدُّه أفضلهم؛ فهو فتىً سمحٌ، نبيل الروح، فتىً يُقاد، لكنه لا يُساق، واستثنائيٌّ لملازمته الصدق دائماً، ويبدو أنه يزدري الخداع». (كانت تلك أخباراً جيدة). واصلتْ قائلة: «تتطلّب أخته ماري آن المراقبة، لكنها، في المجمل، فتاة في منتهى الطيبة، مع أني أرغب في أن تظل بعيدة عن بيت الحضانة قدر الإمكان؛ لأنها قاربت الآن أن تبلغ السادسة من عمرها، وقد تكتسب عادات سيئة من الحاضنات. طلبتُ أن يوضع سريرها في حجرتكِ، وإن تكرّمتِ بالإشراف على استحمامها وتسريح شعرها وتولي أمر ثيابها، فلن يكون لها شأن بعد ذلك بخادم الحضانة».

أجبتُها بأني في أهبة الاستعداد لفعل ذلك، ودخل طالباي الصغيران الحجرة في تلك اللحظة برفقة أختيهما الصُغريين. كان السيد توم بلومفيلد فتىً حسنَ النمو في السابعة من عمره، ذا جسدٍ نحيل نوعاً ما لكنه قوي، وشعرٍ بلون الكتان، وعينين زرقاوين، وأنفٍ صغيرٍ مرتفع، وبشرة شقراء. أمَّا ماري آن، فهي فتاة طويلة أيضاً، داكنة البشرة قليلاً مثل أمها، لكنّ لها وجهاً دائرياً ممتلئاً ووجنتين متوردتين. أما الأخت الثانية فاني ففتاةٌ صغيرة آيةٌ في الجمال، وقد أكدت لي السيدة بلومفيلد أنها طفلة رقيقة على نحو استثنائي وبحاجة إلى التشجيع؛ إذ إنها لم تتعلم شيئاً بعد، لكنها ستبلغ الرابعة من عمرها بعد بضعة أيام، ثم سيتأتّى لها حينئذٍ أن تتلقّى درسها في الأبجدية، ثم تُرَقَّى إلى حجرة الدرس. أما المتبقية فهي هاريت؛ بنتٌ قوية البنية، سمينة، مرحة، لعوبٌ من بين شخصين كدتُ أطمعُ فيهما أكثر من البقية، لكن ما كان لي من شأن بها.

تكلمتُ مع طالبَي الصغيرين على أحسن نحوٍ استطعتُه، وحاولتُ نيل قبولهما، لكني أخشى أني لم أظفر بذلك إلا نزراً يسيراً؛ لأن وجود أمهما حمَلني على أن أظلّ متحفّظةً تحفظاً منفِّراً. أما هما من ناحية أخرى، فكان

لهما أن يتحرّرا من الخجل على نحوٍ استثنائي. بدوا طفلين جريئين مفعمين بالحياة، ورجوتُ أن أنسجم معهما قريباً، ولاسيما الفتى الصغير الذي سمعتُ من أمه أنه يتمتع بخُلقٍ يبعث على الرضا. علتْ وجهَ ماري آن ابتسامةٌ متكلفة على نحو لا ريب فيه، ورغبةٌ شديدة في لفت الانتباه أسفتُ على ملاحظتها، لكنّ أخاها حاز كلَّ انتباهي، فقد وقف منتصباً انتصاباً عموديّاً بيني وبين النار، ويداه خلف ظهره متحدثاً كخطيب لوقت طويل، قاطعاً حديثه بين الفينة والأخرى لتوبيخ أخواته توبيخاً لاذعاً حين يحدثنَ جلبة.

تكلمتُ مع طالبَي الصغيرين على أحسن نحوٍ استطعتُه، وحاولتُ نيل قبولهما، لكني أخشى أني لم أظفر بذلك إلا نزراً يسيراً؛ لأن وجود أمهما حمَلني على أن أظلّ متحفّظةً تحفظاً منفِّراً. أما هما من ناحية أخرى، فكان لهما أن يتحرّرا من الخجل على نحوٍ استثنائي. بدوا طفلين جريئين مفعمين بالحياة، ورجوتُ أن أنسجم معهما قريباً، ولاسيما الفتى الصغير الذي سمعتُ من أمه أنه يتمتع بخُلقٍ يبعث على الرضا. علتْ وجهَ ماري آن ابتسامةٌ متكلفة على نحو لا ريب فيه، ورغبةٌ شديدة في لفت الانتباه أسفتُ على ملاحظتها، لكنّ أخاها حاز كلَّ انتباهي، فقد وقف منتصباً انتصاباً عموديّاً بيني وبين النار، ويداه خلف ظهره متحدثاً كخطيب لوقت طويل، قاطعاً حديثه بين الفينة والأخرى لتوبيخ أخواته توبيخاً لاذعاً حين يحدثنَ جلبة.

هتفت أمه قائلة: «يا توم، ما أعزّك عندي! تعالَ وقبِّل ماما العزيزة، ثمّ هلَّا أريتَ الآنسة غري حجرة درسك وكتبك الجديدة الجميلة؟».

«لن أقبِّلكِ يا ماما، لكني سأري الآنسة غري حجرة درسي وكتبي الجديدة».

قالت ماري آن: «وحجرة درسي وكتبي الجديدة يا توم، فهما ملكٌ لي أيضاً».

ردَّ على نحو حاسم قائلاً: «إنهما ملكي. تعالي يا آنسة غري، سأرافقكِ».

حين عُرضت الحجرة والكتب، مع بعض الشجارات بين الأخ وأخته التي بذلتُ أقصى جهدي لتهدئتها أو تلطيفها، جلبت لي ماري آن دميتها، وأخذت تسهب في الحديث عن كلّ ما يخصّ دميتها من ثياب أنيقة وسرير وخزانة أدراج وغيرها من الملحقات، لكن توم أخبرها أن تكفّ عن جلبتها ليتسنى للآنسة غري رؤية حصانه الهزاز الذي جرَّه من زاويته، بصخبٍ ينمّ عن أهمية بالغة، نحو الأمام إلى منتصف الحجرة منادياً إيّاي بصوتٍ عالٍ لأمحضه اهتمامي، ثم امتطاه آمراً أخته أن تمسك بالعنان، وأبقاني واقفةً عشر دقائق أشاهده وهو يستخدم سوطه ومهمازه بعزمٍ وشجاعةٍ، لكن، في غضون ذلك، أكبرتُ دمية ماري آن الجميلة وكلّ ملحقاتها، ثمّ أخبرتُ السيد توم أنه راكبٌ

ممتاز، لكني أرجو ألا يكثر من استخدام سوطه ومهمازه حين يركب مُهراً حقيقيّاً.

قال بحماسة مضاعفة: «بل سأفعل! سأجلده بسرعة، أقسم لكِ! لكن عليه أن يجتهد لينال ذلك».

صدمني ذلك جدّاً، لكني أملتُ أن أقوِّمَه مع مرور الوقت.

قال البطل الصغير: «عليكِ الآن اعتمار قلنسوتكِ وارتداء شالكِ. سأريكِ حديقتي».

قالت ماري آن: «وحديقتي».

هدّدها توم برفع قبضته، فصرخت صرخةً عالية حادةً، وركضت إلى جانبي الآخر، وأبدت له وجهاً ممتعضاً.

«يقيناً لن تضرب أختك يا توم! أرجو ألا أراك تفعل ذلك أبداً».

«ستريننني أفعل ذلك أحياناً، فأنا مجبرٌ على ذلك بين الفينة والأخرى لضبطها».

«لكن ليس شأنك أن تضبطها. أنت تعرف أنّ ذلك شأن...».

«اذهبي الآن واعتمري قلنسوتكِ».

«لا أعرف. إنَّ الجو غائمٌ وباردٌ جدّاً، ومن المرجح أن تمطر، وأنت تعرف أنّ رحلتي كانت طويلة».

أجاب الرجلُ الصغير المغرور قائلاً: «عليكِ أن تأتي رغم ذلك. لن أسمح بأيّ أعذار». ولأنه اليوم الأول الذي تعرفنا فيه إلى بعضنا، ارتأيتُ أن بوسعي أن أدلّلـه. كان الجو أبرد من أن تغامر فيه ماري آن، لذلك ظلت مع أمها، ما أراح أخاها الذي أراد الاستئثار بي راحة عظيمة.

كانت الحديقة كبيرة ومنسقة تنسيقاً ينمّ عن حسن الذوق، فقد كان، بجانب عدة داليات رائعة، بعضُ الزهور الجميلة التي ما زالت في طور التفتح، لكن رفيقي لم يمنحني الوقت لمعاينتها؛ إذ وجب الذهاب معه عبر العشب الندي إلى زاوية بعيدة معزولة، وهو أهم مكان في الأراضي التابعة للمنزل؛ لأن فيه حديقته. ثمة مغرسان دائريان مليئان بمختلف النباتات، في أحدهما شجرة ورد صغيرة جميلة، توقفتُ لأكبر زهراتها الفاتنة.

قال بازدراء: «تجاهليها. هذه حديقة ماري آن فحسب. انظري، هذه حديقتي».

بعد أن عاينتُ كلّ زهرة، واستمعتُ إلى خطبة عن كلّ نبتة، سُمح لي بالمغادرة، لكن، أولاً، قطف بأبّهةٍ عظيمةٍ زهرةَ نرجس الطاقات، وأهداها إلي كمن يمنح هدية مدهشة. لاحظتُ أنّ على العشب المحيط بحديقته عُدَّةً ما تتألف من العِصي والحبال، فسألته: ما عساها تكون؟

«أشراك طيور».

«لِمَ تمسك بها؟».

«قال بابا إنها مؤذية».

«وما تصنع بها حين تمسكها؟».

«أموراً عديدة: أعطيها للقطة أحياناً، أمزّقها إلى قطع بمديةِ جيبي في أحايين أخرى، أمّا الطيور التالية فأنوي شويها حيةً».

«ولِمَ عساك تنوي فعل أمر مريع كهذا؟».

«لسببين، أما الأول فلأعرف كم من الوقت ستعيش، أما الثاني فلأعرف مذاقها».

«لكن ألا تعلم أنّ فعلك أموراً كهذه شرٌّ محضٌ؟ تذكر أن بوسع الطيور الشعور كما أنت تشعر، ماذا عساك تشعر إن كنتَ مكانها؟».

«ما أفعله ليس بالأمر الجلل! لستُ طائراً، وليس لي أن أشعر بما أفعله بها».

«لكنّك ستضطر إلى الشعور بذلك ذات يوم يا توم. لقد تناهى إلى سمعك أين يذهب الأشرار حين يموتون. تذكر أنك ستضطرّ إلى الذهاب إلى هناك ومعاناة ما جعلتها تعانيه إن لم تكفّ عن تعذيب الطيور البريئة».

«أف! لن أضطر إلى ذلك. يعرف بابا كيف أعاملها ولا يلومني على ذلك أبداً؛ قال لي إن ما أفعله هو عين ما اعتاد فعله حين كان صبياً. ولقد أعطاني عشّاً مليئاً بصغار الدوري الصيفي الفائت، وشاهدني وأنا أنزع أرجلها وأجنحتها ورؤوسها دون أن يقول شيئاً، اللهم إلا أنها كائنات مقرفة ينبغي لي ألا أدعها تلوث بنطالي، وقد كان الخال روبسن حاضراً معنا أيضاً فضحك، وقال إني ولد رائع».

«لكن ما عسى أمك قائلة؟».

«إنها لا تكترث! قالت إن قتل الطيور المغردة الجميلة أمرٌ يدعو للأسف، أما عصافير الدوري المقرفة والفئران والجرذان، فلي أن أفعل بها ما أشاء. بهذا تدركين الآن يا آنسة غري أن ما أفعله ليس عملاً شريراً».

«إنها لا تكترث! قالت إن قتل الطيور المغردة الجميلة أمرٌ يدعو للأسف، أما عصافير الدوري المقرفة والفئران والجرذان، فلي أن أفعل بها ما أشاء. بهذا تدركين الآن يا آنسة غري أن ما أفعله ليس عملاً شريراً».

«ما زلتُ أراه عملاً شريراً يا توم، ولعلّ أمك وأباك يريانه كذلك أيضاً إن تمعنا فيه. مع ذلك...». أضفتُ محدّثةً نفسي باطنيّاً: «لهما أن يقولا ما يشاءان، لكنّي عازمةٌ على ألا تقترف أيّاً من هذه الأمور ما دمتُ أملك سلطة منعها».

«ما زلتُ أراه عملاً شريراً يا توم، ولعلّ أمك وأباك يريانه كذلك أيضاً إن تمعنا فيه. مع ذلك...». أضفتُ محدّثةً نفسي باطنيّاً: «لهما أن يقولا ما يشاءان، لكنّي عازمةٌ على ألا تقترف أيّاً من هذه الأمور ما دمتُ أملك سلطة منعها».

ثم سار بي عبر المرجة لرؤية أشراك خُلْده، ثمّ إلى الحظيرة لرؤية أشراك ابن عرسه، وفي إحداها ابن عرس نافق؛ ما أبهجه بهجةً عظيمةً، ثم إلى الإسطبل لرؤية، لا أحصنة العربة الأصيلة، بل مُهر صغير قاسي الشعر، أخبرني أنه استُولِد عمداً لأجله، وسيمتطيه ما إن يُدرَّب تدريباً حسناً. حاولتُ إمتاع الرفيق الصغير واسترضاءه بالإنصات إلى ثرثرته ما استطعتُ؛ إذ ارتأيتُ أنه في حال كان يتمتّع بأيّ عواطف فعليّ أن أظفر بها، ثمّ لعله يتأتّى لي، مع مرور الوقت، أن أبيّن له سوء عمله، لكن عبثاً بحثتُ عن تلك السماحة ونبل الروح اللذين حدثتني عنهما أمه، مع أنه تبين لي أنه حين يشاء إعمال قدر معين من الذكاء وسرعة البديهة، فإنّ ذلك لا يعجزه.

دنا موعد تناول الشاي حين ولجنا البيت كرّةً أخرى. أخبرني السيد توم أنه وأنا وماري آن سنتناول الشاي مع ماما؛ لأنها مناسبة خاصة، فبابا خارج المنزل، وهي تأكل معهم دائماً، في مناسبات كهذه، وقتَ الغداء بدلاً من الساعة السادسة. بعد زمن قصير من تناولنا الشاي، خلدت ماري آن للنوم، لكن توم أكرمنا برفقته وحديثه حتى الساعة الثامنة. بعد أن رحل، زادتني السيدة بلومفيلد علماً في ما يخص مزاجي طفليها ومكتسباتهما وما سيتعلمانه وكيف ينبغي لي معاملتهما، وحذرتني من ذكر عيوبهما لأحد سواها. نبهتني أمي فيما مضى إلى أنه لا يجدر بي ذكر عيوبهما لها إلا قليلاً؛ لأن الناس لا يحبون أن تُذكر لهم عيوب أطفالهم؛ لذا خلصتُ إلى أن عليّ ألا أذكرها البتة. دعتني السيدة بلومفيلد لتناول عشاء مقتصد يتألف من اللحم البارد والخبز

نحو الساعة التاسعة والنصف. سررتُ حين انتهى العشاء، وحملتْ شمعدان حجرة نومها وأوت إلى فراشها لتستريح، فرغم أني تمنيتُ أن تسرني مقابلتها، ضايقتني صحبتها بشدة، وما كان لي ألا أحس بكونها جادة ومقيتة وغير ودودة؛ النقيض التام للعقيلة الطيبة العطوفة التي صوّرتها لي آمالي.

3

بضعة دروس أخرى

صحوتُ في الصباح التالي وأنا أشعر بابتهاج مفعم بالأمل، رغم الخيبات التي عانيتُها سلفاً، واكتشفتُ أن تسريح شعر ماري آن ليس بالأمر الهيّن؛ إذ تطلب شعرها الكثيف أن يُدهن بالمرهم، ويُضفر على هيئة ثلاثة أذيال طويلة، ويُربط بأشرطة معقودة على هيئة فراشات، وهي مهمّة أَلِفَت أصابعي غير المتعودة صعوبةً بالغةً في أدائها، وأخبرتني أن بوسع حاضنتها أداءَها في نصف الوقت، واستطاعت بتململها المتواصل النامِّ عن نفاد الصبر أن تجعلني أستغرق وقتاً أطول. بعد أن فرغتُ من تسريح شعرها، ذهبنا إلى حجرة الدرس، حيث قابلتُ طالبي الآخر، ودردشتُ معهما إلى أن حان وقت النزول لتناول الفطور. بعد انتهاء تلك الوجبة، وتبادل بضع كلمات مهذبة مع السيدة بلومفيلد، توجهنا إلى حجرة الدرس مجدداً، وشرعنا في عمل اليوم. اكتشفتُ أنّ طالبيَّ، حقّاً، متخلّفان جدّاً، لكن توم، رغم نفوره من كل ضرب من ضروب الإجهاد الذهني، لم تكن تعوزه الموهبة. أما ماري آن فتكاد تكون قادرة على قراءة كلمة، وهي شديدة الإهمال والغفلة، حتى إني لم أنسجم معها إلا بشقّ الأنفس، لكني استطعتُ، بفضل الصبر والعمل الدؤوب، إنجاز أمر ما خلال الصباح، ثمّ رافقتُ وديعتيَّ الصغيرتين خارجاً نحو الحديقة والأراضي المجاورة لأرفّه عنهما ترفيهاً يسيراً قبل العشاء.

تآلفنا هناك تآلفاً لا بأس به، عدا أني اكتشفتُ أنهما لا ينويان المشي معي. عليّ أنا المشي معهما حيث شاءا أخذي. عليّ أن أركض أو أمشي أو أقف كما يرغبان تماماً. رأيتُ أن تصرفهما هذا يخالف النظام المتعارف عليه، وعددتُه تصرفاً منفراً أيّما تنفير، وقد بدا أنهما، في تلك المناسبة مثل المناسبات التي تلتها، يفضلان أقذر الأماكن وأسوأ الأنشطة. لكن ما كان لي من الأمر من شيء، فعلي إمّا اتباعهما، وإما أن أظل بعيدة عنهما بالكامل، وأظهر بمظهر المهملة لوديعتَي. أبديا اليوم تعلّقاً خاصّاً ببئر أسفل المرجة؛ حيث أخذا يلعبان بالماء والعصي والحصوات أكثر من نصف ساعة. شعرتُ بخوف متواصل من أن تبصرهما أمهما من النافذة، فتلومني على السماح لهما بتوحيل ثوبيهما وتبليل قدميهما ويديهما بدلاً من تمرين جسديهما، لكن ما كان لأيّ نقاشات أو أوامر أو توسلات أن تثنيهما عما يفعلانه، وإن لم تبصرهما فقد أبصرهما شخص آخر؛ رجلٌ موقّر دخل البوابة شاقّاً طريقه على صهوة جواده. توقف

على بعد بضع خطوات منا، ونادى الطفلين بنبرة عالية غاضبة قائلاً: «إليكما عن ذلك الماء»، قال: «آنسة غري (أظنّ أنها حقّاً آنسة غري) أنا متفاجئ من سماحكِ لهما بتوسيخ ثوبيهما على هذا النحو! أولا تبصرين كيف لوثت الآنسة بلومفيلد ثوبها؟ وكيف تبلل جوربا السيد توم بللاً شديداً؟ وكيف أنهما كليهما لا يرتديان قفازات؟ يا لطيف! اسمحي لي أن أطلب منكِ المحافظة مستقبلاً على ظهورهما بمظهر لائق على الأقل!». التفتَ عقب قوله ذلك، وواصل شقّ طريقه ممتطياً جواده نحو البيت. كان ذلك السيد بلومفيلد. تفاجأتُ من مناداته لطفليه بالسيد والآنسة، وفاجأني أكثر مخاطبته لي على نحو فظّ وأنا الغريبة عنه كليّاً ومربّية طفليه.

رنَّ الجرس بعدها بوقت قصير لاستدعائنا إلى الداخل. تغديتُ مع الطفلين الساعة الواحدة، في حين تناول وزوجه السيدة غداءهما على الطاولة نفسها. لم يُعلِ تصرّفه هناك من شأنه في رأيي. كان رجلاً عاديّ الطول هو إلى القصر أقرب منه إلى الطول، وإلى النحف أقرب منه إلى السمنة، يبدو سنُّه بين الثلاثين والأربعين، ذا فمٍ عريض، وبشرة شاحبة داكنة، وعينين زرقاوين لبنيتين، وشعر لونه كلون حبل القُنَّب. وُضع ساق لحم ضأن مشويّ أمامه، منح للأطفال والسيدة بلومفيلد وإياي حصصنا من اللحم، وطلب مني تقطيع حصتي الطفلين، ثم بعد تقليبه لحم الضأن في مختلف الاتجاهات ومعاينته من مختلف المواضع، صرّح بأنّه غير صالح للأكل، وطلب إحضار لحم البقر البارد.

سألتْ زوجه قائلة: «يا عزيزي، ما خطب لحم الضأن؟».

«لقد طُهي أكثر ممّا ينبغي، ألم تستشعري بمذاقكِ يا سيدة بلومفيلد أنّ الشوي قد أفقده كلّ ما هو طيّب فيه؟ ألا تبصرين أن كل مرق اللحم الأحمر اللذيذ ذاك قد جُفف تماماً؟».

«أرى أن اللحم سيناسبك».

وُضع اللحم أمامه، وأخذ يقطعه إلى شرائح، لكنّه فعل ذلك ووجهه تعلوه تعبيرات سخطٍ شديد يُرثى لها.

«ما خطب اللحم يا سيد بلومفيلد؟ فأنا يقيناً أَعُدُّه طيباً جدّاً».

أجاب حزيناً قائلاً: «إنه طيب جدّاً، ما كان لشريحة لحم أن تكون أطيب، لكنه تالفٌ جدّاً».

«كيف ذلك؟».

«كيف ذلك؟ ألا تبصرين كيف قُطِع؟ يا لطيف! إنه لأمر صادم حقاً!».

«لا بد من أنهم قطعوه تقطيعاَ خاطئاَ في المطبخ حينها، لأني متأكدة من أني قطعتُه إلى شرائح كما ينبغي البارحة هنا».

«لا شك في أنهم قطعوه تقطيعاً خاطئاً في المطبخ؛ أولئك الهمج! يا لطيف! هل أبصر أحدٌ قطّ قطعة لحمٍ بهذه الجودة وقد أفسدت تماماً؟ لكن تذكري ما يلي: حين يُؤخذ طبق لائق من هذه الطاولة مستقبلاً، ينبغي ألا يقربه من في المطبخ. تذكّري هذا يا سيدة بلومفيلد».

استطاع الرجل الموقر، رغم حالة اللحم الخرِبة، أن يستخرج منها بضع شرائح رقيقة لنفسه، وأكل جزءاً منها في صمت. حين شرع في الكلام بعد ذلك ليسأل عن طعام العشاء. كانت نبرته أقلّ اتساماً بالشكوى.

كانت: «ديك رومي وطهيوج»، الإجابة الموجزة.

«وماذا أيضاً؟».

«السمك».

«أيّ نوع من السمك؟».

«لا أعرف».

صاح قائلاً: «لا تعرفين؟»، رافعاً نظره عن طبقه تعبيراً عن جديته، وموقفاً استخدام سكينه وشوكته جرّاء ذهوله.

«لا. قلتُ للطباخ أن يجلب بعض السمك، لكنني لم أحدّد نوعاً معيَّناً».

«عجباً، عجباً! سيدةٌ تزعم أنّها تتعهّد رعاية البيت، لكنها لا تعرف حتى ما نوع السمك على العشاء! تزعم أنّها تطلب السمك، لكنها لا تحدّد نوعه!».

«يا سيد بلومفيلد، لعلّك تطلب العشاء بنفسك مستقبلاً».

لم يُقَل شيء آخر، وسررتُ سروراً شديداً لخروجي من الحجرة مع طالبَي؛ لأنّي ما شعرتُ في حياتي قط بانعدام الراحة والخجل على خطأ لم أقترفه كالذي شعرتُ حينها. انكببنا على الدروس مجدداً بعد الظهر، ثمّ خرجنا كرَّة أخرى، وتناولنا الشاي في حجرة الدرس، ثمّ بدّلتُ ثياب ماري آن لتناول الحلوى، وحين نزلتْ وأخوها إلى حجرة الطعام انتهزتُ الفرصة للشروع في كتابة رسالة إلى صديقاتي العزيزات في الديار، لكنّ الطفلين عادا إلى الأعلى قبل أن أفرغ من كتابة نصفها.

توجب عليّ أن أنوِّم ماري آن في السابعة، ثمّ لعبتُ مع توم حتى الثامنة، حين غادر هو الآخر، وفرغتُ من كتابة رسالتي، وأفرغتُ ملابسي، الأمر الذي لم يتسنَّ لي فعله إلا الآن، خلدتُ إلى النوم أخيراً.

ما سبق نموذج مثالي للأحداث التي قد تحدث خلال اليوم.

بدلاً من أن تغدو مهمتي في التعليم والإشراف أسهل عقب اعتيادي ووديعتَي على بعضنا على نحو أفضل؛ ازدادت مشقةً؛ لأن شخصيتيهما أخذتا تظهران. اكتشفتُ مبكراً أن مصطلح مربّية لا يعدو كونه مصطلحاً ساخراً حين ينطبق علي. لم يكن لدى طالبي نية للامتثال أكثر ممّا لدى مُهر جامح غير مروَّض. خوفهما الاعتيادي من مزاج والدهما النكد، وذعرهما من العقوبات التي ألف إنزالها بهما، أبقياهما على نحو عام حسني السلوك أثناء حضوره المباشر. خافتِ الفتيات قليلاً أيضاً من غضب أُمِّهنّ، وقد يُحفَّز الفتى في بعض المناسبات لفعل ما تمليه عليه أمه رجاء المكافأة، لكن ما كان عندي من مكافآت أعرضها، أمّا العقوبات فهي، بحسب ما فهمتُ، امتياز يستأثر به الوالدان لنفسيهما، ومع ذلك تأمّلا منّي ضبط طالبَي. قد يُوجَّه الأطفال الآخرون بفعل خوفهم من الغضب، ورغبتهم في نيل الاستحسان، لكن ما كان لأيٍّ منهما تأثير على هذين.

لم يَقنع السيد توم برفضه الخضوع للسيطرة، بل أراد أن يكون المسيطِر، وأظهر إصراراً على ضبط لا أخواته فحسب، بل مربيته أيضاً، بتطبيقات عنيفة يُعمِل فيها يديه وقدميه. ولأنّه فتى طويل وقوي، مقارنةً بمن هو في سنّه، تسبّبت هذه التطبيقات بمتاعب ليست بالهينة. ربّما حلَّت بضع لطمات قاسية على أذنه المشكلة في تلك المناسبات بسهولة كافية، لكن لأنه في تلك الحالة قد يختلق قصّة ستصدّقها أمّه حتماً لإيمانها غير المتزعزع بصدقه، وإن كنتُ اكتشفتُ سلفاً أنّ صدقه قابلٌ لأن يُطعَن في صحّته، عزمتُ على الإحجام عن ضربه، ولو على سبيل الدفاع عن النفس، وكانت حيلتي الوحيدة في أعنفِ أمزجته أن أطرحه على ظهره، وأثبت يديه وقدميه حتى تخفّ حدّة نوبته قليلاً. ولا أصعب من منعه عن فعل ما لا ينبغي له فعله إلا إجباره على فعل ما ينبغي له فعله؛ إذ إنّه يرفض في الغالب رفضاً قاطعاً أن يتعلّم أو يسمِّع دروسه أو ينظر إلى كتابه حتى. هنا، مجدداً، ربما كانت عصا تأديب جيدة لتكون شيئاً نافعاً، لكن لأن سلطتي محدودة جدّاً؛ اضطررتُ إلى استغلال ما تأتّى لي خير استغلال.

لم تقرَّر ساعات بعينها للدراسة أو اللعب، لذا عزمتُ على أن أوكل إلى طالبَي مهمّة محددة في مقدورهما، بانتباهٍ معتدلٍ، إنجازها في وقت قصير، وما رضيتُ بالسماح لهما بمغادرة حجرة الدرس حتى يُتِمَّا مهمتيهما، غاضةً

الطرف عن الإرهاق الذي يبلغ بي مبلغه أو ما يُعييني من مشاكستهما، إلا بتدخّل أبوي فقط، ولو وجبَ علي القعود على كرسيي مسندةً إيّاه إلى الباب لإبقائهما في الداخل. كان الصبر والحزم والمثابرة أسلحتي الوحيدة، وصمّمتُ على استخدامها استخداماً كاملاً. عزمتُ بصرامة دائماً على تنفيذ تهديداتي ووعودي، لذلك ينبغي لي الحذر من أن أهدّد أو أعد بما لا أقوى على تنفيذه، ثم عليَّ الإحجام بحذرٍ عن كلّ ما تتّسم به رداءة طبعي من نزقٍ واتباعٍ للهوى لا طائل منهما، فأكون طيّبة وميّالة للمساعدة ما استطعتُ إن تصرَّفا تصرفاً مقبولاً، لأبيّن لهما أكبر اختلافٍ ممكن بين السلوك الحسن والسيئ، وأجادلهما بأيسر الأساليب وأجداها أيضاً. ينبغي لي حين أوبّخهما، أو أرفض تلبية رغباتهما، بعد اقترافهما خطأً فاضحاً، أن يكون ذلك التوبيخ أو الرفض ممزوجاً بالأسى أكثر من الغضب، وأن أيسِّر لهما ترتيلاتهما وصلواتهما القصيرة وأوضّحها ليفهماها، وحين يصليان صلاتهما في الليل، ويطلبان المغفرة على آثامهما أذكّرهما بذنوب اليوم الفائت بنبرةٍ جادة إلا أنها مليئة بالطيبة، تجنباً لإثارة حسّ المعارضة فيهما. ينبغي للأشقياء أن يرتلوا الترتيلات التائبة، أما الصالحون نسبيّاً فيرتلون الترتيلات المبهجة، وأفهّمهما مختلف الدروس ما استطعتُ بمحادثات مسلية، لا لشيء، على ما يبدو، سوى الحرص على متعتهما الحالية.

أملتُ أن أنفع الطفلين وأنال استحسان أبويهما على حدٍّ سواء بهذه الوسائل مع مرور الوقت، وأن أقنع أيضاً أصدقائي في الديار بأن المهارة والحصافة لا تعوزانني كما اعتقدوا. أدركتُ أن الصعوبات التي ينبغي لي تجاوزها عظيمة، لكنني أدركتُ (أو آمنتُ في الأقل) أن الصبر المتواصل والمثابرة بوسعهما التغلّب عليها، والتمستُ العون الإلهي لذلك ليلاً ونهاراً. لم تنجح نيّتي الحسنة وجهودي الجهيدة إلا في تسلية الطفلين وإثارة استياء أبويهما وتعذيب ذاتي، وذلك إمّا لأنّه لا سبيل لتقويم الطفلين، وإمّا لأن أبويهما لا يتعاملان بالمنطق، وإمّا لأنّي أخطأتُ تقدير أهدافي، ولم أفلح في تحقيقها قط.

مهمة التعليم منهكة للجسد كما هي منهكة للعقل؛ وجب عليّ أن ألاحق طالبَي لأمسك بهما، وأن أحملهما أو أجبرهما ليجلسا إلى طاولتيهما، بقوة في الغالب، لأثبتهما هناك حتى انتهاء الدرس. كثيراً ما أوقفتُ توم في الزاوية، وقعدت على كرسي أمامه حاملةً كتاباً في يدي فيه واجبه الصغير الذي يجب عليه أن يقوله أو يقرأه قبل أن يُطلق سراحه. لم يكن قويّاً كفاية لدفعي والكرسي معاً؛ لذا كان يقف مقلّباً جسده ولاوياً وجهه أغرب الالتواءات وأشذها -سيراها متفرجٌ لا مبالٍ مضحكةً بلا شك، لكني لم أرها كذلك- ويصيح صيحاتٍ عالية، ويحتج احتجاجاتٍ صارخة محزنة يُفترض بها أن تكون تعبيراً عن البكاء، عدا أنّها خالية من الدموع تماماً. عرفتُ أنّه يفعل ذلك لإزعاجي

فحسب، لذلك جاهدتُ ببسالة لإخفاء كلّ الدلائل التي تدلّ على ضيقي، وإنْ اهتززتُ بداخلي بفعل الغضب ونفاد الصبر، واستطعتُ القعود متصنّعة لامبالاة هادئة، منتظرة رغبته في إيقاف هذه التسلية والتهيؤ لجولة في الحديقة، وذلك بنظره إلى الكتاب وقراءة أو تسميع الكلمات القليلة المطلوب منه قولها. عقد العزم، في بعض الأوقات، على تأدية مادته الكتابية أداءً سيئاً، ما اضطرّني إلى الإمساك بيده منعاً له من تعمُّده تلطيخ الورقة وتشويهها. دائماً ما هددتُه بأنّه إن لم يحسِّن من تصرفاته فعليه كتابة سطرٍ آخر، فيرفض بعناد كتابة سطر آخر، لألجأ أنا أخيراً، حفظاً لوعدي، إلى حيلة تثبيت أصابعه على القلم، وسحب يده بقوة إلى الأعلى والأسفل، رغم مقاومته، حتى يكتمل السطر على نحوٍ ما.

لكن توم لم يكن أصعب طالبَي مراساً إطلاقاً، فأحياناً يسعدني سعادة غامرة حين يرى أنّ أحكم قرارٍ هو إنهاؤه واجباته وذهابه إلى الخارج وتسلية نفسه إلى أن أنضمّ وأخواته إليه، وهو أمر لا يحدث كثيراً؛ لأنّ ماري آن نادراً ما حذت حذوه في هذا الشأن؛ إذ بدا أنّها تفضّل الدحرجة على الأرض على أيّ تسليةٍ أخرى؛ إذ تُسقط نفسها كوزن ثقيل، وحين نجحتُ في تثبيتها في مكانها بشقّ الأنفس حينها، ما زال عليَّ حملها بذراعٍ واحدة وأنا أمسك بالأخرى الكتاب الذي عليها أن تقرأ أو تتهجى درسها منه. حين يغدو وزن الفتاة الكبيرة ذات الستة أعوام الثقيل أثقلَ من أن تتحمّله ذراعٌ واحدة، أنقلها إلى الذراع الأخرى، وإن تعبت الذراعان كلتاهما من الحمل أحملها إلى زاوية وأخبرها أن بوسعها الخروج حين تدرك فائدة قدميها وتقف، لكنها، على نحو عام، فضّلت الاستلقاء هناك مثل حطبةٍ حتى وقت العشاء، أو وقت تناول الشاي، وهي الأوقات التي تغدو فيها حرة؛ لأنه ما كان لي حرمانها من تناول وجباتها. وتخرج زاحفة بابتسامة نصر عريضة على وجهها الممتلئ المُحمر. رفضت بعنادٍ غالباً تهجئةَ كلمة محدّدة في درسها، وأنا الآن نادمة على الجهد الضائع الذي أهدرتُه في الجهاد للتغلّب على عنادها. ولو أنّي تجاهلتُه على أنه أمرٌ غير ذي بالٍ لكان ذلك خيراً للطرفين من أن أجاهد عبثاً للتغلب عليه كما فعلتُ، لكني عددتُ سحق هذه النزعة الفاسدة في الفتاة واجبي الكامل، وكان ليصبح واجبي الكامل لو أني قدرتُ على فعله. ولو حُدَّت سلطتي على نحوٍ أقل لربما تأتّى لي فرض الطاعة بالقوة، لكن، على تلك الحال، كانت مسابقةَ قوة بيني وبينها، مسابقةً تخرج منها على نحو عام منتصرة، وكل نصر شجعها وقوَّاها لمباراة مستقبلية. عبثاً جادلتُها، تملقتُها، توسلتُ إليها، هددتُها، وبختُها، عبثاً حرمتُها من اللعب خارجاً، أو إن أجبرتُ على إخراجها فإني أرفض اللعب معها، أو مخاطبتها بلطف، أو التعامل معها. عبثاً حاولتُ أن أبيِّن لها مزايا امتثالها للأوامر، وما يعقب ذلك من حُبِّ الناس لها وطيبتهم معها، ومساوئ إصرارها على شكاستها السخيفة. أحياناً حين تطلب مني فعل أمر لأجلها، أجيبها قائلة:

«أجل، سأفعله لأجلكِ يا ماري آن، إن قلتِ هذه الكلمة فحسب، هيَّا! يجدر بكِ قولها فوراً لكيلا تقلقي بشأنها بعد ذلك».

«لا».

«إذاً، بطبيعة الحال، لا يسعني فعل شيء لكِ».

كان الإهمال والخزي أروعَ عقابين لي وأنا في سنها أو أصغر، لكنّهما لم يهزا شعرة فيها. أحياناً، حين يبلغ مني السخط مبلغه، أهزّ كتفيها بقوة، أو أشدّ شعرها الطويل، أو أوقفها في الزاوية، فتعاقبني بصرخات عالية، حادة، مدوية تخترق رأسي كسكين. عرفتْ أني أكره ذلك، وبعد زعيقها بأقصى ما تستطيع، تنظر إلى وجهي وسيماء الرضا الانتقامي تعلو وجهها، وتهتف قائلة: «والآن، هذا جزاؤكِ!»، ثم تشرع في الزعيق مجدداً مراراً وتكراراً إلى أن أضطرّ إلى سدّ أذنيَّ. غالباً ما تحمل هذه الصرخات المروّعة السيدة بلومفيلد على الصعود والسؤال: ما الخطب؟

«يا سيدتي، ماري آن فتاة شقية».

«لكن، ما هذه الصرخات الفظيعة؟».

«إنها تصرخ بسبب نوبة انفعال».

«لم أسمع صوتاً أشدّ ترويعاً قط! إنها تصرخ كما لو كنتِ تقتلينها. لماذا ليست بالخارج مع أخيها؟».

«لا أستطيع أن أحملها على إنهاء دروسها».

قالت بنبرة لا مبالية للطفلة: «لكن ينبغي لماري آن أن تكون فتاة صالحة وتنهي دروسها. وآمل ألا أسمع صرخات رهيبة كهذه مجدداً!».

وثبتت عينيها الباردتين المتحجّرتين عليَّ بنظرةٍ لا لبس فيها، وأغلقت الباب وذهبت. حاولتُ أن أباغت المخلوقة الصغيرة العنيدة أحياناً بسؤالها عرضاً عن الكلمة حين تسرح بخيالها، فتشرع في الإجابة في معظم الأحيان، ثم تتصرف بوقاحة بنظرها نظرة مستفزة مفادها: «أنا أذكى منكِ! لا ينبغي لكِ خداعي لأجيبكِ أيضاً».

في مناسبة أخرى، تظاهرتُ أنّي نسيتُ الأمر برمّته، وتحدثتُ ولعبتُ معها كالمعتاد حتى الليل حين وضعتُها على السرير، ثم انحنيت فوقها، وهي تستلقي مبتسمة مسرورة وحسنة المزاج، قُبيل مغادرتي قلتُ بالطيبة والابتهاج

نفسيهما السابقين: «والآن يا ماري آن، قولي لي تلك الكلمة فحسب قبل أن أقبلكِ قبلة ما قبل النوم. أنتِ فتاة صالحة الآن، ومن المؤكد أنك ستقولينها».

«كلا، لن أقولها».

«إذاً. لا يسعني تقبيلكِ».

«لا يهم».

عبثاً عبرتُ عن أساي، عبثاً مكثتُ منتظرة علاماتٍ تدلّ على ندمها. إنَّها حقّاً «لم تهتم» وتركتُها وحدها، في الظلام، متعجبةً جدّاً من آخر برهان على عنادها عديم الحس. في طفولتي، لم يكن بوسعي أن أتصور عقوبة أشدّ إيلاماً من رفض أمي تقبيلي في الليل: الفكرة في حدّ ذاتها كانت رهيبة. لم أشعر قط بأي شيء سوى الفكرة؛ لأني لحسن الحظ لم أرتكب خطأً يستحق عقوبة كتلك، لكن أذكر ذات مرّة، بسبب تجاوزات ارتكبتها أختي، رأت أمي أن من المناسب أن تعاقبها بها: لا أعرف ما الذي شعرتْ به، لكن لن أنسى سريعاً دموعي المتعاطفة وتألّمي لأجلها.

سمة أخرى مزعجة من سمات ماري آن هي ميلها العنيد إلى الاستمرار بالركض نحو بيت الحضانة للّعب مع أختيها الصغرَيين والحاضنة. كان هذا طبيعيّاً كفاية، لكنّه يخالف الرغبة التي أبدتها أمها. أنا، بطبيعة الحال، منعتُها من ذلك، وبذلتُ أقصى جهدي لإبقائها معي، بيد أنَّ ميلها إلى بيت الحضانة زاد فحسب، وكلّما سعيتُ لإبقائها بعيدة عنه كثر تردّدها إليه، وطال بقاؤها فيه، ما أثار استياء السيدة بلومفيلد بشدة، فعلمتُ أنها ستلومني على المسألة برمتها. محنة أخرى من محني كمُنت في تسريح شعرها صباحاً: تارة ترفض الاستحمام، وتارة ترفض ارتداء ثوبها إلا إن كان ثوباً أعرف أنّ أمّها لن ترغبَ لها في ارتدائه، وتصرخ وتهرب في أحيان أخرى إن حاولتُ لمس شعرها؛ لذا في معظم المرات، التي أنجح فيها في إنزالها أخيراً، بعد الكثير من المشقة والمتاعب، يوشك الفطور على الانتهاء، وجزائي المؤكد على ذلك هو نظرات «ماما» الساخطة، وملاحظات «بابا» سريع الغضب، التي تُلقى على مسمعي إن لم توجّه إليّ؛ لأنه قلّما انزعج من شيء انزعاجه من الافتقار إلى الدقة في أوقات الوجبات، ومن مصادر الإزعاج الثانوية عجزي عن إرضاء السيدة بلومفيلد في شعر ابنتها؛ فشعر الطفلة «غير لائق لأن يُرى إطلاقاً»، وأحياناً، توبيخاً عنيفاً لي، تؤدّي مهمة الخادم بنفسها ثمّ تتشكّى تشكياً مُرّاً من المشقّة التي تكبّدتها جراء ذلك. حين جاءت فاني الصغيرة إلى حجرة الدرس، رجوتُ أن تكون وديعة وغير عدوانية في الأقل، لكنَّ بضعة أيام، إن لم تكن بضع ساعات، كافية لتحطيم الوهم: اكتشفتُ أنها مخلوقةٌ عابثة، صعبة المراس،

مستسلمة للكذب والخداع، رغم صغر سنها، ومولعة ولعاً مقلقاً باستخدام سلاحي دفاعها وهجومها المفضلين: البصق في وجه من يثيرون استياءها، والجؤار كالثور حين لا تُشبَع رغباتها غير العقلانية. ولأنها عموماً هادئةٌ جداً في حضور والديها، ولتأثرهما بفكرة كونها طفلة رقيقة على نحوٍ استثنائي، صُدِّقت أكاذيبها بسهولة، واهتياجاتها العالية جعلتهما يشكّان في أنني أعاملها معاملة قاسية وغير حكيمة، وحين ظهر مزاجها السيّئ أخيراً لعينيهما المتحاملتين، شعرتُ بأنّهما عَزوا كامل الخطأ إلي.

قالت السيدة بلومفيلد لزوجها: «لقد أضحت فاني فتاة شقية! ألا تلاحظ، يا عزيزي، كيف تغيّرت منذ دخولها حجرة الدرس؟ قريباً ستصبح بسوء ذينك الاثنين، وآسف لقول ذلك، لكنّهما قد فسدا مؤخراً».

أجابَ: «بوسعكِ قول ذلك. كنتُ أفكر في الشيء ذاته بنفسي. ظننتُهم سيتحسنون حين نجلب لهم مربّية، لكن بدلاً من ذلك يصبحون أسوأ وأسوأ، لا أعرف كيف هو الحال مع تعليمهم، لكني أعرف أنّ سلوكياتهم لم تتحسن بأيّ حال. إنّهم يزدادون فظاظة وقذارة وتصرفاتٍ غير لائقة كلّ يوم».

عرفتُ أنّ كلّ ما سبق موجّهٌ إلي، هذا وكل التلميحات المشابهة أثَّرت فيَّ على نحو أعمق مما قد تفعله اتهامات صريحة؛ لأنه في مواجهة السيدة كنتُ لأثور متحدثة دفاعاً عن نفسي، بيد أني ارتأيتُ الآن أن أحكِم خطةً لي هي أن أقهر كلّ دافعٍ امتعاضي، وأكبح كلّ انكماشة قد تلاحظها الحواس، وأن أثابر وأمضي قدماً فاعلةً ما بوسعي، لأنه بقدر ما كانت وظيفتي مزعجة، كنتُ أرغب جدياً في الحفاظ عليها. خطر في بالي أني إن استطعتُ المواصلة بحزم واستقامة متواصلين فسيغدو الأطفال، مع مرور الوقت، أكثر تهذيباً. كلّ شهر سيسهم في جعلهم أحكم قليلاً، ثمّ طيِّعين أكثر؛ لأن طفلاً في التاسعة أو العاشرة بمثل شدّة اهتياج وصعوبة مراس هؤلاء، وهم في السادسة والسابعة، سيكون مسعوراً.

أطريتُ نفسي بأنّي أفيد أبويَّ وأختي ببقائي هنا؛ لأنه، رغم ضآلة الراتب، ما زلتُ أكسب شيئاً، وبتوفير صارم سأتمكّن بسهولة من أن أحظى بشيء لأستغني عنه لهم، إن أكرموني بأخذه. ثمّ إني حصلتُ على هذه الوظيفة بمشيئتي الخاصة: لقد أنزلت كلّ هذه البلية على نفسي، وقد عزمتُ على احتمالها، لا بل أكثر من ذلك، لم أندم حتى على الخطوة التي اتخذتُها. تقتُ إلى أن أري أصدقائي أنّني، حتى في هذا الوقت، مؤهلةٌ لتولي المهمة، وقادرة على أن أبلي بلاءً حسناً يدعو إلى الفخر حتى النهاية. وإن شعرتُ بأنّه أمرٌ مخزٍ أن أستسلم على نحو هادئ جدّاً، أو أن الكدح الدائم أمرٌ لا يطاق، فسألتفتُ ناحية بيتي وأقول في نفسي:

قد تسحقني [اللوعات]، لكن، لن تقهرني[4] !

فما يشغلُ فكري أنتِ لا هي

مع اقتراب عيد الميلاد، سُمح لي بزيارة البيت، لكن عطلتي كانت أسبوعين فقط؛ قالت السيدة بلومفيلد: «اعتقدتُ، لمّا كنتِ قد رأيتِ أصدقاءكِ مؤخراً، أنّكِ لن ترغبي في إقامة أطول»، تركتُها تظلّ معتقدةً ذلك، لكنّها جهلت: ما أطولَ أسابيعَ الغيبة الأربعة عشر وأرهقَها عليَّ! وما أشدَّ ما تقتُ إلى عطلي! وما أعظم خيبتي بتقليصها! رغم هذا، ليست هي الملومة على ذلك، فلم أخبرها بمشاعري قط، ولا يُتوقَّع منها أن تخمّنها. لم أعمل لديها مدةً كاملة؛ لذا لها الحقّ في عدم السماح لي بإجازة كاملة.

4

الجدة

أعفي قرّائي من سرد بهجةِ قدومي إلى المنزل وسعادتي حين كنتُ هناك، مستمتعةً بمدّة راحتي القصيرة، وحرّيتي في ذلك المكان العزيز الحميميّ بين المحِبِّين والمُحَبِّين، وحزني لاضطراري إلى مفارقتهم مرةً أخرى فراقاً طويلاً.

مع ذلك عدتُ إلى عملي بحماسة لم تُخمَد؛ مهمة شاقة أكثر مما يمكن لشخص أن يتصورها، شخص لم يشعر بمثل بؤس أن يُكلَّف بعناية وتوجيه زمرة متمرّدين مزعجين مشاغبين، شخص أقصى جهوده لا يمكنها أن تتعهّد بواجبهم، وهو في الوقت ذاته مسؤول عن تصرفاتهم أمام سلطة أعلى، سلطةٍ تنتزع منه ما لا يمكن تحقيقه من دون مساعدةٍ من نفوذها الأقوى، النفوذ الذي، إمّا بسبب التراخي، وإمّا الخوف من فقدان شعبيته عند العصابة المتمردة آنفة الذكر، يرفض الأخير منحَه له. بوسعي تصوّر بضع وظائف أخرى أشدّ إرهاقاً من التي أنا فيها، مهما تُقْتَ إلى النجاح، مهما كدحتَ لإنجاز واجبك، يُحبِط من هم دونك جهودك ويزدرونها، وينتقدها ويسيء الحكم عليها، بغير وجه حقّ، من هم فوقك. لم أعدّد نصف نزعات طلابي المغيظة، أو نصف المتاعب الناجمة عن مسؤوليّاتي الشاقة، خوفاً من الإفراط في انتهاك صبر القارئ، وهو الأمر الذي لعلّني فعلتُه سلفاً، لكنّ هدفي من كتابة الصفحات القليلة الأخيرة لم يكن للإمتاع، بل لنفع أولئك الذين قد يعنيهم الأمر، مَن لا تهمّه مثل هذه المسائل، فقد تجاوزها -لا ريب- بنظرة خاطفة، وربما بلعن إسهاب الكاتبة، لكن إن استنتج والدٌ منها تلميحاً مفيداً، أو انتفعت منها مربيةٌ قليلة حظّ أقلّ انتفاع، فسأعدُّني جوزيتُ جزاءً حسناً على آلامي. لأتجنّب المتاعب والحيرة، تناولتُ طلابي طالباً طالباً، وتحدّثتُ عن طبائعهم المختلفة، لكن ليس بوسع هذا أن يعطي فكرة كافية حول تعذيب الثلاثة كلّهم لي، حين -وهو ما كانت عليه الحال غالباً- يعزم جميعهم علي: «أن يكونوا أشقياء، ويضايقوا الآنسة غري، ويصيبوها بنوبة انفعال». أحياناً، في تلك المناسبات، تخطر في بالي فجأةً الفكرة الآتية: «لو أنَّ بوسعهم رؤيتي الآن!»، وأقصد، بطبيعة الحال، أصدقائي في الديار. وفكرة أنّهم سيشفقون علي جعلتني أشفق على نفسي إشفاقاً عظيماً حتى إنّي واجهتُ صعوبةً قصوى لكبح دموعي، لكنّي أكبحها إلى أن يغادر معذِّبيّ الصغار لتناول الحلوى، أو الخلود إلى النوم (إمكانات حريتي الوحيدة)، ثم، في كلّ نعيم العزلة، أسلمتُ نفسي

لترف تفجّر بكاء غير محدود. لكن كان ذلك ضعفاً لم أطلق العنان له غالباً. كانت أعمالي أكثر ولحظات فراغي أعزّ من أن تتّسع لوقتٍ أقضيه في نواحٍ عقيم.

أتذكّر تحديداً ما بعد ظهيرةٍ عاصفة مثلجة، بعد وقت قصير من عودتي في كانون الثاني/يناير: صعد الأطفال كلّهم بعد تناولهم الغداء، معلنين بصوتٍ عالٍ عن نيّتهم في أن «يكونوا أشقياء»، وقد حافظوا على تصميمهم حفاظاً حسناً، مع أنّي تحدّثت بصوت أجشّ، وأرهقتُ كلّ عضلة في حلقي في محاولة عقيمة لإقناعهم بالعدول عن ذلك. ثبت توم في زاويةٍ أخبرتُه ألا يفرَّ منها حتى يُتمَّ واجبه المحدّد، وأثناء ذلك حازت فاني حقيبةَ شغلي، ونقّبت محتوياتها، وبصقت فيها فوق ذلك، أخبرتُها أن تتركها، لكن بلا فائدة بطبيعة الحال. صاح توم قائلاً: «احرقيها يا فاني!»، وقد أطاعت أمره هذا بسرعة، وثبتُ لأنتزعها من النار، واندفع توم نحو الباب، صاح قائلاً: «يا ماري آن، ألقي بمكتبها من النافذة!»، وكاد مكتبي العزيز، الذي يحوي رسائلي وأوراقي ونقودي القليلة وكلّ أشيائي القيمة، يُسقَط من نافذة الدور الثالث. انطلقتُ لإنقاذه. وأثناء ذلك غادر توم الحجرة، واندفع نازلاً السلالم تتبعه فاني. بعد أن أمَّنتُ مكتبي، ركضتُ لأمسك بهما، ولحقتني ماري آن وهي تعدو. فرّ منّي الثلاثة جميعهم، وركضوا خارج المنزل نحو الحديقة، حيث غمروا أنفسهم بالثلج، يصيحون ويصرخون في طرب جَذِل.

ما الذي ينبغي فعله؟ إن تبعتهم ففي الأرجح لن أتمكّن من إمساك واحدٍ منهم، وسأجعلهم يبتعدون أكثر، وإن لم أتبعهم فكيف عساني أدخلهم؟ وما الذي سيظنه أبواهم فيَّ إن رأوا أو سمعوا الأطفال يمرحون بصخبٍ بلا قبعات، بلا قلنسوات، بلا قفازات، بلا جِزَمٍ في الثلج العميق الناعم؟ في أثناء ما كنتُ واقفة محتارةً خارج الباب مباشرةً، محاولةً بنظراتٍ صارمة وكلماتٍ غاضبة أن أروِّعهم ليخضعوا، سمعتُ صوتاً خلفي يهتف بنبرات جشّاء مدوِّية قائلاً:

«آنسة غري! أيُعقل هذا؟ ما الذي تفكرين فيه بحق اسم الشيطان؟».

قلتُ: «لا يسعني إدخالهم يا سيدي»، وأنا ألتفت لأبصر السيد بلومفيلد، وقد انتصب شعر جسده، وعيناه الزرقاوان الباهتتان جحظتا من محجريهما.

صاح قائلًا: «لكني أصرّ على إدخالهم»، وهو يقترب ويبدو ضارياً جدّاً.

أجبتُه وأنا أتراجع: «إذاً، يا سيدي، عليك مناداتهم بنفسك من فضلك؛ لأنهم لن يصغوا إلي».

جأر قائلاً: «ادخلوا أيها الأطفال المزعجون القذرون، أو سأجلد كلّ واحد منكم بالسوط!»، فأطاعه الأطفال فوراً. «أترين! يأتون من الكلمة الأولى!».

«أجل، حين تخاطبهم».

«لهو أمر غريب جدّاً، رغم كونك مسؤولة عن رعايتهم لا تملكين سيطرة أفضل عليهم! الآن، ها هم أولاءِ صعدوا بأقدامهم المثلجة المقرفة! الحقي بهم واعملي على جعلهم بمظهر لائق بحق الرب!».

كانت أم السيِّد الموقَّر ذاك ماكثةً حينها في البيت، وأثناء ما كنتُ أرتقي السلالم مارّة بباب قاعة الاستقبال، حظيتُ بشرف سماع العجوز تتحدّث مع كنّتها بطريقة خطابية وصوتٍ عالٍ شيئاً ما معناه (لأني لم أستطع أن أميّز سوى الكلمات التوكيدية): «أيّها الربّ اللطيف! لم أرَ في حياتي قط! — تيقني من موتهم تيقناً لا ريب فيه —! هل تظنين يا عزيزتي أنّها إنسانة لائقة؟ صدقيني حين أقول —».

لم أسمع أكثر من ذلك، لكنّ ذلك كان كافياً.

كانت السيدة بلومفيلد العجوز ملاطِفةً ومهذّبة جدّاً معي، وحسبتها حتى اللحظة عجوزاً لطيفة شفوقة عذبة الحديث. غالباً ما أتَتْ تبادلني الحديث بنبرة حميمية، مومئةً برأسها وهازةً له، مشيرةً بيديها وعينيها، كما هو الحال مع بعض العجائز، رغم أني لم أعرف عجوزاً تتّسم بهذه الميزة إلى حدٍّ كبير كهذا. بل تعاطفت معي تجاه المتاعب التي واجهتُها مع الأطفال، وتعبِّر أحياناً، بجمل نصفيّة موشَّاة بالإيماءات والغمزات العارفة، عن شعورها تجاه تصرف أمِّهم غير الحكيم بتقييدٍ سلطتي جدّاً وإهمالها مساعدتي بسلطتها. لم أحبّذ أسلوب الاستهجان المؤكَّد، ورفضتُ على نحوٍ عام قبوله، أو فهم أكثر ممّا قيل صراحةً، في الأقل، لم أتجاوز قط إقراراً ضمنيّاً بأنّه لو كانت المسائل على عكس ذلك مرتبةً لقلَّت مهمّتي صعوبة، ولتمكّنتُ من توجيه وتعليم ودائعي تعليماً أفضل، لكن الآن عليّ أن أحذرَ حذراً مضاعفاً. حتى اليوم، رغم أني رأيتُ للعجوز عيوبها (والمرء مُعَرَّض ليراها كمالاً)، دائماً ما رغبتُ في التماس العذر لها، وأن أقرّ بكلّ مناقبها التي أبدتها، حتى إني تخيلتُ مناقبَ أُخَرَ لم تُذكرْ بعد. الطيبة، وهي آدام حياتي خلال سنوات كثيرة، حُرمتُ منها مؤخراً حرماناً كاملاً اضطرّني إلى الترحيب بامتنان بأقلّ ما يشابهها. لا عجب إذاً إن استشعرَ قلبي محبّة للعجوز، وابتهج دائماً لاقترابها، وأسف على رحيلها. لكن، الآن، الكلمات القليلة، التي لحسن الحظ أو سوئه سمعتُها وأنا أمر، أحدثت تغييراً جذريّاً في أفكاري في ما يتعلّق بها. الآن أعدّها منافقة ومرائية، متملقة وجاسوسة على كلماتي وأفعالي. لا شك في أنَّ من مصلحتي أن أداوم لُقياها

بالابتسامة المبتهجة ذاتها ونبرة المودة المحترمة مثل السابق، لكني لم أستطع فعل ذلك، وحين فعلتُ بدلتْ تصرفاتي مشاعري وأحالتها باردة ومتحفظة جدّاً على نحوٍ لم يكن لها ألا تلاحظه. سريعاً لاحظتْهُ، فتغيّرت تصرّفاتها أيضاً؛ الإيماءة الحميمية أصبحت انحناءة رسمية، والابتسامة اللطيفة حلّ محلّها حملقة ضراوة غُرغونيّة[5] ، ثرثرتها المرحة انتقلتْ مني إلى «الفتى والفتيات الأعزاء»، الذين تملّقتهم ودلّلتهم على نحوٍ غير معقول أكثر ممّا فعلت أمّهم.

أعترف بأني قلقتُ قليلاً من هذا التغير. خشيتُ عواقب استيائها، حتى إني بذلتُ بعض الجهود لاسترداد النفوذ الذي خسرتُه، ونجحتُ في ذلك نجاحاً ظاهراً أكثر ممّا توقعتُ. ذات مرة، من باب الكياسة فقط، استفسرتُ عن سعالها، فاستحالت سيماؤها المكفهرّة فوراً إلى ابتسامة، ومنَّتْ عليّ ببيان دقيق له ولأسقامها الأخرى، متبوعاً بحكي عن تسليمها الوَرِع لأمراضها، معبِّرةً عنه بالأسلوب التأكيدي الخَطابي المعتاد الذي لا يمكن لأيّ كتابة أن تصوّره بالألفاظ.

«لكنّ لها كلُّها علاجاً واحداً، يا عزيزتي، وهو التسليم. (هزَّة رأس). التسليم لمشيئة الله (رفع الأيادي والأعين). أعانني التسليم دائماً، خلال كل محني، وسيعينني دوماً. (إيماءات متتابعة). لكن ليس بوسع الجميع قول ذلك (هزة رأس)، لكنّي واحدة من الأتقياء يا آنسة غري (هزّة وإيماءة ذات مغزى كبير). وحمداً لله لأني كنتُ دائماً كذلك (إيماءة أخرى). وأنا فرحة به! (تشبيك يدين وهزة رأس تأكيديتان)». وبعد عدة نصوص من الكتاب المقدس، استُشهد بها خطأً أو أسيء استعمالها، وهتافات دينية عابقة بالسخافة في أسلوب الأداء والسلوك المتعلقين بالاستحضار، إن لم يكن في الصياغة نفسها، ما حمَلني على رفض ترديدها. أشاحت بناظريها عنّي هازّة رأسها الكبير في ودّية شديدة (في داخلها على الأقل) وتركتني آمل أنها كانت بعد كلّ شيء ضعيفة العقل لا شريرة.

في زيارتها التالية لقصر ويلوود، ذهبتُ إلى الحدّ الذي قلتُ فيه إنّي سعيدة برؤيتها تبدو بخير وعافية. كان تأثير كلماتي كالسحر؛ الكلمات التي قلتُها بدافع الكياسة عدَّتها مدحاً إطرائيّاً، تهلّل محياها، ومنذ تلك اللحظة أصبحتْ بمقدار الكياسة واللطف اللذين يتمنّاهما القلب، في الظاهر على الأقل. ما رأيتُه الآن منها، وما سمعتُه من الأطفال، عرفتُ أنّه لأكسب صداقتها العميقة ليس عليّ سوى مدحها في كلّ فرصة سانحة، لكنّ هذا كان ضدّ مبادئي، ولافتقاري إلى ذلك، حرمتني السيدة العجوز المتقلّبة سريعاً من عطفها، وأومن بأنّها سبّبت لي الكثير من الأذى الخفي. لم يكن بوسعها أن تحرِّض كتّتها عليّ تحريضاً

كبيراً؛ لأنَّ بينها وتلك السيدة كرهاً متبادلاً أظهرته خصوصاً بانتقاصات وافتراءات في السر، وأظهرته الأخرى بإفراطها في الرسمية غير الودية في سلوكها، وما من مدح تملقيّ تقوله الكبرى بوسعه أن يذيب جدار الثلج الذي وضعته الصغرى بينهما. أمّا ابنها، فقد حظيت العجوز معه بنجاح أكبر. كان يصغي إلى كلّ ما تقوله، بشرط أن تتمكن من تهدئة طبعه النكد، وتحجم عن مضايقته بحدّتها. ولديّ سبب لأعتقد بأنّها قد قوَّت إلى حدٍّ بعيد تحامله علي. أخبرته أنّي أهمل الأطفال إهمالاً شائناً، وحتى زوجه لم تعتنِ بهم كما ينبغي لها، وأن عليه أن يعتني بهم بنفسه، أو سيفسد جميعهم.

بعد أن ألحت عليه، أزعج نفسه كثيراً بمراقبتهم من النوافذ أثناء لعبهم. في بعض الأوقات كان يتبعهم عبر الأراضي، وكثيراً ما صادفهم وهم يلعبون بالماء في البئر المحرمة، أو يتحدثون للحوذي في الإسطبل، أو يستمتعون في قذارة فِناء المزرعة، في حين أقف أنا منهكة على الجانب؛ لأني استنفدتُ طاقتي سلفاً في محاولات عقيمة لإبعادهم. أحياناً أيضاً كان يدسُّ رأسه فجأة في حجرة الدرس أثناء تناول الصغار وجباتهم، ويراهم يريقون الحليب على الطاولة وأنفسهم، ويغطسون أصابعهم في أكوابهم أو أكواب بعضهم، أو يتنازعون حول طعامهم مثل مجموعة أشبال نمر. إن صمتُّ حينها فأنا متسترة على تصرّفهم المنافي للحشمة، وإن (وهو ما كان الحال في الغالب) رفعتُ صوتي لألزمهم بالانضباط فأنا أستخدم عنفاً غير ضروري، وأجعل من نفسي مثالاً سيئاً للفتيات بنبرتي ولغتي غير الرقيقتين. أذكر ما بعد ظهيرةٍ في الربيع، حين لم يتمكّنوا بفضل المطر من الخروج، لكن بفعل حسن حظّ مذهل، أنهوا جميعاً دروسهم، وأحجموا، علاوة على ذلك، عن الركض نزولاً لمضايقة أبويهم، وهي عادة أزعجتني جداً، لكنّها، في الأيام المطيرة، عادةً، نادراً ما استطعتُ منعهم منها؛ لأنّهم وجدوا الإثارة والتسلية في الأسفل، خاصة حين يكون زوارٌ في البيت، ولن توبِّخهم أمهم، رغم أنها أمرتني بإبقائهم في حجرة الدرس، أبداً، على مغادرتهم إياها، أو تزعج نفسها بإعادتهم إليها. لكنّهم بدوا، في ذلك اليوم، راضين عن مسكنهم الحالي، والأعجبُ من ذلك ميلُهم إلى اللعب مع بعضهم من دون الاعتماد عليّ لتسليتهم، ومن دون أن يتشاجروا. ما فعلوه محيّر بعض الشيء؛ أقعَوا معاً على الأرض بجانب النافذة حول كومة ألعاب مكسورة وكمية كبيرة من بيض الطيور، أو بالأصح قشر البيض؛ لأن محتوياتها قد جُرّدت منها لحسن الحظ. تلك القشور التي كسروها، وأخذوا يسحقونها شظايا، لم أستطع أن أتخيّل لأيّ سبب، لكن ما داموا هادئين ولا يتسبّبون في أذى محض، فلا أهتم. لشعوري باسترخاء غير معتاد قعدتُ بجانب النار، وأنا أخيط الغرز النهائية لثوب دمية ماري آن، ناويةً، بعد أن أفرغ من ذلك، أن أشرع في كتابة رسالة إلى أمي. فُتِح الباب فجأةً، وأطلّ منه رأس السيد بلومفيلد الداكن.

قال: «كلّ شيء هادئ هنا! ما الذي تفعلونه؟». فكرتُ: «ما من ضرر اليوم أخيراً». لكن كانٍ له رأي آخر. تقدّم نحو النافذة، ورأى ما يشتغل عليه الأطفال، فهتف بنكد قائلاً: «ما الذي تفعلونه بحق العالم؟».

صاح توم قائلاً: «نحن نطحن قشر البيض يا بابا».

«كيف تجرؤون على إحداث مثل هذه الفوضى أيّها الشياطين الصغار؟ ألا تبصرون ما اقترفته أيديكم بالسجادة؟ (كانت السجادة بساطاً عادياً بُنيّاً)».

«يا آنسة غري، أكنتِ على علمٍ بما يفعلونه؟».

«أجل يا سيدي».

«كنتِ على علم!».

«أجل».

«كنتِ على علم وقعدتِ بالفعل هنا، وسمحتِ لهم بالمواصلة من دون كلمة تقريع واحدة؟».

«لم أرَ أنّهم يرتكبون أيَّ أذى».

«أيّ أذى! انظري هناك! أبصري ذلك السجاد فحسب! وانظري، هل رأيتِ أيّ شيء مثله في بيتٍ متحضّر قط؟ لا عجب أنّ حجرتكِ لا تصلح حتى لأن تكون زريبة خنازير، لا عجب أنّ طلابكِ أسوأ من صغار الخنازير، لا عجب! أوكّد لكِ أنّ صبري بلغ مبلغه مما يحدث»، ثمّ رحل مغلقاً الباب خلفه بعنف أضحك الأطفال. غممتُ قائلة: «لقد بلغ الصبر بي مبلغه مما يحدث أيضاً»، وأنا أنهض وأمسك المسعار وأهشّم به الجمرات المطفأة وأمزجها تحريكاً بنشاط غير اعتيادي، وبذلك أهدّئ من انزعاجي متظاهرةً بإذكاء النار.

أخذ السيد بلومفيلد، بعد تلك الواقعة، يتفقّد حجرة الدرس تفقداً متواصلاً ليتأكد من أنّها كما ينبغي لها أن تكون، ولأنّ الأطفال كانوا يكسون الأرض بشظايا الألعاب، العصي، والصخور، وأجذام الزروع، والأوراق، وغيرها من النفايات، التي لم أستطع منعهم من جلبها، أو إجبارهم على تجميعها، والتي رفض الخدم «تنظيفها من بعدهم»، وجبَ عليّ قضاء حصة كبيرة من لحظات فراغي القيّم على ركبتيَّ فوق الأرض، لأعيد ترتيب الأشياء على نحو مؤلم. أخبرتهم ذات مرّة أنّهم لن يتذوّقوا عشاءهم حتى يلتقطوا كلّ شيء من السجاد؛ لفاني أن تحظى بعشائها حين تلتقط كميّة معينة، وماري آن حين تلتقط ضعفها، وعلى توم أن يرتّبِ ما تبقى. مدهشٌ أن أذكر أنَّ الفتيات أدّينَ

حصَّتهنَّ، لكن توم كان حانقاَ جداَ حتى إنّه انقضّ على الطاولة ونثر الخبز والحليب على الأرض، وضرب أخواته، وركل الفحم مخرجاً إياه من وعاء الفحم، وحاول قلب الطاولة والكراسي، وبدا ميالاً إلى أن يحيل كلّ محتويات الحجرة إلى مستودع دوغلاس[6] ، لكنّي أمسكتُه، وأثناء ما أرسلتُ ماري آن لمناداة أمها، ثبَّته بالرغم من الركلات والضربات والصرخات واللعنات حتى ظهرت السيدة بلومفيلد.

قالت: «ما خطب فتاي؟».

حين شُرح لها الخطب، كلُّ ما فعلته هو أنّها أرسلت طالبةً من الحاضنة المجيء لترتّب الحجرة، وأن يُجلَب للسيد بلومفيلد عشاؤه. رفع توم بصره عن عشائه وفمه مملوءٌ بالطعام حتى إنّه يكاد يقدر على الكلام، وصاح قائلاً مبتهجاً بالنصر: «أترين يا آنسة غري! أنتِ ترين أني حصلتُ على عشائي رغم أنفكِ، ولم ألتقط شيئاً واحداً». لم يتعاطف معي تعاطفاً صادقاً في البيت سوى شخص واحد هي الحاضنة؛ لأنها عانت من محنٍ مشابهة، وإن كانت أخف؛ لأنها لم تُعهد إليها مسؤولية التعليم، ولم تكُ ذاتَ مسؤولية كبيرة عن تصرفات وديعتها.

قالت: «آهٍ يا آنسة غري! إنكِ تواجهين بعض الصعوبات مع أولئكَ الأطفال».

«أنا كذلك -لا شك- يا بيتي، وأستطيع أن أقول إنكِ تعرفين كيف أشعر».

«أجل، أعرف كيف تشعرين! لكني لا أزعج نفسي بهم مثلكِ، ثمّ إنكِ تعرفين أنّي أصفعهم أحياناً، وأجلد مؤخّراتهم الصغيرة جلدةً قويةً بين الفينة والأخرى، فلا ينفع معهم شيء آخر كما يُقال، لكني خسرتُ وظيفتي بسبب ذلك».

«أحقَّاً يا بيتي؟ سمعتُ أنكِ كنتِ ستغادرين».

«أجل، ليباركك الرب! حذّرتني السيدة قبل ثلاثة أسابيع. أخبرتني قبل عيد الميلاد ما الذي سيحلّ بي إن ضربتهم مجدداً، لكني لم أستطع أن أكفّ يدي عنهم بأيّ حال. لا أعرف كيف ستتصرّفين؛ لأن الآنسة ماري آن أسوأ من أختيها بالضِّعف!».

5

الخال

أزعجتني زياراتُ قريبٍ آخر غير السيدة العجوز إزعاجاً شديداً، وذلك القريب هو أخ السيدة بلومفيلد «الخال روبسن»؛ رجلٌ طويلٌ، مغرورٌ، داكنُ الشعر، شاحبُ البشرة كأخته، ذو أنفٍ يأنف الأرض، وعينين رماديتين صغيرتين نصف مغلقتين معظم الأحيان، يتّسم بمزيجٍ من الحماقة الحقيقية والاحتقار المصطنع لكلّ ما يحيط به، وهو رجلٌ سمين، عريض الصدر والمنكبين، قويّ البنية، لكنّه اهتدى إلى وسيلة لضغطِ خاصرته فصغُرت صغراً جليّاً، وإن زدنا على ذلك صلابة هيئته فسنتبيَّن أنّ السيد روبسن الرجولي، ذا العقل المتغطرس، الذي يزدري نوع النساء، ما كان له أن يسمو عن غندرة ارتداء المُخَصِّرات. لم يتكرّم بالالتفات إليّ إلا نادراً، وحين يلتفت إليّ يكون ذلك بنبرةٍ وأسلوبٍ تنمَّانِ عن غطرسةٍ متشامخةٍ أيقنتُ معهما أنَّه ليس رجلاً موقراً، رغم أنه أراد بهما خلاف ذلك. لكن ليس هذا سبب كرهي لمجيئه، بل بسبب السوء الذي يلحقه بالأطفال، فقد شجّع فيهم كلَّ نزعاتهم الشريرة، وأفسد، في بضع دقائق، الخيرَ الصغيرَ الذي استغرق أشهراً من الكدح لتحقيقه. نادراً ما أنزلَ نفسه إلى مستوى يُعير فيه انتباهاً لفاني وهارييت الصغيرة، لكن بدا أن ماري آن هي مفضّلته. شجعها تشجيعاً متواصلاً على نزعتها للتصنُّع (التي بذلتُ جهدي لسحقها) متحدثاً عن وجهها الجميل، وحاشياً رأسها بكلّ ضربٍ من ضروب الأفكار المغرورة المتعلقة بمظهرها الشخصي (الذي علمتُها أن تعدّه ذرة في الميزانِ مقابل تنمية عقلها وأخلاقها)، ولم أشهد قط طفلةً أشدّ تأثراً بالمديح منها. أيّاً كان الخطأ الذي تقترفه هي أو أخوها، شجعهما عليه بضحكه منه، إن لم يكن بمدحه، قليلاً ما يدرك الناس الضرر الذي يلحقونه بالأطفال حين يضحكون على أخطائهم، ويحيلون ما سعى أصدقاؤهم المخلصون لتعليمهم أن يعدّوه مقتاً شديداً إلى نكتة ممتعة.

اعتاد السيد روبسن، رغم أنّه لم يكن سكِّيراً حقيقةً، تجرّع كمياتٍ كبيرةٍ من الخمر، وشرب متلذذاً كأس براندي وماءً في بعض المناسبات. علَّم ابن أخته تقليدَهُ ما استطاع، وحمَله على تصديق أنَّه كلّما زادت قدرته على احتساء الخمر والكحول، وزاد حبّه لها، تجلَّت روحه الجسورة الرجولية، وسيضحي أعلى مقاماً من أخواته. لم يعترض السيد بلومفيلد على ذلك اعتراضاً يُذكر؛ لأن شرابه المفضل كان الجِن والماء، واحتسى حصة كبيرة منه كلّ يوم

بارتشافه المتواصل له، وإليه عزوتُ، في المقام الأول، دكنة بشرته وطبعه سريع الغضب.

شجع السيد روبسن، أيضاً، نزعة توم في اضطهاد الخَلق الأدنى مبدأً وقدوةً؛ لأنّه كثيراً ما جاء يطارد بكلاب القنص، أو يصطاد على أراضي زوج أخته، جالباً كلابه المفضلة معه، وقد عاملها بوحشيّة شديدة إلى حدِّ أنّي، مع فقري، كنتُ لأدفع ما فوقي وتحتي في يومٍ لأرى أحدها يعضّه، شرط ألا يُعاقبَ الحيوان على ذلك. أحياناً، حين يكون في مزاج رائق جداً، يذهب مع الأطفال بحثاً عن أعشاش الطيور، وهو أمرٌ أزعجني وضايقني بشدة؛ لأنّي، بمحاولات دؤوبة ومتكررة، مدحتُ نفسي بأنّي بينتُ لهم، إلى حدّ ما، خبثَ هذه التسلية، وأملتُ أن أحمِلهم على التحلي بشعور عام بالعدل والعطف مع مرور الوقت، لكن عشر دقائق بحثٍ عن أعشاش الطيور مع الخال روبسن، أو حتى ضحكة منه إن قصّوا عليه أعمالهم الوحشية السابقة، كافية فوراً لتحطيم نتيجة مساري المدروس في المحاججة والإقناع. لكن، لحسن الحظ، خلال الربيع، لم يظفروا بأيّ شيء قط (عدا مرة واحدة) سوى أعشاش أو بيوض خاوية؛ لأنّ أمّها نفد صبرها من أن تنتظر حتى تنقف بيضها. جاء توم ذات مرة، بعد أن ذهب مع خاله إلى المزرعة المجاورة، راكضاً بسعادة غامرة نحو الحديقة، وفي يديه صيصان طير عديمة الريش. ركضت ماري آن وفاني، اللتان أخرجتهما لتوي، ليكبرا غنائمه، وتوسلتا أن تحصل كلٌّ منهما على طائر لنفسها. صاح توم قائلاً: «لا، ولا طائراً واحداً! كلّها ملكي، أعطاني إيّاها الخال روبسن، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، لا يجدر بكنّ لمس واحدة! لا، ولا حتى طائراً أبداً!». وواصل بجذل واضعاً العش على الأرض، واقفاً فوقه بساقين متباعدتين، ويداه داخل جيبيٍّ بنطاله، وجسده منحنٍ للأمام، ولوى وجهه لكلّ ضَرْب من الالتواءات في نشوة فرحه.

«لكن، ستريننني أشبعها موتاً. أقسم، لكن! لكن، هل سأضربها؟ أجل سأضربها. عجباً! استمتعتُ بهذا العشّ متعةً نادرة».

قلتُ: «لكن يا توم، لن أسمح لك بتعذيب هذه الطيور، فينبغي إمّا أن تُقتَل فوراً وإمّا أن تُعاد إلى المكان الذي أخذتها منه، ليتسنّى للطيور الكبيرة مواصلة إطعامها».

«لكنّكِ لا تعرفين المكان يا آنستي، وحدي والخال روبسن من نعرفه».

«لكن إن لم تخبرني، فسأقتلها بنفسي رغم أنّي أكره ذلك بشدة».

«لا تجرؤين على ذلك. لن تجرؤي على لمسها أبداً! لأنّكِ تعرفين أنَّ هذا سيغضب بابا وماما والخال روبسن. ها ها! لقد أوقعتُ بكِ يا آنسة!».

«عليّ أن أفعل ما أعدّه صواباً في مسألةٍ كهذه من دون استشارة أحد. إن لم يوافق أبوك وأمك على ذلك، فإنّي آسف لإغضابهما، لكنّ آراء خالك روبسن من المؤكّد أنها لا تمثّل لي شيئاً».

بقولي ذلك، مدفوعةً بإحساس بالواجب، مجازفةً بأنْ أشعر بالاشمئزاز، وأن أجلب على نفسي سخط أصحاب عملي، جلبتُ حجراً مسطحاً كبيراً صنعه البستاني ليُوضع في شرك فئران، ثمّ، بعد أن سعيتُ مرة أخرى عبثاً لإقناع الطاغية الصغير بإعادة الطيور، سألتُه عمّا ينوي فعله بها. شرع يذكر قائمة من التعذيبات بمرحٍ شرير، وأثناء ما كان منشغلاً بسردها، أوقعتُ الحجر على ضحاياه المعنيين وسحقتها حتى استوت تحته. نجم عن هذا الاعتداء الجسور احتجاجاتٌ صارخة عالية، ولعناتٌ فظيعة. كان الخال روبسن قادماً من ممرّ الحديقة حاملاً بندقيته، توقف تماماً في تلك اللحظة التي كان سيركل كلبه فيها. انطلق توم نحوه، مقسماً إنه سيجعله يركلني بدلاً من كلبه. اتكأ السيد روبسن على بندقيته، وضحك بإفراط على اتقاد الغضب الشديد لابن أخته، واللعنات والنعوت المحقِّرة القاسية التي أغدقها عليّ. هتف قائلاً أخيراً: «أنتَ فتىً صالح»، حاملاً بندقيته ومتجهاً نحو البيت. «عجباً، لكنّ الفتى يتمتع بشيء من الجرأة أيضاً، ليلعنّي الرب إن كنتُ قد رأيتُ وغداً أنبل منه قط. إنّه فوق السيطرة النسائية بالفعل: إنَّه يتحدّى الأم، والجدة، والمربية أيضاً! ها، ها، ها، لا عليك يا توم، سأجلب لك صغار طيور أخرى غداً».

قلتُ: «إن فعلتَ يا سيد روبسن، فسأقتلها أيضاً».

أجابني قائلاً: «هَمْمم!»، ولأنّه شرّفني بتحديقة واضحة، وخلافاً لتوقعاته، بقيتُ أنظر إليها من دون أن أجفل، فالتفت مُظهراً ازدراءً شديداً، ومشى متبختراً نحو البيت. ذهب توم تالياً ليخبر أمّه. لم يكن من عادتها أن تقول الكثير بشأن أيّ موضوع، لكن حين شاهدتني بعد ذلك تضاعف غموض وفتور مظهرها وسلوكها.

بعد بضع تعليقات عابرة عن الطقس، أبدت ملاحظتها قائلة: «يؤسفني يا آنسة غري أن ترِي أنّ من الضروري أن تتدخلي في تسليات السيد بلومفيلد، كان محزوناً جداً لإبادتكِ الطيور».

أجبتُها قائلة: «حين تشتمل تسليات السيد بلومفيلد على إيذاء كائناتٍ واعية، أظنّ أن من واجبي أن أتدخل».

قالت بهدوء: «يبدو أنكِ نسيتِ أنّ كلّ الكائنات خُلقت لأجل فائدتنا».

رأيتُ أنّ هذا المعتقد يسمح بشيء من الشك، لكني أجبتُها قائلة فحسب: «إن كانوا كذلك فلا يحقّ لنا أن نعذّبهم لأجل متعتنا».

قالت: «أرى أنّ متعة طفل لا تشكّل، إلا بشق الأنفس، أذى على صحة بهيمة بلا روح».

أجبتُ قائلةً بأخنع ما استطعتُ؛ تكفيراً عن الإلحاح غير المعتاد: «لكن لمصلحة الطفل ينبغي ألا يُشجَّع على تسلياتٍ كهذه؛ طُوبَى للرُّحَماءِ فَإِنَّهُمْ سَيُرْحَمُونَ»[7]

«أوه! بالتأكيد، لكنّ هذا ينطبق على تصرّفاتنا تجاه بعضنا».

جازفتُ بأن أضيف قائلةً: «الرحيم يبدي الرحمة لبهيمته».

أجابت ضاحكةً ضحكةً قصيرةً ساخرة: «لا أخالكِ أنتِ أبديتِ الكثير من الرحمة، فقد قتلتِ الطيور المسكينة جملةً قتلاً صادماً، وعرَّضتِ الفتى العزيز لتعاسةٍ بسبب نزوةٍ فحسب».

ارتأيتُ أنَّ من الحصافة ألا أزيد على ما قيل شيئاً. كان ذلك أقرب دنوٍّ من نزاع خضتُه مع السيدة بلومفيلد، وأيضاً أكثر عدد كلماتٍ تبادلتُه معها في وقت واحد منذ يوم وصولي.

لكن لم يكن السيد روبسن والسيدة بلومفيلد العجوز الزائرين الوحيدين اللذين أزعجني قدومهما إلى قصر ويلوود؛ كلُّ زائر أزعجني على نحوٍ أكثر أو أقل، ليس لأنّهم أهملوني (مع أنّي شعرتُ بأنّ سلوكهم كان متحفظاً وكريهاً في هذا الشأن)، بل لأنّه استحال عليَّ إبعاد طالبي عنهم، وهو ما رُغِب مني رغبة متواصلة، فتوم عليه أن يتحدّث معهم، وعلى ماري آن أن تُلاحَظ من قبلهم. لا الأول ولا الأخرى عرفا ذرّة من الخجل، أو حتى الاحتشام العام. كانا يقاطعان محادثات من يكبرونهم سناً مقاطعةً غير لائقة وصاخبة، يضايقونهم بأوقح الأسئلة، يمسكون بخناق السادة إمساكاً فظّاً، ويتسلّقون ركبهم متطفّلين، ويتدلّون من أكتافهم، أو يقحمون أيديهم في جيوبهم، يرفعون أثواب الآنسات، ويفسدون شعورهنّ، ويجعدون ياقاتهن، ويتوسّلون بإلحاح ليعطوهما حليهنّ الصغيرة.

كانت السيدة بلومفيلد حكيمةً لتُصدَم وتنزعجَ من كلّ ذلك، لكنّها لم تكن حكيمةً كفاية لإيقافه؛ لذا توقّعت مني إيقافه. لكن كيف عساي أن أوقفه، وحين استمرّ الضيوف، بثيابهم الأنيقة ووجوههم غير المألوفة، بمدحهم وتدليلهم، مجاملةً لأبويهم، فكيف عساي بثيابي غير الجذابة، ووجهي المألوف،

وصراحتي، أن أبعدهم عنهم؟ أجهدتُ كلّ عصبٍ لأفعل ذلك: بمجاهدتي لإمتاعهم، سعيتُ لجذبهم إلى جانبي. بممارستي السلطة التي امتلكتُها، وبصرامةٍ جرؤتُ على استخدامها، حاولتُ ثنيهم عن تعذيب الضيوف، وبتوبيخي لسلوكهم الفظ، لأخجلهم من تكراره. لكنّهم لم يعرفوا خجلاً، هزئوا من السلطة التي لا يدعمها ما يوقِع الذعر في النفس، أمَّا اللطف والعاطفة، فإمّا أنّهم كانوا لا يملكون أفئدة، وإما أنّهم يملكون أفئدةً متوجّسة ومخفية إخفاءً حسناً لم أكتشف بعد، مع كل جهودي، كيف أصل إليها.

لكن انتهت محني سريعاً في هذا الفصل (أسرع مما توقعتُ أو رغبتُ)؛ لأنه ذات مساءٍ عذْبٍ قرابة نهاية شهر أيار/مايو، حين كنتُ أبتهج لاقتراب العطلة، مهنّئة نفسي على التقدّم اليسير الذي حقّقتُه مع طلابي (في ما يتعلق بمعرفتهم في الأقل؛ لأنّي غرستُ شيئاً في رؤوسهم، وحمَلتهم أخيراً على أن يكونوا أكثر عقلانية بقليل، بقليل جدّاً، بشأن إنهاء دروسهم في الوقت المحدّد ليفسحوا مكاناً لأوقات لهوهم، بدلاً من تعذيبي وأنفسهم طوال اليوم بلا طائل) استدعتني السيدة بلومفيلد، وأخبرتني بهدوء أنّه بعد منتصف الصيف لن يعودوا بحاجة إلى خدماتي. أكّدت لي أنّ خُلُقي وسلوكي العام رائعان جدّاً، لكنّ الأطفال لم يحرزوا إلا تقدماً يسيراً منذ وصولي أشعرها وسيّد بلومفيلد أنّ من واجبهما البحث عن أسلوب تعليم آخر. رغم أنّ قدراتهم تفوق قدرات معظم مَن في سنّهم، هم بالتأكيد متخلّفون عنهم في محرزاتهم، ولم تُهَذَّب سلوكياتهم وطباعهم صعبة المراس. عَزتْ ذلك إلى افتقاري إلى الحزم الكافي والرعاية المتّسمة بالاجتهاد والمواظبة. كان الحزم الثابت، والاجتهاد المخلص، والمواظبة التي لا تعرف الكلل، والعناية المتواصلة، عينها الكفاءات التي افتخرتُ بها في سرّي، والتي رجوتُ أنّي سأتغلّب بها، مع مرور الوقت، على كلّ الصعاب، وأنجح أخيراً. أردتُ أن أقول شيئاً لأبرّئ نفسي، لكن حين حاولتُ الكلام أخذ صوتي يتلعثم، وبدلاً من أن أظهر أيّ مشاعر، أو أسمح للدموع التي تتجمّع بالفعل في عيني أن تنهمر، اخترتُ أن أظلّ صامتة، وأتحمّل كلّ شيء مثل مجرمٍ أدان نفسه.

هكذا سُرِّحتُ، وهكذا ذهبتُ إلى بيتي. واحسرتاه! ما الذي سيظنّونه بي؟ عاجزة، بعد كلّ تفاخري، عن الحفاظ على وظيفتي حتى سنة واحدة مربّيةً لثلاثة أطفال صغار، مَنْ أكّدت لي عمتي أنّ أمهم «امرأةٌ لطيفة جدّاً». وبعد أن وُزِنتُ في الميزان ورأوا أنّي ناقصة، لا ينبغي لي أن آمل أنّهم سيرغبون في تجربتي مرة أخرى، وتلك فكرة غير مرغوب فيها؛ لأنه، رغم ما كنتُ عليه من ضيق وانزعاج وخيبة أمل، وتعلمي تعلماً عظيماً أن أحبّ وأقدر بيتي، لم أسأم بعدُ من المغامرة، ولن أخفّف من جهودي. عرفتُ أنّه ليس كلّ الآباء مثل السيد والسيدة بلومفيلد، وكان مؤكداً لديّ أنْ ليس كلّ الأطفال مثل أطفالهم.

العائلة التالية يجب أن تكون مختلفة، وأيّ تغيير يجب أن يكون إلى الأفضل. حنّكتني المحنة، وعلّمتني التجربة، وتقتُ إلى استعادة شرفي الضائع في عيون من آراؤهم كانت تعني أكثر من العالم لي.

6

بيت الكاهن مجددًا

بقيتُ في الديار بضعة أشهر بقاءً اتَّسم بالسلام، مستمتعةً متعةً هادئةً بالحرية والراحة والصداقة المخلصة التي صمتُ عنها وقتاً طويلاً، ومواصِلةً دروسي مواصَلةً جادَّة، لأستعيد ما نسيتُه أثناء مكوثي في بيت ويلوود، ولأدخر مؤونة جديدة للاستعمال المستقبلي. ما زالت صحّة أبي غير مستقرة جدّاً، لكنّها ليست أسوأ بكثير من آخر مرّة رأيتُه، وأسعدني أنّي استطعتُ إبهاجه بعودتي، وتسليته بغناء أغانيه المفضلة. لم يحتفل أيٌّ منهم احتفال النصر بفشلي، أو يَقُل إنَّه كان يستحسن بي الأخذ بنصيحته أو نصيحتها والبقاء في البيت دون تذمّر. فرحوا جميعاً بعودتي مجدداً، وجادوا عليَّ بلطفٍ أكثر من ذي قبل تعويضاً عن المحن التي قاسيتُها، لكنّ أيّاً منهم لم يلمس شلناً مما كسبتُه كسباً مبهجاً وادخرتُه ادخاراً حريصاً أملاً في مشاركته معهم. بتقتيرنا هنا، وتوفيرنا توفيراً شديداً هناك، كانت ديوننا بالفعل شبه مقضيّة.

حقّقت ماري نجاحاً جيداً بلوحاتها، لكنّ أبانا أصرَّ عليها أيضاً أن تبقي كلّ نتاج عملها الدؤوب لنفسها. كلّ ما أمكننا الاستغناء عنه من مؤونة خزانة ثيابنا المتواضعة ونفقاتنا العارضة اليسيرة أمرنا أن نودعها في مصرف الادخار، قائلاً إنّنا لا نعرف متى سنضطر إلى الاعتماد عليها وحدها لإعالتنا؛ لأنّه شعر بأنّه لن يظلّ معنا طويلاً، والله وحده يعلم ما سيحلّ بنا وبأمي بعد رحيله! بابا العزيز! لو أنَّه كان أقلّ قلقاً من المحن التي تهدّدنا في حال موته، فأنا مقتنعةٌ بأنّ تلك الحادثة المفزعة لم تكن لتحدث سريعاً. لم تكن أمي لتسمح له بالتفكير في الموضوع لو أمكنها ذلك.

هتفت قائلة ذات مرة: «أوه، ريتشارد! لو أنك فقط تطرد هذه الموضوعات الكئيبة من ذهنك، فستعيش قدرَ ما ستعيشه أيٌّ منا، في الأقل ستعيش لتبصر الفتاتين متزوّجتين ونفسكَ سعيداً جدّاً، مع امرأة كهلة مرحة بصحبتك».

ضحكت أمي، وكذلك أبي، لكن تلاشت ضحكته سريعاً في تنهيدة حزينة.

قال: «هما متزوّجتان؟ يا للمسكينتين المعدمَتَين! أتساءل من سيقبل الزواج بهما!».

«لن يجب ذلك على أيٍّ ممَّن لن يسعدهما الزواج بهما. ألم أكن معدمةً حين تزوّجتني؟ وتظاهرتَ في الأقلّ أنّك مسرورٌ بشدّة بما نلته. لكن لا يهم إن تزوّجتا أو لا، بوسعنا أن ندبّر ألف طريقة محترمة لكسب رزقنا. وإنّي لأتعجَّب يا ريتشارد من أنَّ بمقدورك أن تفكّر في إزعاج رأسك بشأن فقرنا في حال موتك، وكأنّ ذلك سيعدّ شيئاً مقارنة بكارثة فقدانك؛ بلوى تعرف جيداً أنّها ستطغى على جميع ما عداها، وينبغي لك أن تبذل قصارى جهدك لحمايتنا منها، وما من شيء مثل الذهن المبتهج لإبقاء الجسد بصحة حسنة».

«أعرف يا أليس أنّ من الخطأ أن أستمرّ في التشكي كما أفعل، لكن لا يسعني ألا أتشكى. عليك أن تصبري علي».

أجابت أمي قائلة: «لن أصبر عليك إن كنتُ قادرةً على تغييرك». لكن قسوة كلماتها أبطلتها نبرتها العطوفة الجادة وابتسامتها اللطيفة، اللتان جعلتا أبي يبتسم مجدداً ابتسامة أقلّ حزناً وأبطأ زوالاً من المعتاد.

قلتُ ما إن سنحت لي الفرصة بالحديث معها على انفراد: «ماما، مالي قليل، ولن يدوم طويلاً، لو أمكنني زيادته فسيخفّف ذلك من قلق أبي، في الأقل في موضوع واحد. لا أستطيع الرسم مثل ماري، لذا أفضل ما يمكنني فعله هو البحث عن عمل آخر».

«إذاً، فأنتِ حقاً ستجربين من جديد يا أغنس؟».

«بالتأكيد سأفعل».

«خلتُكِ اكتفيتِ من ذلك يا عزيزتي».

قلتُ: «أعرف أن ليس الجميع مثل السيد والسيدة بلومفيلد».

قاطعتني أمي قائلة: «بعضهم أسوأ».

أجبتها قائلة: «لكنّي لا أحسبهم كُثُراً. أنا متأكدة. ليس كلّ الأطفال مثل أطفالهما، لأني وماري لم نكن كذلك، فقد أطعناكِ دائماً، أليس كذلك؟».

«في الغالب، لكنّي لم أدللكما، ولم تكونا ملاكين مثاليين بعد كلّ شيء، فماري امتلكت ذخيرة من العناد الهادئ، وأنتِ كنتِ معيبةً قليلاً في طبعكِ، لكنكما كنتما طفلتين صالحتين جدّاً في المجمل».

«أعرف أنّي كنتُ مكفهرّة أحياناً، وكنتُ لأسعد برؤية أولئك الأطفال مكفهرين أحياناً أيضاً؛ لأني حينها سأكون قادرة على فهمهم، لكنهم لم يكفهروا

قط، لعجزهم عن الشعور بالإهانة، أو الألم، أو الخجل، لم يكن بمقدورهم ألا يكونوا سعداء بأيّ حال، باستثناء إذا كانوا في نوبة انفعال».

«إن لم يكونوا قادرين على ذلك فما ذلك بخطئهم. ليس لكِ أن تأملي من الصخر أن يكون بمرونة الصلصال».

«لا، لكن ما زال من المنفّر جداً أن تعيشي مع كائنات لا يمكن التأثير بها أو سبر أغوارها، لا يمكنكِ حبهم، وإن أمكنكِ ذلك فسيُنبذ حبكِ بكلّ ما في الكلمة من معنى، فليس بوسعهم مبادلتكِ إياه، أو تقديره أو فهمه. لكن، على أية حال، حتى لو صادفتُ عائلة كهذه مجدداً، وهو أمر بعيد الاحتمال، فلدي كل هذه الخبرة لأستعين بها، وسأتدبّر أمري تدبراً أفضل في المرة التالية. ختام وهدف هذه التوطئة هو: اسمحي لي بأن أحاول مرة أخرى».

«يا فتاتي. أرى أنه ليس من اليسير ثنيكِ عما تريدينه. أنا سعيدة بذلك. لكن دعيني أخبركِ أنكِ أكثر شحوباً ونحولاً بكثير منذ غادرتِ البيت أول مرة، ولا يمكننا أن ندعكِ تتلفين صحتكِ لادخار المال سواء لنفسكِ أم لغيركِ».

«أخبرتني ماري أني تغيرتُ أيضاً، ولا أتعجب من ذلك عجباً كبيراً؛ لأني كنتُ في حالة مستمرة من الاهتياج والقلق طوال اليوم، لكني عازمة، في المرة القادمة، على التعامل مع الأمور بهدوء».

بعد بضع مناقشات إضافية، وعدتني أمي مرةً أخرى بمساعدتي، بشرط أن أنتظر وأكون صبورة، وتركتها لتتطرّق إلى الموضوع مع أبي، في الوقت والكيفية التي رأتها مستحسنة، غير شاكّة إطلاقاً في قدرتها على نيل موافقته.

أثناء ذلك بحثتُ باهتمام شديد في أعمدة الإعلانات في الصحف، ورددتُ على كلّ «مطلوب مربية» بدت جديرة بالاختيار، لكنّ كلّ رسائلي وإجاباتها أيضاً، إن تلقيتُ إجابة، أطلعت عليها، بدافع حسّ الواجب، أمي، وهي، الأمر الذي أغمني، جعلتني أرفض الأعمال عملاً تلو الآخر؛ هؤلاء أناسٌ وضيعون، وأولئك كثيرو المطالب، وآخرون شحيحون في مكافأتهم.

قالت: «ما تتمتعين به من مواهب ليست مثلما تتمتّع به كلّ ابنة كاهن فقير يا أغنس. يجب ألا تهدريها. تذكّري أنّكِ وعدتِ بأن تكوني صبورة. ما من داعٍ للعجلة، لديكِ الكثير من الوقتِ أمامكِ، وما زال بوسعكِ أن تحظي بفرص عديدة».

أخيراً، نصحتني بأن أضع إعلاناً بنفسي في الصحيفة أعرض فيه مؤهلاتي...إلخ.

قالت: «الموسيقا، الغناء، الرسم، الفرنسية، اللاتينية، الألمانية، ليست مجموعة عادية. سيسعد الكثيرون بأن تتمتع معلمة واحدة بكلّ ذلك، وهذه المرة ينبغي لكِ أن تجرّبي حظكِ مع عائلة أنبل قليلاً، ربُّها رجلٌ أرستقراطي أصيل؛ لأن هؤلاء في الأرجح سيعاملونكِ باحترام لائق ويراعونكِ أكثر من أولئك التجار المتفاخرين بثروتهم وحديثي النعمة المتغطرسين. عرفتُ عدة من بين الطبقات العليا الذين عاملوا مربياتهم تماماً كفرد من العائلة، رغم أنّ بعضهم، أعترف، بوسعهم أن يكونوا بوقاحة وكثرة طلبات أيّ أحد آخر؛ لأن الصالح والطالح موجود في كلّ طبقة».

كُتب الإعلان بسرعة وأُرسِل. من بين الطرفين اللذين ردّا طرفٌ واحد فقط وافق على منحي خمسين جنيهاً إسترلينياً سنوياً، المبلغ الذي أمرتني أمي بأن أضعه راتباً أطلبه، فتردّدتُ في مزاولة العمل خشيةَ أن يكون الأطفال أكبر ممّا ينبغي، وأن يرغب أبواهما في معلمةٍ مبهرجة الثياب أو ذات خبرةٍ أكبر، إن لم تكن أضلع مني. لكن أمي نصحتني بالعدول عن رفضه لهذا السبب: قالت إني سأتدبّر أمري خير تدبّر إن تخلّيتُ فقط عن عدم ثقتي بالنفس، وتحلّيتُ برباطة جأش أكثر قليلاً. كلّ ما عليَّ هو أن أعرض عرضاً صريحاً صادقاً مكتسباتي ومؤهلاتي، وأحدّد الشروط التي أريد اشتراطها، ثمّ أنتظر النتيجة. الشرط الوحيد الذي تجرّأتُ على اشتراطه هو أن يسمح لي بشهرَين عُطلةً خلال السنة لزيارة أصدقائي في منتصف الصيف وعيد الميلاد. لم تبدِ السيدة المجهولة في ردّها أيّ اعتراض على ذلك، وذكرت أنه في ما يتعلق بمكتسباتي، ليس عندها شكّ في أنّ أدائي سيكون مرضياً، لكنّها لم ترَ تلك المكتسبات إلا نقاطاً ثانوية في عملي مربّيةً؛ لأنها تقطن في حي ***. بوسعها جلب معلماتٍ لسدّ أيّ عجز بهذا الشأن، لكن، في رأيها، إلى جانب الأخلاق التي لا تشوبها شائبة، إنّ طبعاً لطيفاً ومبهجاً ومزاجاً محبّاً للمساعدة هي أكثر المتطلبات جوهرية. لم تستسغ أمي ذلك إطلاقاً، واعترضت اعتراضاتٍ عديدة على قبولي العمل، ودعمتها أختي في ذلك بحرارة، لكن لأني لم أنوِ أن أُثَبَّط مجدداً، هيمنتُ عليها جميعاً، ولحصولي على موافقة أبي أولاً (الذي أُخبر قبل وقتٍ قصير بهذه الإجراءات) كتبتُ ألطف رسالة لمراسلتي المجهولة، وأخيراً عقدت الصفقة.

قُضي أن أباشر في آخر يوم من كانون الثاني/يناير عملي الجديد مربّيةً لعائلة مُري من هورتن لودج بقرب أو***، على بعد سبعين ميلاً من قريتنا، مسافة أعدّها هائلة؛ لأني لم أذهب أبعد من عشرين ميلاً عن ديارِي خلال العشرين سنة التي أقمتُ فيها على الأرض، وعلاوةً على ذلك، كلّ فرد في تلك العائلة وفي الحي كانوا مجهولين تماماً لي ولكلّ معارفي، لكنّ ذلك أثارني فحسب. تخلصتُ الآن، إلى حدٍّ ما، من الخجل الذي قمعني سابقاً قمعاً شديداً.

لهي ذاتُ إثارة بهيجة فكرةُ ولوج هذه المناطق المجهولة، وشقّ طريقي وحدي بين قاطنيها الغرباء. أطريتُ نفسي الآن بأنّي سأرى شيئاً في العالم؛ فبيت السيد مُري قرب بلدة كبيرة، وليس في مقاطعة صناعية؛ حيث ليس لدى الناس ما يفعلونه سوى جني المال. بدت منزلته، مما استنتجتُه، أعلى من السيد بلومفيلد، وهو -لا شك- أحد أبناء الطبقة العليا الأصيلين الأرستقراطيين الذين تحدّثت عنهم أمي، مَن سيعامل مربّيته بالمراعاة اللازمة مثل سيدة محترمة حسنة التعليم ومعلّمة أطفاله ومرشدتهم، لا محض خادم عليا. ولأنّ طلابي أكبر سناً فسيكونون أعقل وأكثر قابلية للتعليم، وأقل إزعاجاً من السابقين، وأقلّ تقييداً لحجرة الدرس، ولا يتطلبون ذلك الجهد المستمر والمراقبة المتواصلة، وأخيراً اختلطت التخيلات المشرقة مع آمالي، التي لا تتعلق بها عناية الأطفال والواجبات الصرفة للمربية إلا قليلاً، أو لا تتعلق بها أبداً. بذلك سيرى القارئ أني لا أطالب بأن أُعَدَّ شهيدة بر والدين تنطلق مضحية بالسلام والحرية، لا لشيء إلا لادخار مؤونة لراحة ودعم أبويّ، رغم أنّ راحة أبي والدعم المستقبلي لأمّي لَهما بالتأكيد حصة كبيرة في حسباني، والخمسون جنيهاً إسترلينياً بدا لي ليس مبلغاً عاديّاً. عليّ شراء ثياب تليق بوظيفتي، ويظهر أن عليّ نشر غسيلي، وأن أدفع أيضاً لسفراتي السنوية الأربع بين هورتن لودج ودياري، لكن، بانتباه صارم للتوفير، إنّ عشرين جنيهاً إسترلينياً، أو أكثر بقليل، ستغطي بالتأكيد تلك النفقات، ثمّ سيتبقّى ثلاثون للمصرف أو أقلّ بقليل. يا لها من إضافة قيّمة لرأس مالنا! عليّ أن أكافح للحفاظ على هذه الوظيفة بغضّ الطرف عمّا سيحدث! لأجل شرفي بين أصدقائي والخدمات الجليلة التي سأقدّمها لهم ببقائي هناك.

7

هورتن لودج

كان الحادي والثلاثين من كانون الثاني/يناير يوماً عاصفاً هائجاً؛ الريح شمالية عاتية تصحبها عاصفة متواصلة من ثلج يتحرّك ببطء على الأرض ويدور عبر الهواء. كان أصدقائي ليجعلوني أؤجِّل رحيلي، لكنّي أصررتُ على الحفاظ على الموعد خوفاً من أن يتحامل عليّ أصحاب عملي بسبب افتقاري إلى دقة التزام المواعيد في بداية شروعي في العمل.

لن أبتلي قرائي بذكر مغادرتي البيت في ذلك الصباح الشتوي المظلم: الوداعات الحنونة، الرحلة الطويلة جدّاً إلى أو***، الانتظارات الموحشة في النُزُل للمركبات أو القطارات لوجود بعض السكك الحديد حينها، وأخيراً اللقاء في أو*** بخادم السيد مُري الذي أُرسِل مع العربة ليقلّني من هناك إلى هورتن لودج. سأذكر فقط أنّ الثلج المعيق للحركة ألقى ببعض العوائق في طريق كلٍّ من الخيول والمحركات البخارية حتى إن الظلام قد خيّم قبل بضع ساعات من بلوغي نهاية رحلتي، وأنّ عاصفةً مذهلةً جداً أوشكت على الهبوب، وجعلت مسافة البضعة أميال بين أو*** وهورتن لودج ممراً طويلاً وهائلاً. قعدتُ راضيةً من غير تَذمُّرٍ والثلج البارد القارس يتطاير عبر طرحتي، ويملأ حجري، لا أرى شيئاً، متسائلةً: كيف استطاع الحصان والسائق غير المحظوظين حتى من شقّ طريقهما على نحو حسن كما فعلا، وما كان تقدُّمهما يقيناً إلا دَبّاً شاقّاً لأصفه خير وصف. توقفنا أخيراً، وعندما طلب السائق رفع أحدهم مزلاج ما بدا بوابة ميدان[8] ، ودفعها على مُفَصَّلاتها الصَّارَّة، ثمّ تقدمنا على طريق أشدّ تمهيداً؛ حيث لاحظتُ، بين حين وآخر، بعض الكتل الشيباء الضخمة التي تومض في الظلام، حسبتها جزءاً من شجرة مغطاة بالثلج. توقفنا مجدداً بعد وقت طويل أمام الرواق المُعَمَّد الفخم لبيت ضخم بنوافذ طويلة نازلة إلى الأرض.

نهضتُ بشيء من الصعوبة تحت الركام الثلجي ثقيل الوطأة، وترجلتُ من العربة، متوقّعة استقبالاً طيباً مضيافاً سيعوّضني عن مشاقّ وصعوبات اليوم. فتح الباب سيِّدٌ يرتدي زيّاً أسود، وأدخلني إلى ردهة فسيحة يضيئها مصباح كهرماني اللون يتدلّى من السقف، وأرشدني عبرها على طول مجاز، وأخبرني، وهو يفتح باب حجرة خلفية، أنّها حجرة الدرس. دخلتُ ووجدتُ آنستين يافعتين وسيدين يافعين؛ طلابي المستقبليين بحسب ما ظننتُ. بعد

تحية رسمية، سألتني الفتاة الكبرى، التي كانت تعبث بقطعة قماش قُنَّبي وسلة أصواف ألمانية، إن كنتُ أرغب في الذهاب إلى الدور العلوي، فأجبتُ بالإيجاب بطبيعة الحال.

قالت: «ماتلدا، خذي شمعة وأرشديها إلى غرفتها».

هزت الآنسة ماتلدا كتفيها، وقبَّضت وجهها تقبضاً يسيراً، وهي فتاة طائشة في الرابعة عشرة من عمرها تقريباً، طويلة، قوية البنية، ترتدي ثوباً وسروالاً قصيرين، لكنها حملت شمعة وتقدّمتني سيراً على السلّم الخلفي (ذي السلمات المزدوجة المنحدرة والطويلة)، وعبر مجاز طويل ضيق إلى حجرة صغيرة، لكنّها مريحة على نحو مقبول.

سألتني إن كنت أرغب في تناول بعض الشاي أو القهوة. أوشكتُ أن أجيبها بلا، لكن، لتذكّري أنّي لم آكل شيئاً منذ السابعة هذا الصباح، ما أصابني بالدوار، قلتُ إني سأتناول كوباً من الشاي. بعد قولها إنها ستخبر «براون»، غادرت الآنسة الصغيرة، في الوقت الذي فرغتُ فيه من خلع عباءتي، وشالي، وقلنسوتي الثقيلات الرطبات...، وما شابه، جاءت فتاة متكلّفة الرقّة لتخبرني أنَّ الآنستين اليافعتين ترغبان في معرفة ما إذا كنتُ سأتناول الشاي هناك أو في حجرة الدرس. اخترتُ تناوله هناك متذرّعة بالإرهاق. انصرفتْ ثُمَّ عادت بعد برهةٍ حاملةً صينيّة شاي وضعَتها على الخزانة ذات الأدراج التي اتُّخِذَت منضدةً للتزيُّن. بعد أن شكرتُها بتهذيبٍ، سألتها متى يُتوَقع منّي النهوض صباحاً.

قالت: «تفطر الآنستان والسيدان الصغار في الثامنة والنصف يا آنستي. إنّهم يستيقظون مبكراً، لكن لأنهم نادراً ما يؤدّون أيّ دروس قبل الفطور، أرى أن نهوضكِ بُعَيد السابعة سيفي بالغرض».

طلبتُ منها أن تتلطف وتوقظني في السابعة، وانصرفتْ بعد أن وعدتني بذلك. بعد أن قطعتُ صيامي الطويل بكوبٍ من الشاي وخبز صغير رقيق وزبدة، قعدت على الأرض بجانب النار الصغيرة المُدَخِّنة من دون لهب، وسليتُ نفسي بنوبة بكاء عَارم صليتُ بعدها صلواتي، ثم أخذتُ أتحضَّرُ للنوم بعد أن شعرتُ باطمئنان شديد. استهللتُ بحثاً عن الجرس لاكتشافي أنّه لم تُجلَب أيٌّ من أمتعتي، ولإخفاقي في إيجاد أيّ دلائل على وجود شيء مفيد كهذا في أيّ ركن من أركان الغرفة، حملتُ شمعتي وجرؤتُ على عبور المجاز الطويل ونزول السلم المنحدر في رحلة اكتشاف. حين قابلتُ أنثى أنيقة في طريقي أخبرتُها ما احتجتُ إليه، لكن ليس من دون تردد كبير؛ لأني لم أتيقّن تمام اليقين ما إذا كانت إحدى الخدم عاليات المرتبة أو السيدة مري بذاتها، اتّضح على أيّ حال أنّها خادم السيدة الشخصية. تلطفتْ بتولّي أمر إرسال

أغراضي بمظهر من يسدي معروفاً غير عادي، وحين دخلتُ حجرتي كرّةً أخرى، وانتظرتُ وتساءلتُ وقتاً طويلاً (خاشيةً خشيةً عظيمةً من أنَّها نسيت أو أهملت أداء وعدها، وحائرة بين الانتظار، أو النوم، أو النزول مرة أخرى)، أحيَت الأصوات والضحكات المصحوبة بوقع الأقدام على المجاز آمالي أخيراً، وأدخل رجلٍ وخادمٌ قاسية المظهر الأمتعة سريعاً، ولم يكن سلوكهما معي محترماً جدّاً. بعد أن أغلقتُ الباب على وقع خطا أقدامهما المنكفئة، وأفرغتُ بعضاً من أغراضي؛ عمدتُ إلى إراحة نفسي، سعيدة كفاية لأني منهكة جسداً وعقلاً.

صحوتُ في الصباح التالي وأنا أشعر بشعور غريب من الوحدة، ممزوج بشعور قوي بجِدَّة مكاني، ونوع كئيب من الفضول ممّا لا يزال مجهولاً، شعرتُ كأني امرؤ دوَّره السِّحرُ في الهواء، ثم أُلقِي به فجأة من الغيوم في أرض مجهولة نائية، معزولة تمام الانعزال عن كلّ ما سبق له رؤيته أو معرفته، أو كبذرة نبات شائك حملتها الريح إلى مكان غريب منعزل تربته غير ملائمة؛ حيث عليها أن ترقد طويلاً كفاية قبل أن تتجذر وتُنبِت، وتستخلص غذاءها مما يبدو غريباً جداً عن طبيعتها، هذا، بطبيعة الحال، إن أمكنها ذلك أصلاً. لكن هذا لا يعطي إطلاقاً فكرة تامة عن مشاعري، ومن لم يعش حياة منعزلة وثابتة كحياتي فلن يسعه أن يتصوّر كيف كانت؛ اللهم إلا إن كان يعرف ما هو شعور أن يستيقظ ذات صباح ويجد نفسه في ميناء نيلسون في نيوزيلاندا؛ حيث يفصل عالم من المياه بينه وبين كلّ من عرفه.

لن أنسى سريعاً الشعور الغريب الذي رفعتُ به عصابة عينيّ ونظرت إلى العالم المجهول؛ قفر واسع مكسوّ بالثلج هو كلّ ما أبصرته نظرتي المحدقة.

قفارٌ تتقلب في الثلج[9] وأيكات ثقيلة

نزلتُ إلى حجرة الدرس لأنضمّ إلى طلابي دون كبير تلهف، لكن ليس دون شعور بالفضول بشأن ما قد تكشفه معرفة إضافية. عزمتُ على أمرٍ واحد من بين عدة أمور أخرى أوضح أهمية، وهو أنّ عليّ البدء بمناداتهم بآنسة وسيد. بدا لي ذلك من الرسميات الفاترة والمتكلفة بين أطفال عائلة ومعلمتهم ورفيقتهم اليومية، ولاسيما حين يكون الأولون في طفولتهم المبكرة كما هو الحال في قصر ويلوود، لكن، حتى هناك، عُدَّت مناداتي لصغار بلومفيلد بأسمائهم المجردة اجتراءً مهيناً بحسب ما حرص أبواهم على أن يُفهماني بمناداتهما لهم بالسيد والآنسة بلومفيلد حين يتحدثان إلي. تأخرتُ جداً في فهم التلميح؛ لأن المسألة برمتها بدت سخيفةً جداً لي، لكنّي الآن عازمة على أن أكون أحكم، وأن أشرع فوراً في الرسميات والكياسة المتكلفة بأكبر قدر بحسب ما يتطلبه ما يبدو عليه مركز الفرد في العائلة، وستقلّ الصعوبة لكون

الأطفال أكبر سنَّاً، رغم أنه بدا أن الكلمات الصغيرة «آنسة» و«سيد» لها تأثير مفاجئ في قمع كل الطيبة الحميمية العطوفة، وإخماد كل بارقة مودة قد تنشأ بيننا.

لأن قلبي لا يطاوعني أن أغدق على القارئ كلّ سأمي مثل دوغبيري[10] ، لن أضجره بكلّ تفاصيل اكتشافات ذلك اليوم الدقيقة وأحداثه واليوم الذي تلاه، لا شك في أنه سيرضى رضا أكثر من كافٍ بصورة وصفية أدبية يسيرة لأفراد العائلة المختلفين، ونظرة عامة على أول عام أو عامين لإقامتي وسطهم.

سأبدأ بالرأس: السيد مري، بحسب ما يقوله الناس، ملَّاكٌ ريفي متبجح، يحبّ المتعة الصاخبة؛ صيادُ ثعالب مخلص، خيَّالٌ ماهر، بيطريٌ متمرس، مزارع نشيط عملياً، يحبّ الأكل والشرب حبّاً جمّاً. أقول بحسب ما يقوله الناس؛ لأني -إن استثنينا الآحاد التي يرتاد فيها الكنيسة- لم أره قط إلا من شهر إلى آخر، اللهم إلا إن صادفتُ، أثناء عبوري الردهة، أو سيري في الأرض المجاورة للبيت، شكلاً بشريّاً لرجلٍ موقّر طويل، بدين، قرمزي الأنف والخدين، إن مرّ قربي كفايةً ليتحدث في تلك الحالتين فإنّه عادةً يتلطف بإيماءة غير رسمية مصحوبة «بصباح الخير آنسة غري»، أو غيرها من التحيات القصيرة. كثيراً، تناهت إلى سمعي، بطبيعة الحال، ضحكته العالية من مكان بعيد، وما زلتُ أسمعه، في معظم الأحيان، يشتم ويسب الخدم، وسائس الخيل، والحوذي، أو غيرهم من التابعين قليلي الحظ.

السيدة مري امرأة مليحة، أنيقة، في الأربعين من عمرها، لم تحتج يقيناً إلى أحمر الشفاه ولا البطانات لتزيد جمالها، وكانت، أو بدت، مُتعتها الرئيسة إقامة الحفلات أو التردّد إليها، وارتداء أرقى الأثواب الأنيقة. لم أرَها حتى الحادية عشرة في الصباح التالي لوصولي، حين شرّفتني بزيارة، مثلما قد تدخل أمّي إلى المطبخ لتستقبل خادماً جديدة، لكن ليس كذلك تماماً؛ لأن أمي كانت لتراها فوراً بعد وصولها، ولن تنتظر حتى اليوم التالي، ولخاطبتها علاوةً على ذلك بأسلوب أطيب وأشدّ مودة، وألقت على سمعها بضع كلمات مطمئنة، وشرحت لها واجباتها شرحاً صريحاً، لكن السيدة مري لم تفعل هذا ولا ذاك، بل دخلت فحسب إلى حجرة الدرس أثناء عودتها من طلب الغداء من حجرة مدبرة المنزل، حيّتني: صباح الخير. وقفتْ بجانب النار لدقيقتين. قالت بضع كلمات عن الجو والرحلة «الشاقة إلى حدٍّ ما»، التي لا بد من أني قاسيتُها أمس. لاطفتْ طفلها الأصغر (صبي في العاشرة) الذي مسح للتو فمه ويديه بثوبها بعد أن انغمس في تناول لقمة لذيذة المذاق من مخزن مدبرة المنزل. أخبرتني: ما ألطفه وأصلحه من فتى، ثمّ خرجت ماشية بوقار، تعلو وجهها

ابتسامة الراضي عن نفسه، وهي تفكر في أنها -لا شك- فعلت ما يكفي في الوقت الحاضر، وتفضَّلت تفضُّلاً سارّاً بما أبدته سلفاً، وجليٌّ أنّ أطفالها شاطروها الرأي، وأنا وحدي من ارتأيتُ خلاف ذلك.

كانت تمرّ عليّ بعد ذلك مرةً أو اثنتين أثناء غياب طلابي لتثقفني في ما يخصّ واجباتي تجاههم. أمّا الفتاتان فبدت مشغولة البال فقط في جعلهما جذابتين ظاهرياً ومجيدتين للفنون الاجتماعية إجادةً مبهرجة ما أمكن ذلك، من دون أن يسبب لهما ذلك مشقة أو إزعاجاً، وعليّ أن أتصرف وفقاً لذلك؛ أن أسعى وأجاهد لأسلّيهما وأتفضّل عليهما وأعلّمهما وأهذّبهما وأصقل سلوكيهما بأقلّ ما أمكنهما من جهد ومن دون أن أمارس سلطتي عليهما. أمّا الفتيان، فالشأن ذاته، إلا أنَّه بدلاً من إجادة الفنون الاجتماعية عليَّ أن أحفِّظهما أكبر قدر ممكن من قواعد اللغة اللاتينية ومختارات فالبي[11] ؛ لأعدهما للمدرسة، أكبر قدر ممكن في الأقل دون أن يتكبَّدا العناء. قد يكون جون «جريئاً قليلاً»، وتشارلز «متوتراً ومضجِراً قليلاً».

قالت: «لكن مهما حدث يا آنسة غري، آمل أنكِ ستحافظين على أعصابكِ، وتكونين لطيفة وصبورة طوال ذلك معهم، ولاسيما العزيز تشارلز الصغير، فهو متوتّر وحساس جداً، وغير معتاد إطلاقاً على أيّ شيء سوى أرقّ المعاملة، ستغفرين ذكري هذه الأشياء لكِ، فالحقيقة هي أني حتى الآن اكتشفتُ أنَّ كلّ المربيات، حتى أفضلهن، ضعيفاتٍ في هذا الشأن. أردنَ روح الوداعة والهدوء التي وردت في إنجيل متَّى، أو أحدها، أنَّها خيرٌ من لبس الثياب الفاخرة. تعرفين الفقرة التي أقصدها، فأنتِ ابنة كاهن. لكن لا شك عندي في أنكِ سترضينني في هذا الشأن كغيره. وتذكّري في كلّ المناسبات ما يأتي: إنْ فشل الإقناع والاحتجاج الرقيق، أثناء قيام أيٍّ من الصغار بعمل غير لائق، فدعي واحدة من الأخريات تأتي وتخبرني؛ لأن بوسعي أن أتحدث معهم بصراحة أكبر من أن يليق بكِ استخدامها. وأسعديهم ما استطعتِ يا آنسة غري، وبوسعي أن أقول إن أداءك سيكون خير أداء».

لاحظتُ، حين كانت السيدة مري تبدي اهتماماً شديداً براحة أطفالها وسعادتهم، وتواصل الحديث عن ذلك، أنها لم تذكر، ولو مرةً واحدة، راحتي وسعادتي، رغم أنهم كانوا في بيتهم، محاطين بأصدقائهم، وأنا الأجنبية بين الغرباء، وما خبِرتُ ما يكفي من الحياةِ خبرةً لا أتفاجأ معها بهذا الوضع الشاذ.

الآنسة مري، أو روزالي، كانت في نحو السادسة عشرة حين جئتُ، وهي بالتأكيد فتاة مليحة جداً، وفي غضون سنتين؛ إذ طور الزمن قوامها تطويراً أكثر كمالاً وأضاف حُسْناً لوقفتها ومشيتها، أضحت جميلة بلا شك، وما جمالها ذلك بعادي؛ فهي طويلة وهيفاء، لكنّها ليست بالهزيلة، جسدها منحوتٌ نحتاً

مثالياً، شقراء البشرة شقرة فاتنة، لكن ليس من دون تورد خديها تورداً متألقاً صحياً. أما شعرها الكثيف ذو العقصات الطويلة فلونه بني فاتح جداً مائل إلى الصفرة. أمّا عيناها فزرقاوان شاحبتان، لكنهما صافيتان وزاهيتان جداً حتى إنهم قلّة من قد يرغبون في أن تكونا أصفى. أمّا بقية ملامحها فصغيرة، ليست بالمألوفة جداً ولا بالغريبة غرابة كبيرة، لكن لا يسعك، في المجمل، أن تتردد في تأكيد كونها فتاة فاتنة جداً. أتمنى لو استطعتُ قول ذات الشيء عن عقلها ومزاجها كما أستطيع عن قوامها ووجهها. لكن لا تظننَّ عندي أيّ كشفٍ مروع أكشفه، فهي مفعمة بالحياة وخليّة البال، ولها أن تكون أنيسة جداً مع أولئك الذين لا يعارضون مشيئتها. عاملتني، حين قدمتُ لأول مرة، ببرود وتغطرس، ثم وقاحة واستبداد، لكن حين توطدت معرفتي بها أخذتْ تدريجياً تضع صفاتها المصطنعة جانباً، ومع مرور الوقت تعلقتْ بي تعلقاً بالقدر الذي يُسمح لها بأن تتعلقه بشخص من مثل شاكلتي ومقامي، فنادراً ما غفلتْ، لما يزيد على نصف ساعة في الجلسة الواحدة، عن حقيقة كوني مأجورة وابنة خوريّ فقير، وأومن، رغم ذلك، أنها احترمتني في المجمل أكثر ممّا هي ذاتها مدركة له؛ لأني كنتُ الشخص الوحيد في البيت الذي ثبت على إظهار ما حسن من المبادئ، واعتاد التحدث بالصدق، وسعى على نحوٍ عام لإرضاخ الهوى للواجب، ولا أقول هذا إطراء لنفسي، بطبيعة الحال، بل لأظهر حالة العائلة المؤسفة المكرّسة لها خدماتي في الوقت الحالي، لم آسف أسفاً شديداً على نقص المبادئ المحزن في كل فردٍ منها كما أسفتُ على نقصه في الآنسة مري نفسها، لا لأنها انجذبت إلي فحسب، بل لأنّ فيها الكثير من الخصال الخلابة والمحبّبة للنفس، جعلتني أحبها جداً على الرغم من عيوبها... حين لا تثير سخطي، أو تكدر مزاجي بإظهار عيوبها أكثر من اللازم، لكنني سررتُ بإقناع نفسي بأن هذه الخصال هي نتيجة تعليمها لا طبعها؛ إذ لم تُعَلَّم تعليماً مثالياً قط الفرق بين الصواب والخطأ، وسُمِح لها منذ الطفولة، مثل أخويها وأختها، باضطهاد الحاضنات، والمربيات، والخدم، لم تُعَلَّم كيف تتوسط في شهواتها، أن تسيطر على انفعالاتها أو تكبح رغباتها، أو أن تضحي بمتعتها لمصلحة الآخرين.

ليست بالعنيدة أو النكدة لحسن طبعها الفطري، لكنها، غالباً، سريعة الغضب ونزوية بسبب التدليل المتواصل والازدراء المعتاد للمنطق. لم يُنَمَّ عقلها قط؛ ذكاؤها في أفضل الأحوال سطحيّ نوعاً ما، تتمتّع بحيوية كبيرة وسرعة في قدرة الفهم وبعض المواهب في الموسيقا واكتساب اللغات، لكن حتى سن الخامسة عشرة لم تتعب نفسها باكتساب شيء، ثمّ أيقظ حبُّ الظهور قدراتِها وحثّها على الاجتهاد، لكن فقط لأشد المنجزات بهرجة. والحال ذاته حين جئتُ؛ إذ أُهمل كلّ شيء عدا الفرنسية، والألمانية، والموسيقا، والغناء، والرقص، والتطريز، وقليل من الرسم؛ الرسم الذي ينتج أعظم أبهة

بأقل جهد وأرسم أنا على نحوٍ عام أجزاءه الرئيسة. حظيتْ، بالإضافة إلى دروسي بين الفينة والأخرى، بحضور أفضل معلّم للموسيقا والغناء يمكن للريف أن يوفره، واكتسبتْ بالتأكيد براعة عظيمة في تلك المنجزات كما الرقص. أخبرتُها كثيراً، رغم أنّي مربية، أنها تكرّس وقتاً أكثر مما ينبغي للموسيقا، لكنَّ أمها ارتأت أنَّها إن كانت تحبُّه فلا يُعَدُّ أيّ وقتٍ تقضيه في اكتساب فنٍّ جذابٍ كهذا وقتاً أكثر مما ينبغي. لم أعرف شيئاً عن التطريز إلا ما عرفتُه من طالبتي وملاحظاتي الخاصة، لكن ما إن شرعتُ فيه حتى جعلتني نافعة بعشرين طريقة مختلفة؛ انتقلت كلّ أجزاء عملها المضجرة إلى كاهلي، مثل: مد الإطارات، درز قماش القُنب، فرز الأصواف والحرائر، وضع الخلفيات، عد الغرز، تصحيح الأخطاء، إتمام القطع التي سئمتْ منها. رغم أنها في السادسة عشرة، الآنسة مري فتاة لعوب إلى حدٍّ ما، لكن ليس أكثر مما هو طبيعي أو مسموح به لفتاة في تلك السن، لكنْ أخذت تلك النزعة في السابعة عشرة، مثل كلّ شيء آخر، ترضخ لحُبِّ السيطرة، وسريعاً طغى عليها الطموح الكاسح لنيل إعجاب الرجال وإبهارهم. لكن كفانا حديثاً عنها؛ لنتحدّث الآن عن أختها.

الآنسة ماتلدا مري طائشة أصلية، لا حاجة إلى أن يُقال عنها إلا القليل؛ إنها أصغر من أختها بنحو السنتين والنصف، وأضخمُ ملامحَ، وأدكنُ بشرةً، كانت لتصبحَ امرأة حسناء، لكنّها كبيرة العظام وخرقاء أكثر من اللازم لتوصف بالفتاة الجميلة، وهي حالياً لا تكترث بذلك إلا قليلاً. روزالي مدركة لمفاتنها إدراكاً تاماً، بل تعدها حتى أعظم ممّا هي عليه، وتقدّرها أكثر ممّا ينبغي لها؛ لأنّها أفضل بثلاثة أضعاف، أمّا ماتلدا فرأت أنّها جميلة كفاية، لكنّها لم تكترث بالمسألة إلا قليلاً، وأقلّ من ذلك اكتراثها بتنمية عقلها واكتساب المظاهر الزخرفية. والأسلوب، الذي تعلمتْ فيه دروسها وتدربتْ على موسيقاها، مُعَدٌّ ليقذف اليأس في قلب أيّ مربية، فهي تؤدي مهماتها على قصرها وسهولتها -إن أدتها أصلاً- تأديةً مُلَهْوَجة في أيّ وقتٍ وبأيّ طريقة، لكنّها أدَّتها عموماً في أقلّ الأوقات ملاءمة، وبأقل طريقة تعود عليها بالنفع وعليّ بالرضا. إن نصف ساعة التدريب القصيرة عبارة عن مداعبة أوتار مرتجلة فظيعة، وهي في أثناء ذلك تعنّفني تعنيفاً قاسياً، إمّا لمقاطعتها بالتصحيحات، وإما لعدم تصحيحي لأخطائها قبل أن ترتكبها، أو لشيء آخر باللامنطقية ذاتها. جرؤتُ مرة أو مرتين على أن أحتجّ احتجاجاً جدياً على تصرّفها اللاعقلاني، لكنني تلقيتُ، في كلتا المرتين، مجادلات توبيخية من أمها لإقناعي بأني إن رغبتُ في الحفاظ على الوظيفة فعليّ أن أتنازل إلى حدِّ أن أدع الآنسة ماتلدا تفعل ما يحلو لها. لكن مزاجها السيئ عموماً ينتهي حين تنتهي دروسها أيضاً؛ إذ تمتطي مُهرها النشيط مبتهجة كقبّرة، أو تلهو لهواً صاخباً مع الكلاب أو أخويها وأختها، ولاسيما أخيها العزيز جون.

لا بأس بماتلدا بذاتها الحيوانيَّة، فهي مليئةٌ بالحياة والحماسة والنشاط. أما بذاتها العاقلة فهي جاهلة جهلاً همجيّاً وصعبة المراس ومهملة ولا عقلانية، ما يجعلها مزعجة جداً لمن عهد إليها مهمة تنمية ذكائها وتهذيب سلوكها ومساعدتها لاكتساب تلك المحرزات الزخرفية التي، على عكس أختها، مقتَتْها مقتاً بقية المحرزات. أما أمها المدركة جزئياً لنقائصها فألقت عليّ محاضرات عديدة حول الكيفية التي ينبغي لي أن أحاول تشكيل ميولها بها وإيقاظ وتقدير زهوها الكامن، وأن أحول انتباهها للغايات المنشودة بالتملق والإطراء الماهر -وهو ما لن أفعله- وكيف علي أن أهيِّئ وأمهِّد طريق التعلم لتمشي عليه من دون أن تبذل أدنى جهد -وهو ما لا أستطيع فعله- لأنه ما من شيء يمكن أن يُعَلَّم لأي غاية من دون أن يبذل المتعلم بعض الجهد.

ماتلدا أخلاقياً طائشة، وعنيدة، وعنيفة، وعصيّة على المنطق، وأحد الدلائل على حالة عقلها المزرية هو تعلّمها الشتم مثل شرطي خيّال اقتداءً بأبيها. صُدمت أمها جداً من «عادتها اللاأنثوية»، وتساءلت: «كيف تعلمتها؟»، قالت: «لكن بوسعكِ قريباً أن تخلصيها منها يا آنسة غري؛ إنها مجرد عادة، وإن نبهتِها فحسب تنبيهاً لطيفاً في كلّ مرة تفعلها فمؤكدٌ لدي أنّها ستكفّ عنها سريعاً». لم «أنبّهَها تنبيهاً لطيفاً» فقط، بل حاولتُ أن أخلّف في ذهنها انطباعاً عن شدة سوئه وإزعاجه لآذان غيرها من الناس المحترمين، لكن كان كلّ ذلك بلا طائل، فلم تردّ عليّ إلا بضحكة لا مبالية و«أوه، يا آنسة غري، ما أشدّ صدمتكِ! أنا سعيدة جداً!»، أو «لا يسعني منع نفسي. لم يجدر ببابا تعليمي، تعلّمتها كلّها منه، وربما قليلاً من الحوذي».

كان أخوها جون، المعروف أيضاً بالسيد مري، في نحو الحادية عشرة من عمره، حين قدمتُ، فتى صالح، سمين، نشِط، صريح، لطيف في المجمل، مُقدَّرٌ له أن يصبح فتى محترماً لو عُلِّم تعليماً سليماً، لكنه الآن هائج كدُبّ صغير، صَخَّاب، صعب المراس، مجرد من المبادئ، جاهل، غير قابل للتعليم، في الأقل عند مربية تحت نظر أمه. قد يتدبر مُعلِّموه أمره في المدرسة تدبّراً أفضل؛ لأنه أرسل إلى المدرسة، ما أراحني راحة عظيمة، في غضون سنة في حالة جهلٍ مخزٍ حقاً باللغة اللاتينية، إضافةً إلى جهله بالعلوم الأنفع، وإن كانت غالباً ما تُهمَل، وسيعزا ذلك -لا شك- إلى كون تعليمه قد عُهد به إلى معلمة جاهلة جرؤت على أداء ما هي غير مؤهّلة تأهيلاً كاملاً لتأديته، ولم أُعتق من أخيه إلا بعدها باثني عشر شهراً كاملاً حين أُرسل بحالة الجهل الشائنة ذاتها مثل الأول.

السيد تشارلز حبيب أمه المُدلل، أصغر من جون بما يزيد على السنة قليلاً، لكنّه أكثر ضآلة بكثير، وأشد شحوباً، وأقل نشاطاً وقوة، فتى صغير غضوب، جبان، نزوي، أناني، نشيط فقط في التسبب بالأذى، ماهر فقط في تلفيق

الأكاذيب، لا لإخفاء غلطاته فحسب، بل لمحض عبث خبيث لاستجلاب بغض الآخرين. في الواقع، السيد تشارلز، إزعاج كبير جداً لي، فالعيش معه بسلام امتحان صبر، والاعتناء به أسوأ، وتعليمه أو التظاهر بتعليمه أمر لا يُتصور. عجز في العاشرة من عمره عن قراءة أسهل سطر في أسهل كتاب قراءة صحيحة، ولما كان ينبغي أن تنطق له كلّ كلمة، امتثالاً لأمر أمه، قبل أن يتسنّى له الوقت ليتردد أو يعاين رسم كلماتها، وألا يذكر له إطلاقاً، حتى تحفيزاً لجهده، أن الفتية الآخرين أكثر تقدماً منه، فليس من المفاجئ أنه لم يحرز إلا تقدماً يسيراً خلال السنتين اللتين كنتُ فيهما مسؤولة عن تعليمه. تُكرَّر عليه حصصه القليلة جدّاً من قواعد اللغة اللاتينية... وما شابه، حتى يقرّر أن يقول إنّه يعرفها، ثم يُساعَد ليقولها. وإن اقترف أخطاء في مسائله الحسابية اليسيرة الصغيرة في علم الحساب فيجب أن تُبَيَّن له فوراً، وأن تؤدّى المسألة الحسابية له بدل أن يُترك ليستعمل قدراته في اكتشافها بنفسه إلى حدّ أنه، بطبيعة الحال، لم يحاول قط أن يتجنب الأخطاء، بل كثيراً ما كتب أرقامه عشوائياً، من دون أيّ حساب إطلاقاً.

لم أقيد نفسي دائماً بهذه القوانين، فذلك مخالفٌ لضميري، لكنّي نادراً ما قدرتُ على أن أجرؤ على الانحراف عنها ولو قليلاً من دون أن أعرّض نفسي لسخط طالبي، وبذلك سخط أمه التي روى لها تجاوزاتي بمبالغة خبيثة أو موشَّاة بزخارف من صنعه، وأوشكتُ غالباً، نتيجة لذلك، على خسارة وظيفتي أو الاستقالة منها. لكن، لأجل من في الديار، كبحتُ كبريائي وكظمتُ سخطي، وتمكنتُ من أن أكافح إلى أن أرسل معذبي الصغير إلى المدرسة، وأكد والده قائلاً إن التعليم المنزلي: «مستحيل، لأنه ميسَّر له بسبب تدليل أمه المفرط وعجز مربيته عن فهمه».

ملاحظاتٌ أخرى قليلة عن هورتن لودج وتطوراتها وسأنتهي من الوصف الممل في الوقت الحالي. البيتُ كبير جداً، أعرقُ من بيت السيد بلومفيلد وأكبر حجماً وفخامةً على حد سواء، ولم تعرض الحديقة عرضاً يدل على حسن الذوق، لكن بدلاً من المرجة المجزوزة جزَّاً أملس والأشجار الصغيرة المحروسة بالسياجات وأيكات شجر الحور التي نبتت حديثاً وزروع التنوب، فيها ميدان واسع يعج بالأيائل تجمله أشجار قديمة رائعة. الريف المجاور بذاته جذاب بقدر ما استطاعت أن تجعله كذلك الحقولُ الخصيبة والأشجارُ المزدهرة والمجازات الخضراء الهادئة وسياجات الشجيرات الخفيضة المبتسمة بزهرات برية منثورة على طول ضفافها، لكنَّ من وُلدت ونشأت بين تلال *** الوعرة، عدَّته مُمِلّاً مللاً مُكْئِباً.

كنا على بعد ما يقرب من ميلين من كنيسة القرية، لذلك تُجهّز مركبة العائلة بعد الطلب صباح كلّ أحد، وأحياناً أكثر. رأى السيد والسيدة مري أنه يكفيهما على نحو عام أن يرتادا الكنيسة مرةً في اليوم، لكن كثيراً ما فضَّل الأطفال الذهاب مرة ثانية للتجوّل حول الأراضي طوال اليوم من دون عمل شيء. استحسنتُ رغبة بعض طلابي في المشي وأخذي معهم؛ لأنّ وضعيتي في المركبة، من ناحية أخرى، هي أن أحشر في الزاوية الأبعد عن النافذة المفتوحة وظهري مقابل للأحصنة، وهي وضعية أشعرتني دائماً بالغثيان، وأنا -وإن لم أجبر فعلياً على مغادرة الكنيسة في منتصف الصلاة العامة- صلواتي يقاطعها شعورٌ بالوهن والتوعك والخوف المُعَذِّب من تفاقم ذلك، فقد أضحى الصداع المُكئِب على نحوٍ عام رفيقي طوال اليوم، اليوم الذي من المفترض أن يكون، في أحوال أخرى، يوم راحة مرحّبٍ بها، ومتعة هادئة مقدسة.

علقت آنسة ماتلدا قائلة: «يا آنسة غري، إن شعوركِ الدائم بالغثيان في المركبة لغريب، فأنا لا أشعر بالغثيان فيها أبداً».

قالت أختها: «ولا أنا أيضاً، لكن بوسعي أن أقول إني كنتُ لأشعر بالغثيان لو قعدتُ حيث تقعد؛ إنه لموضع مقرف ومقيت يا آنسة غري، أتعجّب كيف باستطاعتكِ تحمله!».

كان بوسعي أن أجيب قائلة: «أنا مجبورة على تحمّله لأني لا أملك خياراً»، لكنّي أجبتُ مراعاة لمشاعرهما فحسب قائلة: «ما هي إلا طريق قصيرة، ولا أمانع ذلك ما دمتُ لا أشعر بالغثيان في الكنيسة».

إن طُلب مني أن أصف تقسيمات اليوم وترتيباته المعتادة، فسيشقّ ذلك عليّ. تناولتُ كلّ وجباتي في حجرة الدرس مع طلابي بحسب الوقت الذي ناسب هواهم، فهم يرنون أحياناً إلى طلب وجبة الغداء قبل أن تكون نصف مطبوخة، ويذرونها أحياناً تنتظر على الطاولة لما فوق الساعة، ثمّ تسوء أمزجتهم لأنّ البطاطا باردة ومرق اللحم مغطى بكتل شحم صلبة، ويتناولون أحياناً الشاي الساعة الرابعة، وما أكثر ما ثاروا على الخدم؛ لأنه لم يُجلب بالضبط في الساعة الخامسة، وحين تُطاع تلك الأوامر تشجيعاً على الالتزام بالمواعيد، يتركونها على الطاولة حتى السابعة أو الثامنة.

رُتبت ساعات دراستهم بالطريقة ذاتها تقريباً؛ لم تُراعَ راحتي أو رأيي قط. اعتزمت ماتلدا وجون في بعض الأوقات: «أن ينهيا كلّ الأعمال المزعجة قبل الفطور». ويرسلا الخادم لاستدعائي في الخامسة والنصف من دون أيّ تحرج أو اعتذار، ويُقال لي في بعض الأوقات أن أتجهّز في السادسة بالضبط، فأنزل، بعد أن لبستُ على عجل، إلى حجرة خاوية، وبعد انتظاري وقتاً طويلاً في

ترقب قلق، أكتشف أنهم غيروا رأيهم وما زالوا في أسرّتهم، أو من الجائز إن كان صباحاً صيفياً صافياً أن تأتي براون لتخبرني أنَّ الآنستين والسيدين الصِّغار أخذوا عطلة وذهبوا خارجاً، ثم أترَك لأنتظر الفطور حتى يكاد يُغمَى عليّ، فهم قد تزوّدوا بزادٍ قبل مغادرتهم.

غالباً، أدوا دروسهم في الهواء الطلق، وهو أمرٌ لا اعتراض عندي عليه إطلاقاً، باستثناء أني كثيراً ما أُصاب بالزكام جراء جلوسي على العشب الرطب، أو التعرّض لندى المساء، أو بعض تيار هوائي خبيث، أمور بدا أنه ليس لها تأثير مؤذٍ فيهم. لهم الحق في أن يكونوا شديدي القدرة على التحمل، لكن، بطبيعة الحال، ينبغي أن يُعلَّموا مراعاة من هم أقلّ قدرة منهم على ذلك. لكن لا ينبغي لي لومهم، فما حدث في الأرجح خطئي؛ لأني لم أبدِ قطّ أيّ اعتراضات محددة على الجلوس حيث رغبوا الجلوس، مختارة بحمق أن أخاطر بالعواقب بدلاً من أن أزعجهم براحتي. الطريقة غير اللائقة التي أدّوا بها دروسهم استثنائية قدرَ استثنائية نزوتهم البادية في اختيارهم الزمان والمكان. حين يتلقّون تعليماتي، أو يردّدون ما تعلموه، يتكاسلون على الأريكة، أو يستلقون على السجاد، أو يمطون أذرعهم، أو يتثاءبون، أو يتحدثون بعضهم مع بعض، أو ينظرون إلى خارج النافذة، في حين لا يسعني حتى أن أحرك النار، أو ألتقط المنديل الذي أوقعته، من دون أن يوبخني طالب من طلابي على غفلتي، أو يُقال لي: «لن يروق لماما أن أكون مهملة جدّاً».

عدل الخدم من سلوكهم بعد أن أبصروا ضآلة الاحترام الذي أضمره كلّ من الأبوين والأطفال للمربية ليتطابق مع المعيار ذاته. دائماً دافعتُ عنهم، مخاطرةً بأن يصيبني شيءٌ من الأذى، في وجه طغيان وظلم سيِّديهم وآنستيهم الصغار، وسعيتُ دائماً إلى أن أسبّب لهم أقلّ قدر ممكن من المتاعب، لكنّهم أهملوا راحتي تماماً، استخفّوا بطلباتي، وتجاهلوا تعليماتي. أنا مقتنعة بأنَّه ما كان لكلّ الخدم أن ينهجوا ذلك النهج، لكن لأنّ عموم الخدم جهلةٌ وغير معتادين على التفكير والتأمل، يسهل إفسادهم بالإهمال والمثال السيّئ الذي يضربه من هم فوقهم، وأعتقد أنّ من هم فوقهم ليسوا بخيرِ صنفٍ من الناس أساساً. شعرتُ بالخزي من الحياة التي أعيشها في بعض الأوقات، وبالعار من الخضوع للعديد من المعاملات المهينة، وشعرتُ بأني حمقاء لاهتمامي بذلك أكثر ممّا ينبغي في بعض الأوقات، وخشيتُ أنّي قد أكون مفتقرة افتقاراً محزناً للتواضع المسيحي، أو المحبّة التي: «تَصْبِرُ كَثِيراً؛ وَهِيَ لَطِيفَةٌ، لا تَسْعَى إِلى مَصْلَحَتِها، لا تُسْتَفَزُّ بِسُهُولَةٍ غَاضَّةً الطَّرْفَ، تَتَحَمَّلُ كُلَّ شَيْءٍ».

لكن أخذت الأوضاع مع الوقت والصبر تتحسّن قليلاً، صحيح أنّه تحسّنٌ بطيء ولا يكاد يُلحظ، لكني تخلصتُ من طالبَي (وما تلك بالميزة الهينة)،

وأصبحتِ الفتاتان، كما لمَّحتُ قبلاً عن إحداهما، أقلّ تغطرساً، وشرعتا تظهران بعض أمارات التقدير؛ «كانت الآنسة غري كائناً غريباً. لم تُطرِ أحداً تملّقاً قط، ولم تمدحهم حتى نصف ما ينبغي لها من المدح، لكن متى تحدثت حديثاً حسناً عنهم أو عن أيّ شيء يتعلّق بهم، فبوسعهم التيقن من أن استحسانها صادق. إنها محبة للمساعدة جداً، هادئة، مسالمة في العموم، إلا أنّ بعض الأمور تثير إزعاجها، لكنّهم، بالتأكيد، لم يأبهوا لذلك كثيراً، لكن ما زال من الأفضل إبقاؤها راضية. أمّا حين يطيب مزاجها فتتحدث معهم وتغدو أنيسة جداً ومسلية أحياناً بطريقتها المختلفة جداً عن طريقة ماما، لكنّها، مع ذلك، جيدة جداً من باب التغيير. لها آراؤها الخاصة حول كلّ موضوع، وتظلّ ثابتة عليها، وهي، في الغالب، آراء مملة جداً؛ لأنها دائماً تفكّر في ما هو صائب وما هو خاطئ، وعندها توقير عجيب للمسائل المتعلقة بالدين، وحُبٌّ للخَيِّرين يتعذَّرُ تفسيره».

8

الظهور للمجتمع

ستظهر الآنسة مري للعيان في سنّ الثامنة عشرة من هدوء عتمة حجرة الدرس إلى الألق الكامل للعالم الأنيق، أو في الأقل لما أمكن جلبه من خارج لندن، لتعذَّر إقناع أبيها بترك ملذاته وهواياته الريفية حتى لإقامة بضع أسابيع في البلدة. ستظهر في الثالث من كانون الثاني/يناير في حفلة راقصة فخمة اقترحت أمّها إقامتها لكلّ الطبقة النبيلة وصفوة الطبقة العليا من أو*** والمناطق التي تجاورها بعشرين ميلاً، وتطلعتْ إليها، بطبيعة الحال، بأقصى نفاد صبر وأشد التوقعات السارَّة إسرافاً.

قالت ذات مساء، قبل شهر من اليوم الفائق الأهمية، وأنا أقرأ رسالة طويلة ومثيرة للاهتمام جداً من رسالات أختي، رسالة ألقيتُ فحسب نظرة عجلى عليها في الصباح لأكتشف أنها لم تحتوِ على أخبار في منتهى السوء، وأجّلتُها إلى الآن؛ لأني لم أستطع أن أجد لحظة هادئة لقراءتها سابقاً: «يا آنسة غري، ضعي جانباً تلك الرسالة المملة والغبية وأصغي إلي! من المؤكد أن حديثي مسلٍّ أكثر منها بكثير». قعدتْ على الكرسي القصير عندي، وأخذتُ أطوي الرسالة كابحة تنهيدة انزعاج.

قالت: «عليكِ إخبار أناسكِ الطيبين في الديار ألا يضجروكِ برسائل طويلة كهذه، واطلبي منهم، فضلاً عن ذلك، أن يكتبوا على ورق رسائل ملائم لا على أوراق سوقيَّة كبيرة. عليكِ أن تَرَيْ أوراق المذكرات الصغيرة الأنثوية الساحرة التي تكتب عليها أمي لصديقاتها».

أجبتُ قائلة: «يعرف الناس الطيبون في الديار تمام المعرفة أنه كلما طالت رسائلهم زاد حبّي لها. سأحزن حزناً شديداً إن تسلّمتُ رسالة قصيرة أنثوية ساحرة من أيٍّ منهم، ثم إنّي خلتكِ يا آنسة مري أشد أنثوية من أن تتحدثي عن «السوقيَّة» في الكتابة على أوراق كبيرة».

«قلتُ ذلك لأضايقكِ فحسب، لكن الآن أريد التحدث عن الحفلة الراقصة، وأن أخبركِ أن عليكِ يقيناً تأجيل عطلتكِ حتى انتهائها».

«لماذا؟ لن أكون حاضرة فيها».

«صحيح، لكنّكِ سترين الحجرة تُزَيَّن قبل أن تبدأ، وتسمعين الموسيقا، وعلاوة على ذلك ستريننى مرتدية فستاني الباهر، سأغدو فاتنة جدّاً حتى إنكِ ستستعدين لتبجيلي. عليكِ حقاً أن تبقي».

«أودُّ رؤيتكِ بشدة، لكن ستتسنى لي العديد من الفرص لأراكِ فيها فاتنة بالقدر ذاته في إحدى الحفلات وما يعقبها من الحفلات الراقصة التي لا تُحصى، وليس لي أن أخيّب آمال أصدقائي بتأجيل عودتي وقتاً طويلاً».

«دعكِ من أصدقائكِ! أخبريهم أنّنا لن نسمح لكِ بالذهاب».

«لكن، لأصدقكِ القول، سيخيب ذلك أملي أنا. أتوق إلى رؤيتهم قدرَ ما يتوقون إلى رؤيتي أو ربما أكثر».

«لكنّها مدة قصيرة جدّاً».

«أسبوعان تقريباً وفقاً لحساباتي، ولا أستطيع فضلاً عن ذلك تحمّل فكرة عيد ميلاد أقضيه بعيداً عن الديار، وعلاوة على ذلك، إن أختي ستتزوج».

«حقّاً، متى؟».

«ليس حتى الشهر القادم. لكن، أريد أن أكون هناك لأساعدها في القيام بالتحضيرات، ولأتمتّع برفقتها ما دامت معنا».

«لمَ لمْ تخبريني قبلاً؟».

«عرفتُ الأخبار فقط من هذه الرسالة التي وصمتِها بأنّها مملّة وغبية، ولم تسمحي لي بقراءتها».

«بمن ستتزوج؟».

«بالسيد رتشاردسن، قس أبرشية مجاورة».

«أغنيٌّ هو؟».

«لا. ذو دخل كافٍ فحسب».

«أوسيمٌ هو؟».

«لا. مقبول فحسب».

«شاب؟».

«لا. متوسط السن فحسب».

«الرحمة! يا له من بائس! أيّ نوع من البيوت هو بيته؟».

«مقرُّ قس صغير هادئ، ذو مدخل مسقوفٍ مكسوٍّ باللبلاب، وحديقة عتيقة الطراز، و...».

«حسبكِ! ستصيبينني بالغثيان. أنَّى لها تحمُّل ذلك؟».

«لا أحسبها فقط قادرة على تحمّل ذلك، بل أحسبها ستسعد بذلك سعادة غامرة. لم تسأليني ما إذا كان السيد رتشاردسن رجلاً صالحاً، أو حكيماً، أو ودوداً. ولو سألت لأجبتكِ بنعم عن كلّ تلك الأسئلة. هذا في الأقل ما تعتقده ماري، وآمل أنها لم تجانب الصواب في ذلك».

«لكن، يا للمخلوقة التعيسة! كيف عساها تفكّر في قضاء حياتها هناك، محبوسة مع ذلك العجوز المقرف دون أمل بالتغيير؟».

«ليس عجوزاً، بل في السادسة أو السابعة والثلاثين فحسب، وهي نفسها في الثامنة والعشرين ورزينة رزانة من هي في الخمسين».

«هذا أفضل، إذاً، إنهما ثنائي ملائم، لكن هل ينادونه «بالقس الكفء»؟».

«لا أعرف، لكن إن نادوه بذلك أرى أنه يستحق الصفة».

«الرحمة! يا له من أمر صادم! وهل سترتدي مئزراً أبيض وتعدّ الفطائر والحلوى؟».

«لا أعرف بشأن المئزر الأبيض، لكن بوسعي القول إنّها ستعد الفطائر والحلوى بين الفينة والأخرى، لكن ذلك لن يصعب عليها جداً، فقد أعدتها قبلاً».

«وهل ستتنقل مرتديةً شالاً غير مزخرف، وقلنسوة قشّ كبيرة، حاملةً كراسات دعائية دينية وحساء العظم لمرتادي أبرشية زوجِها الفقراء؟».

«لستُ متأكدة من ذلك، لكن بوسعي القول إنّها ستبذل جهدها لتريح أجسادهم وعقولهم، حاذيةً حذو أمّنا».

9

الحفلة الراقصة

هتفت الآنسة مري قائلةً، مباشرةً بعد دخولي حجرةَ الدرس، بعد أن خلعتُ ثيابَ الخارج إثر عودتي من أسابيع استجمامي الأربعة: «يا آنسة غري، أغلقي الباب، واجلسي، وسأخبركِ كلّ شيء عن الحفلة الراقصة».

صاحت الآنسة ماتلدا قائلة: «لا. اللعنة. لا! أمسكي لسانكِ، هلَّا فعلتِ؟ ودعيني أخبرها كلّ شيء عن فرسي الجديدة، إنّها رائعة يا آنسة غري! فرس من سلالة أصيلة...».

«اصمتي يا ماتلدا، ودعيني أقل أخباري أولاً».

«لا. لا. روزالي. ستستغرقين وقتاً طويلاً لعيناً. يجب أن تسمعني أولاً. ويحي إن لم تفعل!».

«يؤسفني يا آنسة ماتلدا أن أسمع أنكِ لم تتخلصي من عادتكِ الصادمة هذه بعد».

«الأمر ليس بيدي، لكني لن أتلفظ بكلمة أثيمة مجدداً إن استمعتِ إليّ فحسب، وأخبرتِ روزالي أن تمسك لسانها البغيض».

احتجَّت روزالي، واعتقدتُ أني سأتمزّق إلى قطع بينهما، لكن لأن صوت الآنسة ماتلدا أعلى استسلمتْ أختها أخيراً، وسمحتْ لها بإخبار قصتها أولاً، لذا تحتّم عليّ سماع سرد طويل عن فرسها الممتازة؛ استيلادها، أصلها، خببها، معاركها، حيويتها... إلخ، وعن موهبتها المذهلة وبسالتها في امتطائها، خاتمةً كلامها بتأكيد أنّها قادرة على أن تثب «كطرفة عين» فوق مدخل بخمسة قضبان دون أن تمسّه، حتى إنّ بابا قال إنّ بوسعها أن تصطاد في المرة القادمة في ملتقى كلاب الصيد، وأمرتْ ماما أن يُخاط لها رداءُ صيد قرمزيٌّ زاهٍ.

هتفت أختها قائلة: «يا ماتلدا، بالله عليكِ! ما هذه الأكاذيب التي تقصّينها!».

أجابت، بلا أدنى خجل، قائلة: «أعرف أنّي قادرةٌ على الوثب فوق مدخل بخمسة قضبان إن حاولتُ، وبابا سيقول إنَّ بوسعي أن أصطاد، وماما ستأمر

بخياطة الرداء حين أطلبه».

ردت الآنسة مري قائلة: «والآن اخرسي، وحاولي يا ماتلدا العزيزة أن تكوني أكثر أنثوية. يا آنسة غري، آمل أن تخبريها ألا تتلفظ بكلماتٍ صادمة كهذه. إنها تسمّي حصانها فرساً. إن هذا صادم جداً على نحو لا يُتصور! ثم تستخدم تعبيرات مروعة لوصفه. لا بد أنها تعلمت ذلك من سائسي الخيل. تصيبني نوبات انفعال تقريباً حين تشرع في ذلك».

قالت الآنسة الصغيرة: «بل تعلّمتُها من بابا وأصدقائه المرحين أيتها الغبية!»، مصدرةً صوتاً عنيفاً بسوط صيدٍ اعتادت حمله بيدها: «خبرتي في الخيل مثل خبرة أفضلهم».

«الآن اخرسي، أيتها الفتاة المثيرة للاشمئزاز! سأصاب حقاً بنوبة انفعال إن واصلتِ على هذا المنوال. والآن، يا آنسة غري، أصغي إلي، سأخبركِ عن الحفلة الراقصة. لا شكَّ في أنكِ تتحرّقين شوقاً لتسمعي عنها، أعرف. يا لها من حفلة راقصة! لم ترَي، أو تسمعي، أو تقرئي، أو تحلمي بأيّ شيء مثلها طوال حياتكِ. التزيين، المتعة، العشاء، الموسيقا لا توصف! ثم الضيوف! حضرها نبيلان، وثلاث بارونيتات، وخمس سيدات ذوات ألقاب نبيلة، وسادة وسيدات أخر لا يُحصون لكثرتهم. ما كان للسيدات من أهمية عندي، بطبيعة الحال، إلا بتحسينهنّ مزاجي برؤيتي معظمهنّ وهنّ يثبتنَ لي شدّة قبحهنّ وخرقهنّ، وقالت ماما إنّ أفضل وأجمل الحسناوات بينهنّ لسن بشيء مقابلةً بي. أمّا أنا يا آنسة غري فحزينةٌ جدّاً لأنكِ لم تريني! كنتُ فاتنة! ألم أكن كذلك يا ماتلدا؟».

«عادية».

«لكنّي كنتُ كذلك حقاً، في الأقل هذا ما قالته ماما وبراون ووليامسن. قالت براون من المؤكد أنّه ليس بوسع أيّ سيد موقَّر أن يبصرني من دون أن يقع في الحُبّ في الدقيقة ذاتها؛ لذا يُسمح لي بأن أزهو قليلاً. أعرف أنكِ تحسبينني فتاة فظيعة، مغرورة، عابثة، لكنّي لا أعزو كلّ ذلك إلى مفاتني الشخصية، بل أمنح بعض المدح لمصفّفة الشعر، والقليل منه لفستاني الجميل جمالاً أنيقاً -عليكِ أن تريه غداً- الشاش الأبيض فوق الساتان الوردي خيط خياطةً بارعة! والقلادة والسوار المرصعين بلآلئ جميلة كبيرة!».

«ليس عندي شك في أنّكِ بدوتِ فاتنةً جداً، لكن هل يجب أن يسرّكِ ذلك سروراً شديداً إلى هذا الحد؟».

«أوه، لا! ليس ذلك فحسب، فقد كنتُ محطّ الإعجاب الشديد، وحققتُ انتصارات غرامية عديدة في تلك الليلة الواحدة، ستذهلين لسماع...».

«لكن، بماذا سينفعونكِ؟».

«بماذا سينفعوني! أنّى لامرأةٍ أن تسأل سؤالاً كهذا!».

«أعتقد أن انتصاراً غراميّاً واحداً كافٍ، بل أكثر من اللازم، إلا إن كان الإخضاع متبادلاً».

«لكن، تعرفين أنّي لا أتفق معكِ أبداً في هذه الموضوعات. الآن، انتظري لحظة، وسأخبركِ عن معجبيَّ الأساسيين؛ أولئك الذين جعلوا أنفسهم واضحين جداً في تلك الليلة وبعدها؛ لأني ارتدتُ حفلتين منذ ذلك. يا للأسف، النبيلان اللورد ج. واللورد ف. متزوّجان، أو لكنتُ تنازلتُ بأن أتكيّس تكيساً خاصّاً لهما. أمّا والوضع كذلك فلم أفعل، مع أن اللورد ف. الذي يكره زوجه هائمٌ بي جداً هياماً جليّاً. سألني الرقص معه مرتين. إنه راقص ساحر. وعلى ذكر ذلك أنا كذلك أيضاً. لا يسعكِ أن تتصوري كيف رقصتُ ببراعة، ذُهلتُ من نفسي. أطراني لوردي إطراءً كثيراً أيضاً، في الأصح أكثر من اللازم في الواقع، ورأيتُ أن من اللائق أن أكون متغطرسة ومنفرة قليلاً، لكن سنحت لي لذّة رؤية زوجه المقرفة والنزقة وهي على وشك أن تموت غيظاً وانزعاجاً...».

«يا آنسة مري! لا تقصدين القول إن أمراً كهذا بوسعه أن يمنحكِ اللذة حقّاً؟ حتى إن كانت نزقة أو...».

«أعلم أن ذلك سيئ جداً، لكن لا عليكِ! أنوي أن أغدو صالحة في المستقبل، فقط لا تعِظي الآن؛ أحسنتِ أيتها المخلوقة الطيبة. لم أخبركِ النصف بعد، دعيني أتذكر، أوه! كنتُ على وشك إخباركِ كم معجباً جليّاً عندي: أحدهم السيد توماس آشبي. أما السيد هيو ميلثام والسيد برودلي ويلسن فعجوزان غريبا الأطوار ومرافقان يناسبان بابا وماما فحسب. السيد توماس يافع، غني، مرح، لكنّه، رغم ذلك، قبيح منفر، لكن ماما تقول إني لن أهتم لذلك بعد بضعة شهور من معرفته، ثم هنري ميلثام، ابن السيد هيو الأصغر، وسيم إلى حدٍّ ما، ورجل مغازلته ممتعة، لكن، لأنّه الابن الأصغر فهذا كلّ ما يصلح له، ثم السيد غرين اليافع، ثريّ كفاية، لكنه ليس من نسبٍ كريم، رجل غبي جداً، ومغفل ريفي محض! ثمّ قسيسنا الطيب السيد هاتفيلد، الذي يرى نفسه معجباً متواضعاً، لكني أخشى أنه نسي أن يعدّ التواضع ضمن مخزون فضائله المسيحية».

«هل حضر السيد هاتفيلد الحفلة الراقصة؟».

«نعم، بالتأكيد. حسبتِ أنه أجلّ مقاماً من أن يحضر؟».

«اعتقدتُ أنه سيعدُّها غير ملائمة لقس».

«إطلاقاً، لم يدنّس ثوبه الكهنوتي بالرقص، لكنه أحجم عن ذلك بشقّ الأنفس، يا للرجل المسكين. بدا أنه يحتضر لطلب يدي لدورة رقص واحدة، وأوه! على ذكر ذلك، أصبح له خوري جديدٌ، فقد رحل ذلك العجوز رث الملبس السيد بلاي أخيراً بعد حصوله على رزقه الذي تمنّاه لوقتٍ طويل».

«وكيف هو المساعد الجديد؟».

«إنَّه منفّرٌ أيّما تنفير! اسمه وستن، بوسعي وصفه لكِ بثلاث كلمات: مغفلٌ متبلدٌ، قبيحٌ، غبي؛ هذه أربع كلمات، لكن هذا لا يهم، كفانا منه الآن».

ثم عادت للتحدث عن الحفلة الراقصة، وقصت عليّ قصَّاً إضافياً سلوكها فيها وفي الحفلات العديدة التي ارتادتها منذ ذلك الحين، وتفاصيل إضافية عن السيد توماس آشبي والسادة ميلثام وغرين وهاتفيلد وانطباعاتها التي لا تمحى عنهم.

قلتُ كابحة تثاؤبي الثالث أو الرابع: «أيُّ الأربعة فضَّلتِ؟».

أجابت قائلةً، هازّة عقصات شعرها الزاهية تعبيراً عن ازدراء مفعم بالحيوية: «أمقتهم جميعاً!».

«أعتقد أن هذا يعني «كلهم يعجبونني»، لكن أيّهم يعجبكِ أكثر؟».

«لا. أنا حقاً أمقتهم جميعاً، لكن هاري ميلثام أوسمهم وأشدّهم تسلية، والسيد هاتفيلد أذكاهم، والسيد توماس أشرّهم، والسيد غرين أغباهم، لكنّي أعتقد أنَّ من سأختاره -إن قُدِّر عليّ اختيار أحدهم- هو السيد توماس آشبي».

«يقيناً لن تختاريه لشدّة شرِّه وكرهكِ له، أليس كذلك؟».

«لا أمانع شرّه، فهذا يزيده حسناً، أما كرهي له فلن أعترض اعتراضاً شديداً على أن أكون السيدة آشبي من آشبي بارك إن وجب عليّ الزواج، لكن إن استطعتُ أن أظل يافعةً دائماً، فسأظل عزباء دائماً. أريد أن أمتع نفسي متعة كاملة، وأتغنج مع العالم كله حتى أوشك أن أُدعى بالبكر المُسنَّة، ثم لكي أهرب من الخزي الذي سيلحقه ذلك بي، بعد أن انتصرتُ عشرة آلاف انتصار غرامي، سأكسر كلّ قلوبهم خلا قلب واحد، بزواجي كريمَ محتدٍ، غنيّ، متساهل، تتحرقُ تمنياً، من ناحية أخرى، خمسون آنسة للزواج منه».

«ما دمتِ تفكرين بهذه الأفكار؛ ظلّي عزباء بأي ثمن، ولا تتزوجي أبداً، ولا حتى لتهربي من خزي البكارة المُسنَّة».

10

الكنيسة

سألتِ الآنسة مري قائلةً، بعد عودتنا من الكنيسة في الأحد الذي تلا استهلالنا لواجباتنا: «إذاً، يا آنسة غري، ما رأيكِ بالخوري الجديد؟».

كان ردي: «أكاد أستطيع تقييمه، فلم أسمعه يعظ حتى».

«لكنكِ رأيتِه، أليس كذلك؟».

«نعم. لكن ليس لي أن أجرؤ على الحكم على شخصية رجل بنظرة سريعة إلى وجهه».

«لكن أليس قبيحاً؟».

«لم أحسبه قبيحاً على وجه الخصوص، فلا أكره سيماء الرزانة تلك، لكن الشيء الوحيد الذي لاحظتُه فيه ملاحظةً خاصة هو أسلوبه في القراءة الذي عددتُه جيِّداً، أفضل بكثير، في الأقل، من أسلوب السيد هاتفيلد، فقد قرأ الفصول كمن يعتزم إضفاء تأثير كامل لكلّ مقطع، وبدا الأمر وكأن أشد امرئ لا مبالاة ليس بوسعه منع نفسه من الإصغاء، وأشد شخص جهلاً ليس بوسعه ألا يفهم، وقرأ الصلوات كمن لا يقرؤها إطلاقاً، بل كمن يصلي بجدية وإخلاص من قلبه».

«صحيح. هذا كلّ ما يصلح له. يستطيع أن يؤدي القداس أداءً بطيئاً جيداً كفاية، لكنه لا يفقه شيئاً في ما عدا ذلك».

«كيف تعرفين ذلك؟».

«أعرف ذلك معرفةً مثالية، فأنا حكمٌ ممتاز في أمور كهذه. هل رأيتِ كيف خرج من الكنيسة؟ ماشياً بتثاقل وكأنه ما من أحد هناك سواه، دون أن ينظر قط إلى يمناه أو يسراه، وجليّ أنه لا يفكر إلا في الخروج من الكنيسة، وفي الأرجح الذهاب إلى بيته لتناول غدائه، ليس لرأسه الغبي الكبير أن يشتمل على فكرة أخرى».

قلتُ، ضاحكة من شدة عدائها: «أظنّ أنكِ كنتِ تفضلين لو ألقى نظرة سريعة على مقعد السيد».

أجابت قائلة محرّكة رأسها بغطرسة: «بالتأكيد! كنتُ سأسخط سخطاً شديداً إن جرؤ على فعل أمر كذلك!»، ثم أضافت قائلة بعد لحظة تفكر: «حسناً. حسناً! أحسبه جيداً كفاية لوظيفته، لكني سعيدة لأني لا أعتمد عليه للتسلية، هذا كلّ شيء. هل رأيتِ كيف أسرع السيد هاتفيلد خارجاً ليتلقى انحناءة مني ويكون حاضراً في الوقت المناسب لإدخالنا العربة؟».

أجبتُ قائلة: «نعم»، وأضفتُ قائلة باطنيّاً: «وعددتُ ذلك فعلاً يحطُّ من وقاره الكهونتي قليلاً، أن يأتي مسرعاً من المنبر سرعة متلهفة ليصافح السيد ويساعد زوجه وبناته في ركوب العربة، وعلاوة على ذلك أكنّ له ضغينة لأنه كاد يمنعني من ركوبها»؛ لأنه، في الواقع، رغم أني كنتُ واقفة أمام وجهه بالقرب من درجات العربة منتظرة أن أدخل، أصرّ على مساعدتهنّ على الركوب وإغلاق الباب حتى أوقفه فردٌ من العائلة منادياً أنّ المربية لم تركب بعد، ثمّ رحل، من دون كلمة اعتذار، متمنياً لهم صباحاً طيباً، تاركاً الخادم لينهي المهمة.

ملحوظة: لم يتحدَّث السيد هاتفيلد إليّ قط، ولا السيد هيو أو السيدة ميلثام، ولا السيد هاري أو الآنسة ميلثام، ولا السيد غرين أو أختاه، ولا أي سيدة أو سيد تردّدوا إلى تلك الكنيسة، ولا، في الواقع، أيّ أحدٍ زار هورتن لودج.

طلبتِ الآنسة مري العربة مجدداً بعد الظهر لنفسها وأختها، قالت إنَّ الجو أبرد من أن يُمَنّعا نفسيهما في الحديقة، وهي، علاوة على ذلك، واثقة بأنّ هاري ميلثام سيكون في الكنيسة. قالت مبتسمةً بمكرٍ لصورتها الجميلة على المرآة: «لأنه أشد مرتادٍ للكنيسة يُقتدى به في هذه الآحاد الأخيرة القليلة. كنتِ لتظنّيه مسيحياً صالحاً جداً، وبوسعكِ المجيء معنا يا آنسة غري، أريدكِ أن تريه. لقد تحسّن تحسناً كبيراً منذ عودته من الخارج إلى الحد الذي لا تستطيعين تصوّره! وستتسنّى لكِ حينها، فضلاً عن ذلك، فرصة رؤية السيد وستن الجميل مجدداً وسماعه وهو يعظ».

سمعتُه يعظ، وسررتُ يقيناً بإخلاصه البروتستانتي لعقيدته، إضافة إلى سلوكه الشديد الجدية في يسره، والوضوح والقوة في أسلوبه. من المنعش جداً سماع عظة كتلك بعد أن ألفتُ لوقت طويل خطب الخوري المملة والمضجرة، وخطب الكاهن التي لا تزال أقل تثقيفاً. كان السيد هاتفيلد ليأتي وهو يسير بسرعة على الممرّ الذي بين المقاعد، أو بالأصح يجري كالزوبعة، ورداؤه الحريري النفيس يطير خلفه حافَّاً أبواب المقاعد، معتلياً المنبر مثل فاتح يصعد مركبة نصره، ثمّ يظلّ صامتاً صمتاً ذليلاً لبعض الوقت عقب هبوطه للجلوس على الوسادة المخملية بوضعٍ جسمانيٍّ يوحي برشاقةٍ مدروسة، ثم

ينطق بصلاة قصيرة، ويقرأ الصلاة الربانية بسرعة، ثم ينهض نازعاً قفازاً زاهياً بلون الخزامى ليبهج جماعة المصلين برؤية خواتمه اللامعة، ويمرر أصابعه بخفةٍ على شعره المعقص تعقيصاً حسناً، ملوحاً بمنديل كامبريي وهو يتلو مقطعاً قصيراً جداً، أو ربما مجرد عبارة من الكتاب المقدس مَطْلَعاً لخطبته، ويلقي أخيراً إنشاءً قد يُعدُّ إنشاءً جيداً، لكنه، رغم ذلك، أشد تكلفاً وتصنعاً من أن يروق لي. عُرضت المسائل عرضاً حسناً، وأُجْرِيَت المناقاشات إجراءً منطقيّاً، ورغم ذلك صعبٌ أحياناً الاستماع بهدوء طوالها من دون شيء من إبداء الاستنكار أو نفاد الصبر. موضوعاته المفضلة هي التأديب الكنسي، طقوس الكنيسة وشعائرها، الخلافة الرسولية، واجب توقير رجال الدين وطاعتهم، جُرمُ المخالفة الشنيع، الضرورة المطلقة للتقيد بكل أشكال التقى، الجراءة المستحقة للتوبيخ للأفراد الذين حاولوا التفكير بأنفسهم في مسائل الدين، أو الذين تقودهم تأويلاتهم الخاصة للكتاب المقدس، وفي بعض الأحيان (ليسعد مرتادي أبريشيته الأثرياء) ضرورة الطاعة المحترِمَة من الفقراء للأغنياء، معززاً حكمه ونصائحه طوال الخطبة باقتباسات من آباء الكنيسة الذين بدا أنه مُطلع عليهم خيراً من اطلاعه على الرسل وكاتبي الأناجيل، الذين بدا أنه يرى أهميتهم مساوية في الأقل لأهميتهم.

لكن ألقى على مسامعنا، بين الفينة والأخرى، عظة من نوع آخر، عظة قد يسميها بعضٌ عظة جيدة، لكنها كئيبة وقاسية، مصوّرةً الرب فارض مهماتٍ فظيعاً بدلاً من أب خَيِّر. رغم ذلك شعرتُ وأنا أستمع بالميل إلى الاعتقاد بأن الرجل صادق في كلّ ما قاله، لا بد من أنه غيّر آراءه، وأصبح متديناً تديناً لا ريب فيه، كئيباً وصارماً، مع ذلك لا يزال ورعاً، لكنّ أوهاماً كهذه عادة ما تتبدّد إثر الخروج من الكنيسة وسماع صوته في حديث مرح مع بعض أفراد آل ميلثام أو آل غرين، أو ربما آل مري أنفسهم، فهو يضحك في الأرجح على عظته، ويأمل أنه قد منح الأنذال شيئاً يفكرون فيه، وربما يبتهج ابتهاجاً شديداً بفكرة أنّ العجوز بيتي هولمز ستكفّ الآن عن انغماسها الآثم في غليونها الذي كان عزاءها اليومي لما يزيد على ثلاثين سنة، وأنّ جورج هيغينز سيذعر من نزهاته المسائية يوم الأحد، وسيكون ضمير توماس جاكسون قلِقاً قلَقاً موجعاً ومتزعزعاً في أمله الواثق والمؤكّد ببعث بهيج يوم القيامة.

بذلك، لم يسعني إلا أن أستنتج أن السيد هاتفيلد هو أحد أولئك الذين: «يحزمون أحمالاً ثقيلةً لا تطاق، ويضعونها على أكتاف الناس، ولكنهم لا يريدون أن يحركوها بطرف الإصبع»، ومِمَّن: «يبطلون كلمة الله بتعليمهم التقليدي الذي يتناقلونه، يُعَلِّمون تعاليم ليست إلا وصايا الناس». سعدتُ لملاحظةِ أنَّ الخوري الجديد لم يشبهه، على حد ما يمكنني رؤيته، في أيٍّ من تلك التفاصيل.

قالت الآنسة مري، ونحن جالسات في مواضعنا في العربة، بعد القداس: «إذاً، يا آنسة غري، ما رأيكِ فيه الآن؟».

أجبتُ قائلة: «لا ضير حتى الآن».

كررتْ مندهشة قائلة: «لا ضير! ما قصدكِ؟».

«أقصد أني لا أراه أسوأ ممّا عددتُه سابقاً».

«لا ترينه أسوأ! أخالفكِ الرأي بالتأكيد، على العكس تماماً! ألم يتحسّن تحسناً عظيماً؟».

أجبتُ قائلة: «أوه، بلى، كثيراً بالتأكيد»؛ لأني اكتشفتُ لتوي أنها تقصد هاري ميلثام لا السيد وستن، فقد تقدّم ذلك الرجل متلهفاً ليتحدث مع الآنستين الصغيرتين، وهو أمر سيكاد يجرؤ على فعله إن كانت أمهما حاضرة، وساعدهما أيضاً على ركوب العربة. لم يحاول منعي من ركوبها مثل السيد هاتفيلد، ولم يعرض عليّ، بطبيعة الحال، المساعدة (لم أكن لأقبلها إن فعل)، لكنّه وقف، طوال الوقت الذي ظل فيه الباب مفتوحاً مبتسماً بمكر ومثرثراً معهما، ثمّ رفع قبعته ورحل إلى مسكنه، لكنّي كدت ألاحظه. أمّا رفيقتاي فهما أشد ملاحظة له، وأخذتا تتحدثان في ما بينهما، أثناء سير العربة، لا عن وسامته، وكلماته، وأفعاله فقط، بل كل ملمح من ملامح وجهه، وكل شيء في ثوبه.

قالت الآنسة ماتلدا في ختام هذا الحديث: «لا ينبغي لكِ أن تستأثري به لنفسكِ يا روزالي، فهو يعجبني لأني أعرف أنه سيكون رفيقاً لطيفاً مرحاً لي».

ردت أختها قائلة بنبرة لا مبالاة مصطنعة: «لكِ أن تحظي به إن شئتِ يا ماتلدا».

واصلت الأخرى قائلة: «وأنا واثقة من أنه يعشقني قدرَ ما يعشقكِ، أليس كذلك يا آنسة غري؟».

«لا أعرف. لستُ ملمّة بأحاسيسه».

«لكنّه يعشقني مع ذلك».

«ماتلدتي العزيزة! لن يعشقكِ أحدٌ أبداً حتى تتخلصي من سلوكياتكِ الفظة الخرقاء».

«أوه، هراء! هاري ميلثام يحب سلوكيات كهذه، وكذلك أصدقاء بابا».

«قد تأسرين قلوبِ الشيوخ وصغار الأبناء، لكن أنا متيقنة من أنه لا أحد غيرهم سيعجب بكِ أبداً».

«لا أهتم، فأنا لا أسعى دائماً خلف المال مثلكِ ومثل ماما. إن استطاع زوجي أن يحتفظ ببضعة خيول وكلاب جيدة فسأرضى بذلك رضاً شديداً، وليذهب كلّ ما عدا ذلك للشيطان!».

«إن استخدمتِ تعبيراتٍ صادمةٍ كهذه فأنا واثقة من أنه لا سيد حقيقياً سيجرؤ أبداً على الاقتراب منكِ. حقاً، يا آنسة غري، لا ينبغي لكِ أن تسمحي لها بفعل ذلك».

«لا يسعني منعها عن ذلك بأيّ حال يا آنسة مري».

«وأنتِ مخطئة جداً يا ماتلدا في ظنكِ أن هاري ميلثام يعشقكِ، أؤكّد لكِ أنَّه لا يعشقكِ».

شرعت ماتلدا في ردٍّ غاضب، لكن رحلتنا لحسن الحظ قد انتهت، وأوقف النزاعَ فتحُ الخادم لباب العربة وإنزاله السلمات لنزولنا.

11

ساكنو الأكواخ

في عهدتي الآن طالبة واحدة منتظمة فقط، رغم أنها اهتدت إلى وسيلة تتسبّب لي بها في متاعب تساوي متاعب ثلاثة أو أربعة طلاب دائمين، أختها ما زالت تدرس دروساً في الألمانية والرسم، ونلتُ نتيجة ذلك وقتاً أطول جداً تحت تصرفي، لم أنعم به قط منذ أن أخذتُ على عاتقي عبء المربية؛ وقتاً كرَّستُه جزئيّاً لمراسلة أصدقائي، وجزئيّاً للقراءة، والدراسة، ومزاولة العزف، والغناء... إلخ، وجزئيّاً للتجول في المساحة المحيطة بالبيت أو الحقول المجاورة مع طالبتَي إن رغبتا بي، أو وحدي إن لم ترغبا بذلك.

تُمتِّع الآنستان مري نفسيهما غالباً، حين لا يكون لديهما شغل أشد ملاءمة في متناولهما، بزيارة ساكني الأكواخ الفقراء في عزبة أبيهما لتتلقيا إجلالهم الإطرائي، أو لتسمعا القصص القديمة أو أخبار القيل والقال من العجائز الثرثارات، أو ربما لتستمتعا باللذة الأنقى، وهي إسعاد الفقراء بحضورهما المبهج وهداياهما التي يهديانها أحياناً، ويمنحانها بسهولة، وتُستَقبل بشُكْران. استدعيتُ أحياناً لمرافقة إحدى الأختين أو كلتيهما في هذه الزيارات، وطُلب مني الذهاب وحدي أحياناً وفاءً لوعدٍ استسهلتا إعطاءه أكثر من أدائه لإيصال بضع تبرعات صغيرة، أو لأقرأ لمريضٍ أو لأحد على وشك المرض، تعرفتُ بذلك إلى بعضٍ من ساكني الأكواخ، وذهبتُ لزيارتهم بين الفينة والأخرى رغبةً لا اضطراراً.

فضلتُ عموماً الذهاب وحدي على الذهاب مع أيٍّ من الآنستين الصغيرتين؛ لأنهما -العتب كل العتب على تعليمهما المعيب- تصرّفتا مع الذين أدنى منهما منزلةً تصرفاً كرهتُ أن أشهده كرهاً شديداً؛ إذ لم تتخيّلا نفسيهما قط في مكانهم، ولذلك لم تراعيا مشاعرهم، ورأتاهم ضرباً من المخلوقات المختلفة جداً عنهما. شاهدتا الكائنات المسكينة في أوقات تناولهم وجباتهم، وعلقتا تعليقاتٍ غير مهذبة على طعامهم وطريقتهم في الأكل، وضحكتا على أفكارهم البسيطة وتعبيراتهم الريفية إلى أن يجرؤ أحدهم بشقّ الأنفس على الحديث. نعتتا الشيوخ والعجائز الوقورين بالعجائز الحمقى والمغفلين السخفاء وجهاً لوجه، وكل ذلك من دون أن تقصدا الإهانة. استطعتُ أن أرى أنّ الناس غالباً شعروا بالألم أو الانزعاج من تصرفاتهما تلك، لكن خوفهم من «الآنستين عاليتي المقام» منعهم من إبداء أيّ امتعاض، لكنهما لم تدركا ذلك قط، بل

ظنتا أن ساكني الأكواخ هؤلاء أغبياء ووحشيون؛ لأنهم فقراء وغير متعلمين، وما دامتا الأرفع مقاماً تتنازلان للتحدث معهم، وإعطائهم الشلنات، والشلنين ونصف الشلن، أو قطعاً من الملابس، فلهما حقّ إمتاع نفسيهما حتى على حسابهم، ولا بد على الناس من أن يبجلوهما كما لو أنهما ملاكان من نور نزلا لقضاء حاجاتهم وإضاءة دورهم المتواضعة.

حاولتُ محاولات عديدة ومتنوعة إنقاذ طالبتي من هذه الأفكار المضلّة من دون أن أجرح كبرياءهما سهل الجرح وصعب الاسترضاء، لكن بنتيجة قليلة على ما يبدو، ولا أعرف أيّ الاثنتين تستحقّ التوبيخ أكثر، فماتلدا أشد فظاظة وصخباً، لكن يُتَوَقَّع من سنِّ روزالي البالغة ومظهرها الأنثوي الخارجي تصرفات أفضل، لكنها طائشة طيشاً مستفزّاً وغير مراعية كطفل طائش في الثانية عشرة من عمره.

سرتُ في الحديقة في يوم مشمس في آخر أسبوع من شباط/فبراير مستمتعة بالترفيه الثلاثي: العزلة، والكتاب، والجو الصافي. فالآنسة ماتلدا انطلقت في ركوبها اليومي للحصان، وذهبت الآنسة مري في العربة مع أمها في زيارة صباحية ما، لكن حزَّ في خاطري أنّ علي مغادرة هذه المتع الأنانية والحديقة وظلّتها البهية المتمثلة في السماء الزرقاء الزاهية، والريح الغربية التي تحدث صوتاً في أغصانها الخالية من الأوراق، والركام الثلجي الذي ما زال باقياً في وديانها الصغيرة، لكنه يذوب سريعاً تحت الشمس، والأيل الرشيق الذي يرعى عشبها الندي المكتسي حقّاً بانتعاش الربيع وخضرته، والذهاب إلى كوخ من تدعى نانسي براون، أرملة يعمل ابنها طوال اليوم في الحقول، مصابة بالتهاب في عينيها أحالها غير قادرة على القراءة لبعض الوقت، ما أحزنها حزناً عظيماً لأنها امرأة ذات عقل رزين عميق التفكير. ذهبتُ بمقتضى ذلك وألفيتُها وحيدة كالمعتاد في كوخها الصغير، والمغلق، والمظلم، والعابق بالدخان والهواء الحبيس، ومع ذلك مرتب ونظيف على أقصى نحو استطاعته. قعدت بجانب نارها الصغيرة (المكونة من بضع جمرات حمراء مطفأة وأعواد) منكبة على الحياكة، وبجانب قدميها وسادة خيشية صغيرة وُضِعت لراحة صديقتها الوديعة القطة الجالسة عليها، وذيلها الطويل يحيط بأقدامها الناعمة، وعيناها نصف المغلقة تحدق تحديقاً حُلْمِيّاً إلى سياج المدفأة المنخفض الملتوي.

«مرحبا نانسي، كيف حالكِ اليوم؟».

أجابت قائلة: «حالي متوسطة عموماً يا آنسة. لم تتحسن عيناي، لكن عقلي رخي البال أشدّ من ذي قبل». نهضت لترحب بي بابتسامة راضية سرتني رؤيتها؛ لأن نانسي مبتلاة بكآبة مفرطة نوعاً ما. هنأتُها على التغير، ووافقتني

أن ذلك نعمة عظيمة، وعبرت عن نفسها بأنها «ممتنة لذلك جداً»، مضيفة: «إن رضي الرب أن يرد إلي بصري ويجعلني قادرة على قراءة إنجيلي مجدداً، فأعتقد أني سأسعد سعادة ملكة».

أجبتُها قائلة: «أرجو أن يرده إليكِ يا نانسي، وسآتي خلال ذلك لأقرأ لكِ بين الفينة والأخرى حين يتسنّى لي القليل من الوقت لذلك».

تحركت المرأة المسكينة لتحضر لي كرسياً ووجهها تعلوه تعبيرات سعادة ممتنة، لكن لأني كفيتُها عناء ذلك، أشغلتْ نفسها بتحريك النار وإضافة عدة عيدان أخرى للجمرات المضمحلة، ثم متناولة إنجيلها الذي أكل عليه الدهر وشرب من الرف. نفضت الغبار عنه بحذر وأعطته لي. حين سألتُها إن كان هناك جزء معين ترغب مني قراءته، أجابتني قائلة:

«يا آنسة غري، إن لم يشكّل ذلك فرقاً لكِ، فأودّ أن أسمع ذلك الإصحاح في رسالة يوحنا الأولى الذي يقول: إن الرب محبة. ومن يسكنُ المحبة فإنه يسكنُ الرب، والرب يسكنه».

وجدتُ تلك الكلمات بعد بحثٍ قصير في الإصحاح الرابع. قاطعتني حين وصلتُ إلى الآية السابعة، وطلبت مني، معتذرةً اعتذاراتٍ ليست بحاجة إلى اعتذارها، قراءتها ببطء شديد لتستطيع استيعابها كلها والتركيز على كل كلمة راجية أن أعذرها لأنها ليست إلا «شخصاً غير متعلم».

أجبتُ قائلة: «قد يفكر الرجلُ ذو الحكمة مليّاً بكلِّ آية من هذه الآيات ساعةً ويرتقي بحاله بفضلها؛ أفضِّل قراءتها ببطء على ألا أقرأها».

وهكذا أنهيتُ الإصحاح على أبطأ ما يلزم وعلى أشد نحو مؤثر ما استطعتُ في الوقت ذاته، أنصتت مستمعتي إنصاتاً شديداً طوال ذلك، وشكرتني بصدق حين انتهيتُ. جلستُ ساكنة قرابة نصف دقيقة لأمنحها وقتاً للتفكر فيها حين فاجأتني إلى حدّ ما بكسرها الصمت المؤقت بسؤالي عن رأيي بالسيد وستن.

أجبتُ قائلة، وقد أجفلني سؤالها المباغت قليلاً: «لا أدري، أرى أنه يعظ وعظاً حسناً».

«أجل، إنه كذلك، ويتحدث حديثاً حسناً أيضاً».

«حقاً؟».

«أجل، لعلكِ لم تقابليه وتتحدثي معه كثيراً بعد؟».

«لا. لا أقابل أحداَ أبداَ لأحادثه باستثناء الآنستين الصغيرتين من القصر».

«آه. إنهما لطيفتان، آنستان صغيرتان طيبتان، لكن لا تستطيعان الحديث مثله».

«إذاً، هو يزورك يا نانسي؟».

«أجل يا آنسة، وأنا شاكرة لذلك شكراناً كبيراً. إنه يزورنا نحن الفقراء زياراتٍ أكثر مما زارنا السيد بلاي أو الكاهن قط. ومن الحسن أنه يفعل ذلك لأنّه مرحب به دوماً. لا يسعنا قول الشيء ذاته عن الكاهن، بل هناك من يقولون حتى إنهم يخشونه، يقولون إنه حين يلج منزلاً فلا بد من أن يجد فيه عيباً ويشرع في تقريعهم ما إن يتجاوز عتبة الباب، لكن لعله يعتقد أن تبيين الخطأ لهم هو واجبه. وكثيراً ما يجيء عمداً لتوبيخ أشخاص لتغيبهم عن الكنيسة، أو لعدم ركوعهم أو قيامهم حين يفعل ذلك أشخاص آخرون، أو لذهابهم للمعبد الميثودي، أو شيء من هذا القبيل، لكن لا أستطيع القول إنّه وجد فيَّ عيوباً كثيرة، زارني مرةً أو مرتين قبل مجيء السيد وستن حين كان ذهني قلقاً جداً، وتجرأتُ على إرسال أحدٍ لاستدعائه؛ لأنّ صحتي سيئة جداً إلى جانب ذلك، وقد جاء بطبيعة الحال. كنتُ محزونة حزناً شديداً يا آنسة غري. حمداً لله أنّ ذلك انتهى الآن، لكن حين أمسكتُ إنجيلي لم يمنحني أيّ سلوان إطلاقاً. ذلك الإصحاح عينه الذي قرأتِه لتوكِ أقلقني قدرَ كل الإصحاحات الأخرى: «أما من لا يُحِبُّ، فلم يَعرِف الرب». بدا لي ذلك مخيفاً، لأني شعرت أني لا أحب الله أو البشر كما ينبغي، ولن أتمكن من ذلك أبداً إن حاولتُ، وذلك الإصحاح الذي قبله، حيث يقول: «فكل مولود من الرب لا يرتكب الخطيئة»، وموضع آخر حيث يقول: «المحبةُ إتمامُ الناموس»، وغيرها الكثير يا مس، سأرهقكِ إرهاقاً شديداً إن أخبرتكِ بها كلها، لكن بدت كلها أنها تدينني وتبين لي أنني لستُ على الطريق القويم، ولأني لم أعرف كيف أهتدي إليه، أرسلتُ بيل ليرجو السيد هاتفيلد أن يتلطف ويزورني ذات يوم، وحين جاء أخبرتُه كل ما يزعجني.

«وماذا قال يا نانسي؟».

«بدا أنه يزدريني يا آنسة. قد أكون واهمة، لكنه صفَّر تصفيراً ما، ورأيتُ شيئاً من الابتسامة على وجهه، وقال: «هذا هراء! كنتِ بين الميثوديين أيتها المرأة الصالحة». لكنني أخبرتُه أني لم أقرب المعابد الميثودية[12] قط، ثم قال: «حسناً. عليكِ القدوم إلى الكنيسة حيث ستسمعين الكتاب المقدس يُشرَح شرحاً سليماً، بدلاً من جلوسكِ محدقة في إنجيلكِ في المنزل».

لكني أخبرتُه أني اعتدتُ القدوم إلى الكنيسة دائماً حين كنتُ في صحّة جيدة، لكني أكاد أجرؤ على الذهاب بعيداً في هذا الجو الشتوي البارد وأنا مصابة بالروماتزم بشدة. لكنّه قال: «عرجكِ للكنيسة سيحسن من روماتزمكِ؛ ما من أمرٍ خيرٌ لعلاج الروماتزم من التمرين. تستطيعين المشي حول المنزل على نحوٍ جيد كفاية. لمَ لا يمكنكِ المشي إلى الكنيسة؟ الحقيقة أنّكِ تستأنسين راحتكِ، من السهل دائماً إيجاد أعذار يتهرّب بها المرء من واجبه.

لكنّكِ تعرفين يا آنسة غري أنّ الأمر لم يكن كذلك، لكن أخبرتُه أني سأحاول. قلتُ: «لكن رجاءً يا سيدي، إن ذهبتُ إلى الكنيسة فكيف سيحسّن ذلك من حالي؟ أريد أن تُمحَى آثامي، وأن أشعر بأنّها لا تُذْكَرُ ضِدِّي بعد اليوم، وأن حُبّ الرب يُشاع باتساع في قلبي، وإن لم أستطع أن أشعر بتحسّن بقراءة إنجيلي وتلاوة صلواتي في البيت، فما الذي سأستفيده من الذهاب إلى الكنيسة؟».

قال: «الكنيسة هي المكان الذي عيَّنه الربُّ لعبادته. إنّه واجبكِ أن تترددي إليها ما استطعتِ. إن أردتِ الراحة فعليكِ التماسها في طريق الواجب». وقال أكثر من ذلك، لكن لا يمكنني تذكّر كلّ كلماته الحسنة. على أي حال، تلخصت كلها في الآتي: أن عليَّ التردد إلى الكنيسة ما استطعتُ، وأن أجلب معي كتاب الصلاة، وأقرأ نصّ العرابة كاملاً خلف رجل الدين، وأقوم، وأركع، وأقعد، وأفعل كلّ ذلك كما ينبغي، وأتناول العشاء الرباني في كلّ فرصة مواتية، وأصغي لعظاته وعظات السيد بلاي، وكلّ شيء سيكون بخير، إن استمررتُ في أداء واجبي فسأنال مباركة أخيراً.

قال: «لكن إن لم يرحكِ ذلك، فقد انتهى الأمر».

قلتُ: «إذاً، يا سيدي، أتراني فاسقة؟».

قال: «إن كنتِ تبذلين قصارى جهدكِ لدخول الجنة دون أن تتمكني من ذلك فلا بد من أنكِ واحدة من الذين يبذلون الجهد للدخول من الباب الضيق ولا يقدرون»[13] ثم سألني إن كنتُ قد رأيتُ أيّاً من آنستَي القصر في الأنحاء ذلك الصباح، فأخبرتُه أين رأيتُ الآنستين الصغيرتين في مجازِ موس، فركل قطتي المسكينة فوق أرضية الحجرة مباشرة، وذهب خلفهما مبتهجاً مثل قبرة، لكني حزنتُ حزناً شديداً، فقد غاصت كلمته الأخيرة تلك عميقاً في قلبي، ورقدتْ هناك مثل كتلة من الرصاص إلى أن أصبحتُ أضعف من احتمالها.

«امتثلتُ لنصيحته على أيّ حال. رأيتُ أنه عناها بحسن نية على غرابة أسلوبه، لكنّكِ تعرفين يا آنسة، إنّه غني وشاب، ولا يقدر شخص مثله على فهم

أفكار عجوز مسكينة مثلي، لكني بذلتُ جهدي لأقوم بكل ما أمرني به على أي حال. لعلي أزعجكِ بثرثرتي يا آنسة».

«لا، يا نانسي! واصلي، وأخبريني بكلّ شيء».

«تحسن روماتزمي، ولا أعرف أذلك بسبب ترددي إلى الكنيسة أم لا، لكني أصبتُ في أحدٍ صقيعيٍّ بهذا البرد في عيني، لم يأتِ الالتهاب دفعة واحدة بل تدريجياً، لكن ليست نيتي إخبارك عن عيني، بل أن أتكلم على قلق عقلي. ولأصدقكِ القول يا آنسة غري، لا أظن أنه تحسّن بالتردد إلى الكنيسة، ليس تحسناً يذكر في الأقل؛ تحسنت صحتي، لكن ذلك لم يشفِ روحي. أصغيتُ وأصغيتُ للقساوسة، وقرأتُ وقرأتُ كتاب صلاتي، لكن كان كلّ ذلك مثل نُحاسٍ يَطِنُّ وصنجٍ يرن[14] لم أتمكن من فهم العظات، ولم يفدني كتاب الصلاة إلا بتبيينه لي أنّي أثيمة جدّاً، وذلك لقدرتي على قراءة كلمات طيبات كتلك دون أن أتحسن، وإحساسي غالباً، إلى جانب ذلك، أنها عمل مؤلم ومهمة ثقيلة وليس نعمة وامتيازاً كما يُحسُّ كلّ المسيحيين الصالحين. بدا أنّي عددتُ كل ما سبق عقيماً ومظلماً، ثم تلك الكلمات المفزعة: «إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَسْعَوْنَ إِلَى الدُّخُولِ، وَلا يَقْدِرُونَ»، لقد جفَّفت معنوياتي تجفيفاً شديداً.

«لكن لاحظتُ، ذات أحد، قول السيد هاتفيلد وهو يوزع سر القربان المقدس: «إن كان منكم من لا يقدر على طمأنة ضميره، لكنّه يحتاج عوناً ومشورة إضافيتين، فليأتِ إلي، أو ليكشف حزنه قسّ حكيم وعالم بكلمات الرب!»؛ لذا نظرتُ فحسب، في صباح الأحد التالي، قبل القداس، إلى حجرة الاجتماعات والصفوف الكنسية، وشرعتُ أتحدث مع الكاهن مجدداً. كدت أجرؤ على اتخاذ هذه المخاطرة، لكنّي اعتقدتُ أنه حين تكون روحي على المحك لا ينبغي الالتزام بالتوافه، لكنه قال إنه لا وقت لديه للاهتمام بشأني حينها.

قال: «وبطبيعة الحال، ليس عندي ما أقوله لكِ خلاف ما قلتُه قبلاً، خذي سرّ القربان المقدس هذا مؤكد، واستمري بفعل واجبكِ، وإن لم ينفعكِ ذلك، فلن ينفعكِ شيء؛ لذا لا تزعجيني بعد الآن».

لذا رحلتُ، لكني سمعتُ السيد وستن -كان السيد وستن هناك يا آنسة- وذلك أول أحدٍ له في هورتون، كما تعلمين، وكان في حجرة الاجتماعات والصفوف الكنسية مرتدياً مِدْرعته[15] يساعد الكاهن في ارتداء ثوبه...».

«أجل، يا نانسي».

«وسمعتُه يسأل السيد هاتفيلد عمَّن أكون، فقال: أوه، إنَّها عجوزٌ مغفلة مرائية».

فأحزنني ذلك حزناً شديداً، يا آنسة غري، لكني ذهبتُ إلى مقعدي، وحاولتُ أداء واجبي كالسابق، لكني لم أنل أيَّ سلام، حتى إني على تناولي سر القربان المقدس شعرتُ بأني آكل وأشرب لخطيئتي المميتة طوال الوقت؛ لذا عدتُ إلى المنزل قلِقة قلقاً مؤلماً. لكن، في اليوم التالي، قبل أن أَفْرُش، لأنه ما كان لي بالتأكيد رغبة يا آنسة في الكنس، والفرش، وغسل القدور؛ لذا جلستُ في القذارة؛ إذا السيد وستن يدخل! أخذتُ أرتب الأشياء حينها، وأكنس وأعمل، وحسبتُه موبخي على طرائقي الكسولة مثلما كان السيد هاتفيلد ليفعل، لكني كنتُ واهمة، فقد صبَّح عليَّ فحسب تصبيحةً هادئةً مهذبة؛ لذا نفضتُ الغبار من على كرسي ليقعد عليه، ونظفت الموقد قليلاً، لكني لم أنسَ كلمات الكاهن، لذا قلتُ: «أتعجب يا سيدي من أنك أتعبتَ نفسك بالقدوم كلّ هذه المسافة البعيدة لرؤية «عجوز مغفلة مرائية مثلي»». بدا مندهشاً مما قلتُه، لكنه اضطر إلى إقناعي بأن الكاهن يمزح فحسب، وحين فشل في ذلك، قال: «يا نانسي، لا ينبغي عليكِ التفكير طويلاً في الأمر، فالسيد هاتفيلد كان متعكر المزاج قليلاً حينها، تعرفين أن لا أحد منا كامل، حتى موسى نطق بشفتيه كلاماً غير حكيم، لكن الآن اقعدي دقيقة، إن كان لديكِ متسع من الوقت، وأخبريني بكل شكوككِ ومخاوفكِ، وسأحاول إزالتها».

لذا قعدتُ بجانبه، كان غريباً جدّاً، لعلمكِ يا آنسة غري، وأصغر حتى من السيد هاتفيلد بحسب ما أعتقد، وعددتُ أنه ليس بوسامته ليرغب المرء في النظر إليه، بل نَكِدٌ قليلاً أيضاً في البداية، لكنه تحدث بتهذيب شديد، وحين قفزت القطة المسكينة إلى ركبتيه، مسّدها فحسب، وابتسم ابتسامةً واهنة؛ لذا عددتُ ذلك بشير فأل؛ لأنها حين قفزت على الكاهن ذات مرة أوقعها كما لو كان مزدرياً وغاضباً. يا للمسكينة. لكن ليس لكِ أن تتوقعي من قطة أن تعرف السلوك مثل مسيحي، كما تعرفين، يا آنسة غري».

«لا. من المؤكد لا، يا نانسي، لكن ما الذي قاله السيد وستن حينها؟».

«لم يقل شيئاً، لكنه أصغى إليّ إصغاءً متواصلاً وصبوراً ما أمكنه، ولم يبدِ أيّ ازدراء، لذا واصلتُ كلامي وأخبرتُه بكلّ شيء مثلما أخبرتكِ تماماً، بل أكثر مما أخبرتكِ به أيضاً».

قال: «أصاب السيد هاتفيلد تماماً حين أخبركِ أن تواظبي على أداء واجبكِ، لكن حين نصحكِ بالتردد إلى الكنيسة وحضور القداس وما إلى ذلك، لم يقصد أنّ تلك هي كلّ واجبات المسيحي، بل ارتأى فقط أنكِ قد تتعلمين ما الذي

بوسعكِ أن تزيدي عليها، وأن تهتدي للابتهاج بتلك الممارسات بدلاً من أن تعديها مهمة أو عبئاً، ولو أنكِ طلبتِ منه شرح تلك الكلمات التي أقلقتكِ كثيراً أظن أنه كان ليخبركِ بأنه إن كان كثيرون سيسعون للدخول من الباب الضيق ولا يقدرون، فما أعاقهم هو خطيئاتهم، كمثَل رجل يحمل كيساً كبيراً على ظهره ممنِّياً نفسه بعبور مدخل ضيق ليكتشف استحالة ذلك ما لم يخلِّف كيسه وراءه، لكني أحسبكِ يا نانسي لا تملكين خطيئات لن يسعدكِ هجرها إن اهتديتِ إلى وسيلة لذلك».

قلتُ: «هذا مؤكد، يا سيدي، أنت تنطق بالحق».

قال: «هل تعرفين الوصية العظمى الأولى، والثانية التي هي مثلها، اللتين تتعلق بهما الشريعة وكتب الأنبياء؟[16]

تقولين إنكِ لا تقدرين على حبّ الله، لكن يبدو لي أنه إن تأملتِ تأملاً سليماً مَن وما هو، فلن يسعكِ إلا أن تحبيه. إنَّه أبوكِ، أعزّ أصدقائكِ، كل نعمة، كل شيء خير، أو طيب، أو نافع يأتي منه، وكل شر، كل ما عندكِ سبب لكرهه، لتجنبه، أو الخوف منه، يأتي من إبليس، عدوه وعدونا. ولهذا السبب ظهر الله في الجسد لكي يُبطل أعمال إبليس بكلمة واحدة: الله محبة، وكلما زاد الحُب الذي نكنه قَرُبْنَا إليه وزَادتْ حيازتنا لروحه».

قلتُ: «يا سيدي، إن تأتّى لي أن أفكر بهذه الأفكار دائماً، فأظنّ أني قادرة على حُبّ الله، لكن كيف عساي أحب جيراني وهم أثيمون، ويغيظونني، ويتصرفون بعناد شديد؟».

قال: «قد تبدو مسألة صعبة أن نحب جيراننا الذين في صفاتهم شر كثير، والذين توقظ أخطاؤهم فينا عادة شرنا الكامن، لكن تذكري أنه خلقهم، وهو يحبهم، ومن يحب الوالد فلا بد من أن يحب مولوديه أيضاً، وإن كان الله يحبنا إلى حد بذله ابنه الوحيد ليموت لأجلنا، فيجب علينا أيضاً أن نحب بعضنا، لكن إن عجزتِ عن الشعور بحب خالص لمن لا يبالون بكِ، فتستطيعين في الأقل أن تحاولي معاملتهم كما تريدين أن يعاملوكِ. بوسعكِ أن تحاولي الإشفاق على عيوبهم والتماس العذر لأذيتهم، وأن تفعلي الخير ما استطعتِ لمن هم حولكِ، وإن عوَّدتِ نفسكِ على ذلك، يا نانسي، فالجهد في حد ذاته سيجعلكِ تحبينهم إلى حد ما، فضلاً عن المودة التي سيولِّدها لطفكِ فيهم، مع أنهم قد لا يتصفون بأي صفة حسنة عداها. إن كنا نحب الله ونرغب في طاعته، فلنحاول أن نكون مثله، أن نؤدي عمله، وأن نكدح لأجل مجده الذي هو خير الإنسان، لنسرِّع قدوم مملكته التي هي سلام كل العالم وسعادته، وإن بدونا عاجزين، إلا أنه بفعلنا كل الخير الذي نستطيع فعله في الحياة حتى أذلَّنا بوسعه أن

يسهم بالكثير في ذلك، ولنسكن في الحُب، ليسكن الله فينا ونحن فيه. كلما زادت السعادة التي نمنحها زاد حظُّنا منها في الدنيا، وعظمت مكافأتنا في الجنة حين نرتاح من أعمالنا المجهدة». يا آنسة، أعتقد أن تلك هي كلماته نصّاً؛ لأني تمعنتُ فيها كثيراً، ثم أخذَ ذلك الإنجيل وقرأ مقاطع هنا وهناك، وشرحها شرحاً واضحاً وضوح النهار، وبدا كأنَّ نوراً جديداً اقتحم روحي، وشعرتُ بوهج عظيم حول قلبي، وما تمنيتُ إلا أن يكون بيل المسكين وكل العالم هناك ليسمعوا كل شيء ويبتهجوا معي.

«بعد أن رحل جاءت هانا روجرز (إحدى جيراني)، وأرادت مني أن أساعدها في الغسيل، أخبرتُها أني غير قادرة على ذلك حينها؛ لأني لم أجهز البطاطا للغداء، ولم أغسل مواعين الفطور بعد، فأخذت توبخني على سلوكياتي القذرة الكسولة. انزعجتُ قليلاً في البداية، لكني لم أقل شيئاً سيئاً لها إطلاقاً، بل أخبرتُها فقط بنبرة هادئة أنَّ الخوري الجديد قدم لزيارتي، لكني سأنهي عملي بأسرع ما يمكن ثم آتي لأساعدها، فرقَّت لي حينها، وبدا أن قلبي استشعرَ محبة شديدة لها، وأصبحنا صديقتين جيدتين في وقت قصير، هذا صحيح، يا آنسة غري، «الْجَوَابُ اللَّيِّنُ يُبَدِّدُ الْغَضَبَ، وَالْكَلِمَةُ الْقَارِصَةُ تُهَيِّجُ السَّخَطَ»[17] . الكلمات لا تؤثر فيهم فحسب، بل فيكِ أيضاً.

«صدقتِ يا نانسي، ألا ليتنا نستطيع تذكّر هذا دائماً».

«أجل، ليتنا نستطيع!».

«وهل زاركِ السيد وستن مجدداً؟».

«أجل، مرات عديدة، يجلس ويقرأ لي نصفَ ساعة؛ لأن حالة عيني سيئة جداً، لكن، كما تعرفين يا آنسة، لديه أناسٌ آخرون ليزورهم، وأمورٌ أخرى ليؤديها، ليباركه الرب! ووعظ في الأحد التالي عظة ممتازة! كان النص الذي قرأه: «تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم»، والآيتين المباركتين اللتين تلتاها. لم تكوني هناك، يا آنسة، كنتِ مع أصدقائكِ حينها، لكن ذلك أسعدني سعادة غامرة! وأنا سعيدة الآن، حمداً لله! وأنا أستلذ الآن في أداء بضعة أعمال لجيراني قدرَ ما يمكن لعجوز مسكينة نصف عمياء فعله؛ وعدُّوا ذلك لطفاً مني،

تماماً كما قال. أنتِ ترين، يا آنسة، أني أحيك زوجاً من الجوارب الآن. إنها لتوماس جاكسن، شيخ غريب الأطوار، وقد تشاجرنا شجارات عديدة في مناسبات كثيرة، وأحياناً اختلفنا اختلافاً موجعاً، فرأيتُ أنَّ خير ما بوسعي فعله

حياكة زوج من الجوارب الدافئة، وشعرتُ أنّي زدتُ محبةً للشيخ المسكين مذ شرعتُ في ذلك. آلت الأمور تماماً إلى ما قال السيد وستن أنها ستؤول إليه.

قلت: «أنا سعيدة جداً برؤيتكِ فرحة جداً، يا نانسي، وحكيمة جداً، لكن عليّ الذهاب الآن، فأنا مطلوبة في القصر». ودعتُها وغادرتُ واعدةً إياها بأني سأعود حين يتسنى لي الوقت لذلك، وشاعرةً تقريباً بسعادتها ذاتها.

ذهبتُ في وقت آخر لأقرأ لعامل مسكين بلغ آخر مرحلة من مراحل السل، كانت الآنستان قد زارتاه، وبطريقة ما انتُزع وعدٌ بالقراءة منهما، لكنّ في ذلك عناءً شديداً، لذا رجواني أن أفي به بدلاً منهما. ذهبتُ، عن طيب خاطر كافٍ، فسرتني المدائح التي أغدقها كلّ من الرجل المريض وزوجه على السيد وستن هناك أيضاً. أخبرني الأول أنه نال راحة ونفعاً عظيمين من زيارات القس الجديد الذي تردّد كثيراً للاطمئنان عليه، ووصفه بأنه «رجل من نوع مختلف» عن السيد هاتفيلد، الذي كان يزوره قبل قدوم الآخر إلى هورتون بين الفينة والأخرى زيارات يصرّ فيها على إبقاء باب الكوخ مفتوحاً ليدخل الهواء المنعش لراحته الخاصة، من دون مراعاة ما يسبّبه ذلك من أذى للمريض؛ ويفتح كتاب صلاته ويقرأ بسرعة جزءاً من القداس للمريض، ثم يغادر بسرعة. هذا إن لم يظل ليوبخ الزوج المحزونة توبيخاً قاسياً، أو ليبدي ملاحظات غير مراعية، لكيلا نقول عديمة الرحمة، يُقصد بها بالأحرى زيادة هموم الزوجين اللذين يعانيان لا تقليلها.

قال الرجل: «أمّا السيد وستن فصلَّى معي بأسلوب مختلف جداً، وتحدث معي بما ينبغي من طيبة، وكثيراً ما قرأ لي أيضاً، وقعدَ بجانبي تماماً مثل أخ».

هتفت زوجه قائلة: «بالضبط! وقرابة ثلاثة أسابيع منذ ذلك، حين أبصر كيف ارتعش جيم المسكين من البرد، ورأى حال نارنا التي يُرثى لها، سأل إن كان مخزوننا من الفحم قد أوشك على النفاد، فأخبرته أنّ مخزوننا نفد، وأننا غير قادرين على جلب المزيد، لكنكِ تعرفين، يا آنستي، لم أتوقع منه مساعدتنا، لكنه أرسل لنا كيساً من الفحم في اليوم التالي، ونعمنا بنار دافئة منذ ذلك الحين، وهذه نعمة عظيمة في هذا الشتاء. لكن هذه طريقته المميزة يا آنسة غري؛ حين يأتي إلى بيت شخص مسكين ويرى فيه مريضاً، فإنه يلاحظ ما الذي يحتاجون إليه بشدة، وإن رأى أنه ليس من اليسير عليهم جلبه بأنفسهم، فإنه لا يقول شيئاً عن الموضوع، بل يجلبه لهم فقط، وما كل الناس الذين هم بمثل ضيق ذات يده بحاذين حذوه؛ لأنكِ تعرفين يا آنستي، ليس معه ما يعتاش عليه إلا ما يعطيه إياه الكاهن، ويقولون إنه قليل جداً».

تذكرتُ حينها شاعرةً بشيء من الجذل أنّ الكيِّسة الآنسة مري كثيراً ما لقبته بالوحشي المبتذل؛ لأنه يرتدي ساعة فضية وملابس غير زاهية وجديدة مثل السيد هاتفيلد.

حين عدت إلى مأواي شعرتُ بسعادة عارمة، وحمدت الله أن عندي الآن شيئاً أشغل به تفكيري، شيئاً أركّز عليه ليكون لي راحة من الرتابة المنهكة والكدح الموحش لحياتي الحالية؛ لأني كنت وحيدة، لم أبصر قط، إلا من شهر لشهر، وسنة لسنة، باستثناء فترات راحتي القصيرة في الديار، كائناً واحداً بوسعي أن أفتح له قلبي، أو أحدثه بحرية بما يجول بخاطري رجاء أن يتعاطف معي أو حتى يفهمني، لم يوجد أحد قط -اللهم إلا المسكينة نانسي براون- استطعتُ أن أتمتع معه بلحظة تواصل اجتماعي حقيقي، أو كانت أحاديثه معدة لتصيرني أفضل، أو أكثر حكمةً، أو أسعد من ذي قبل، أو من هو، بحسب ما أرى، بوسعه أن ينتفع من أحاديثي انتفاعاً شديداً. رفقائي الوحيدون هم أطفال غير ودودين، وفتاتان جاهلتان عنيدتان كانت تُعَدُّ عزلتي المتواصلة عن حماقاتهم المرهقة راحةً مرغوبةً رغبة شديدة الجدية، ومُقَدَّرةً تقديراً كبيراً غالباً، لكن أن يقتصر رفقاء المرء على أشخاص مثلهم لهو شر مستطير، بسبب التأثيرات الفورية والعواقب التي من المرجّح أن تنتج عنها. لم تخطر في بالي قطُّ فكرة جديدة أو مثيرة من الخارج، وتلك التي تنشأ في داخلي تُسحق سحقاً مثيراً للشفقة فوراً في الغالب، أو يُحكم عليها بالمرض أو التلاشي لتعذر فهمها.

معروف أنّ الرفقاء المعتادين على بعضهم لهم تأثير كبير في أفكار بعضهم وسلوكياتهم؛ أولئك الذين أفعالهم أمام أعيننا دائماً، الذين نسمع أقوالهم دائماً، سيقودوننا، بطبيعة الحال -ولو كان ذلك ضد مشيئتنا- ببطء وتدريجياً وربّما بلا وعي، للتصرّف والتحدث مثلهم. لن أجرؤعلى القول إلى أي مدى تمتد قوة الامتصاص التي لا تقاوم هذه، لكن إن قُدِّر على رجل متحضر قضاء سنوات طويلة وسط عرق من الهمج الجامحين، فأشكّ شكاً عظيماً في قدرته على ألا يصبح هو نفسه في نهاية تلك المدة في الأقل بربرياً، إلا إن كان يتمتّع بالقوة لتهذيبهم. وخشيتُ خشيةً عظيمةً، لعجزي عن تهذيب رفقائي الصغار، من أن يفسدوني، وأن يُنزِلوا مشاعري، وعاداتي، وقدراتي تدريجيّاً إلى مستواهم، لكن من دون أن ينقلوا إليّ خلوهم من الهموم، وحيويتهم المرحة.

شعرتُ بالفعل بأنّ ذكائي أخذ يتردّى، وقلبي يتحجّر، وروحي تنكمش، وارتعشت خشية أن يصير وعيي الأخلاقي ضعيفاً، وتمييزي بين الخطأ والصواب مشوشاً، وأن تنخفض أفضل قدراتي أخيراً تحت التأثير المهلك لحياة من ذلك النوع. تجمع ضباب الأرض الكثيف حولي، وضيَّق جنتي الداخلية، وهكذا صعد السيد وستن أخيراً فوقي بادياً كنجم الصباح في أفقي، لينقذني

من الخوف من الظلام التام، وأبهجني أنه أصبح عندي الآن شخص فوقي لا تحتي أتفكّر فيه. فرِحتُ لاكتشافي أنّ كل العالم ليس متألفاً من آل بلومفيلد، وآل مري، وآل هاتفيلد، وآل آشبي... إلخ، وأنّ الفضيلة الإنسانية ليست محض حلم متخيل. حين نسمع خيراً قليلاً عن شخص دون أن نسمع شرّاً عنه، من السهل والممتع أن نتخيل المزيد، باختصار: من غير الضروري أن أحلل كل أفكاري، لكن الأحد الآن أضحى يوماً مبهجاً بهجةً فريدة (أنا الآن شبه معتادة على الزاوية الخلفية في العربة)؛ لأني أحببتُ سماعه، وأحببتُ رؤيته أيضاً، مع أني عرفتُ أنه ليس امرأً وسيماً، أو حتى شخصاً قد يقال عنه مقبول المظهر الخارجي، لكنه قطعاً لم يكن قبيحاً.

قامته أطول قليلاً، قليلاً جداً، من الطول المتوسط، حدود وجهه أشد تربيعاً من أن يوصف بالجمال، لكني رأيتُ أنها تدل على عزم الشخصية. لم يكن شعره البني الغامق معقوصاً بعناية مثل شعر السيد هاتفيلد، لكنه مُشّط ببساطة إلى الجنب فوق جبهة بيضاء عريضة. أما الحاجبان فأرى أنهما بارزان أكثر من اللازم، لكن تلألأت تحت ذينك الحاجبين الغامقين عينان بنيتا اللون، وعميقتان قليلاً، وليستا واسعتين، تنمّان عن قوة فريدة، لكنهما متألقتان تألقاً أخاذاً، ومليئتان بالتعابير، في فمه شخصيةٌ أيضاً، شيء ينمّ عن رجل ذي عزم راسخ وإدمان على التفكير، وحين يبتسم، لكني لن أذكر ذلك الآن، لأني لم أره يبتسم قط في هذا الوقت الذي أسرده. لم يبدُ لي من مظهره العام بالتأكيد أنه رجل معتاد على تراخٍ مثل الابتسام، ولا أنه شخص مطابق لوصف ساكني الأكواخ. كونتُ رأيي فيه مبكراً، وعلى استهجانات الآنسة مري، اقتنعتُ اقتناعاً تاماً بأنه رجل ذو عقل قوي، وإيمان راسخ، وتقوى شديدة، لكنّه صارم ومراعٍ لحقوق الآخرين ومشاعرهم، وحين اكتشفتُ أنه، إضافةً إلى صفاته الأخرى الحسنة، تضاف نزعة عمل الخير الصادقة، والطيبة الرقيقة المراعية لحقوق الآخرين ومشاعرهم، لعلّ هذا الاكتشاف أسعدني أكثر؛ لأني لم أتأهب لتوقعه.

12

وابل المطر

كانت الزيارة الثانية، التي زرتُ فيها نانسي براون، في الأسبوع الثاني من شهر آذار/مارس، لأنه مع امتلاكي الكثير من دقائق الفراغ خلال اليوم، نادراً ما قدرتُ على أن أعدَّ ساعةً واحدةً ملكاً ليّ بالكامل، لتعذّر وجود ترتيب أو نظام؛ لأن كل شيء تُرك لنزوات الآنسة ماتلدا وأختها. أيّاً كان الشُّغل الذي أختاره، حين لا أكون مشغولةً معهما أو بشؤونهما، عليّ، إن جاز التعبير، أن أتأهب لأشمِّر عن ساعدي، وأبقي حذائي على قدمي، وعصاي في يدي، فعدم كوني متيسرة فوراً حين أُستُدعى لهي إهانةٌ بليغة يتعذّر اغتفارها، ليس فقط من طالبتي وأمهما، بل من الخادم نفسها التي جاءت بسرعةٍ لاهثة لاستدعائي وهي تهتف قائلة: «عليكِ الذهاب إلى حجرة الدرس مباشرةً يا آنسة. الآنستان الصغيرتان ينتظرانكِ!» ذروة الرعب! ينتظران مربيتهما فعلاً!

لكني تيقنتُ هذه المرة من ساعة أو اثنتين لنفسي؛ لأن ماتلدا تستعد لرحلة طويلة، وروزالي ترتدي أحسن ما عندها لحفلة عشاء في بيت السيدة آشبي؛ لذا انتهزتُ الفرصة للتوجه إلى كوخ الأرملة؛ حيث وجدتُها قلقة نوعاً ما على قطتها التي كانت غائبة طوال اليوم. طمأنتُها بأكثر قدر استطعتُ تذكّره من الحكايات عن النزعة الطبيعية للتجوال لدى ذلك الحيوان. قالت: «أنا خائفة من حُرَّاس الطرائد[18] . هذا كل ما يشغل تفكيري. لو أنّ السيدين الصغيرين في المنزل، لاعتقدتُ أنهما يطلقان كلابهما عليها، ويخيفان المسكينة كما أخافا قبلها قططاً مسكينة، لكن ليس عليَّ أن أخشى ذلك الآن». تحسَّنت عينا نانسي، لكنهما ما زالتا بعيدتين عن التعافي. حاولتْ حياكة قميص يوم أحدٍ لابنها، لكنها أخبرتني أنها تتحمل أن تحيك فقط قليلاً منه بين الفينة والأخرى، لذا لم تحرز إلا تقدماً قليلاً، مع أن الشاب المسكين أراده بشدة؛ لذا عرضتُ عليها أن أساعدها مساعدةً يسيرة بعد أن قرأتُ لها؛ لأنّ لدي متسعاً كبيراً من الوقت ذلك المساء، وليس لزاماً عليّ أن أعود قبل الغسق، فقبلت عرضي بامتنان، وقالت: «ستكونين مؤنسة لي بعض الشيء أيضاً يا آنسة؛ لأني أشعر بالوحدة دون قطتي». لكني حين فرغتُ من القراءة، وأنجزتُ نصف الدرز، وكشتبان نانسي الواسع النحاسي لاءم إصبعي بلفّة ورق، قاطعني دخول السيد وستن والقطّة ذاتها في ذراعيه. رأيتُ الآن أنَّ بوسعه أن يبتسم، ابتسامةً لطيفة أيضاً.

شرع في الحديث قائلاً: «خدمتُكِ خدمةً صغيرةً حسنةً، يا نانسي». ثم حين أبصرني، انحنى انحاءةً يسيرة اعترافاً بوجودي. كنتُ لأكون غير مرئية لهاتفيلد، أو لأيّ سيد آخر من تلك المنطقة. واصل كلامه قائلاً: «أنقذتُ قطتكِ من يديّ، أو بالأصح، من بندقية حارس طرائد السيد مري».

صاحت العجوز الممتنة قائلة: «بارك الله فيك يا سيد!»، وهي على وشك البكاء فرحاً متسلمةً مفضّلتها من ذراعيه.

قال: «اعتني بها، ولا تدعيها تقترب من مَأرَبة[19] الأرانب؛ لأن حارس الطرائد أقسم على أنه سيطلق النار عليها إن رآها هناك مجدداً. كان ليفعل ذلك اليوم إن لم أتدخّل في الوقت المناسب لإيقافه. أظن أنها تمطر يا آنسة غري»، أضاف قائلاً، على نحو أكثر هدوءاً، بعد أن لاحظ أني وضعتُ عملي جانباً وكنتُ مستعدة للمغادرة: «لا تدعيني أزعجكِ، فلن أبقى إلا دقيقتين».

قالت نانسي: «كلاكما سيبقى إلى أن ينتهي وابل المطر هذا»، وهي تحرك النار، وتضع كرسياً آخر بجانبه، وأردفتْ قائلة: «هناك متسع للجميع!».

قلتُ: «أرى على نحو أفضل هنا، شكراً يا نانسي»، آخذةً عملي بجانب النافذة، حيث تلطفت بالسماح لي بالبقاء في سلام، في حين أخذتْ فرشة لتزيل شعر القطة من معطف السيد وستن، ومسحتْ بحذر المطر من قبعته، وأعطتْ القطة عشاءها، وتحدثتْ بنشاط طوال الوقت، تارة تشكر صديقها القس على ما فعله، وتارة تتساءل كيف وجدتِ القطة المأربة، وتارة تذكر بحزن العواقب المحتملة لاكتشاف كهذا. استمعَ مبتسماً ابتسامةً هادئة لطيفة، وقعد أخيراً ممتثلاً لدعواتها الملحة، لكنه كرر أنه لا ينوي البقاء.

قال: «عندي مكان آخر عليّ الذهاب إليه، أرى (وهو ينظر إلى الكتاب على الطاولة) أن أحداً آخر كان يقرأ لكِ».

«أجل يا سيدي، تلطّفت الآنسة غري، وقرأت لي إصحاحاً، وهي تساعدني الآن في حياكة قميص لبيل، لكني أخشى أنها ستبرد هناك. ألن تأتي بقرب النار يا آنسة؟».

«لا. شكراً يا نانسي. أنا دافئة جداً. عليّ الذهاب فور انتهاء وابل المطر هذا».

صاحت العجوز المزعجة قائلة: «أوه يا آنسة! قلتِ إن بوسعكِ التوقّف وقت الغسق!». وأمسك السيد وستن قبعته.

صاحت قائلة: «لا يا سيدي، أرجوك لا تذهب الآن وهي تمطر بغزارة».

«لكن، يبدو لي أني أُبقي زائرتكِ بعيداً عن النار».

أجبتُ قائلة: «لا. أنت لا تفعل يا سيد وستن»، راجية أنه ما من ضررٍ في كذبة من هذا الصنف.

صاحت نانسي قائلة: «من المؤكد لا. هناك متسع كبير!».

قال شبه مازح: «يا آنسة غري»، وكأنه شعر بأن من الضروري تغيير الموضوع الحالي، سواء أكان عنده شيء محدد يقوله أم لا: «أرجو أن تصلحي ما بيني أنا وسيد العزبة حين ترينه. كان بالجوار حين أنقذتُ قطة نانسي، ولم يستحسن فعلي. أخبرتُه أني أحسب استغناءه عن كلّ أرانبه خيراً من أن تستغني عن قطتها، وقد أسمعني، بسبب ذلك التوكيد الوقح، بضع كلمات غير مهذبة إلى حدّ ما، وأخشى أنّي رددتُ عليه قليلاً ردوداً حادَّة أكثر مما ينبغي».

«ربَّاهُ يا سيدي! أرجو ألا تكون قد تشاجرت معه لأجل قطتي! فهو لا يطيق أن يردّ أحدهم عليه».

«ليس بالأمر الجلل يا نانسي! فلا أكترث لذلك حقَّاً. لم أقل شيئاً فظّاً جدّاً، وأفترض أن السيد مري معتاد على التلفظ بكلمات حادة حين يكون غاضباً».

«أجل يا سيدي، ذلك شيء يدعو للأسف».

«والآن عليّ حقاً أن أذهب. عليّ زيارة مكان يبعد ميلاً عن هنا، ولن يرضيكِ أن أعود عند حلول الظلام، بالإضافة إلى أن المطر قد أوشك على الوقوف الآن، لذا عمتِ مساء نانسي، عمتِ مساء آنسة غري».

«عمت مساء سيد وستن، لكن لا تعتمد عليّ في إصلاح ما بينك أنت والسيد مري؛ لأني لا أراه إطلاقاً فضلاً عن أن أتحدث إليه».

أجاب قائلاً في رضوخ محزن: «ألا تفعلين؟ إذاً، ليس باليد حيلة»، ثم مبتسماً نصف ابتسامةٍ غريبة، أضاف قائلاً: «لكن، لا عليكِ. أتصور أن السيد لديه الكثير ليعتذر عنه غير ما قاله لي»، وغادر الكوخ.

واصلتُ خياطتي ما استطعتُ الرؤية، ثم مسَّيتُ على نانسي، موقفةً امتنانها الحيوي بتأكيد لا جدال فيه أنّي فعلتُ لها فقط ما كانت لتفعله لي إن كانت في مكاني وكنتُ في مكانها. أسرعتُ عائدة إلى هورتن لودج؛ حيث

وجدتُ حين دخلتُ حجرة الدرس طاولةَ الشاي في حال من الفوضى، الصينية مليئة بما اندلق من الشاي، والآنسة ماتلدا في مزاج وحشيّ جدّاً.

«يا آنسة غري، ما الذي كنتِ تفعلينه بحق الجحيم؟ تناولتُ الشاي قبل نصف ساعة، ووجب عليّ إعداده بنفسي، وشربه وحدي تماماً! أتمنى لو أنكِ جئتِ أبكر!».

«ذهبتُ لرؤية نانسي براون، ظننتُ أنكِ لن تعودي من رحلتكِ بعد».

«أريد أن أعرف كيف عساي أمتطي الجواد في المطر؟ كان وابل المطر الحقير الملعون ذاك مغيظاً كفايةً. هطل بالضبط حين بلغتُ ذروة ما أفعله، ثم آتي ولا أجد أحداً في الداخل لأتناول الشاي معه! وأنتِ تعرفين أني لا أستطيع إعداد الشاي كما أحبه».

أجبتُ قائلة: «لم أفكر في وابل المطر»، (وبطبيعة الحال فكرة أن يعيدها إلى المنزل لم تواتيني قط).

«لا، من المؤكد؛ كنتِ بذاتكِ محمية تحت ستر، ولم تفكري في غيركِ قط».

تحملتُ توبيخها الفظ باتزان مثير للدهشة، بل حتى بابتهاج؛ لأني كنتُ مدركة أنّي فعلتُ لنانسي براون خيراً أكثر مما فعلتُ شرّاً لها، ولعل بضع أفكار أخرى ساعدت على إبقاء معنوياتي مرتفعة، وأضفتْ نكهةً على كوب الشاي البارد عديم الطعم، وجمالاً على الطاولة التي كانت لتكون بشعة في ظرف آخر، وعلى -كدتُ أن أقول- وجه الآنسة ماتلدا غير الودود، لكنها ذهبت سريعاً إلى الإسطبل، وتركتني لأتمتع بالمتعة الهادئة لوجبتي المنفردة.

13

زهور الربيع

داومت الآنسة مري على الذهاب مرتين إلى الكنيسة الآن؛ لأنها أحبت الإعجاب حتى إنها لم تقدر على تحمل خسارة فرصة واحدة لتلقيه، وكانت واثقة من نيله متى أظهرت نفسها. وسواء كان هاري ميلثام والسيد غرين هناك أم لا، لن تعدم يقيناً وجود أحد لن يكون غير عابئ بجمالها، بجانب الكاهن الذي يلزمه منصبه الرسمي عموماً بالحضور. عادةً، أيضاً، إن سمح الجو، تمشي مع أختها إلى المنزل، أمّا ماتلدا فلأنها كرهت تقييد العربة، وأما هي فلأنها لم تَرُق لها خصوصية العربة، واستمتعت بالصحبة التي عادة ما تنعش أول ميل من رحلة المشي من الكنيسة إلى بوابات ميدان السيد غرين، قريباً حيث يبدأ الطريق الخصوصي المؤدّي إلى هورتن لودج والواقع في الاتجاه المعاكس، في حين أن الطريق الرئيس يؤدي في مسار مستقيم إلى قصر السيد هيو ميلثام وهو أبعد بعض المسافة. هكذا سنحت دائماً فرصة للمرافقة إلى حدٍّ ما، إمّا هاري ميلثام، مع أو من دون الآنسة ميلثام، وإمّا السيد غرين، مع ربّما أخته أو كلتا أختيه، وإمّا أي من السادة الزوار الذين قد يكونون في ضيافتهم.

يعتمد مشيي مع الآنستين الصغيرتين، أو ركوبي العربة مع والديهما، على رغباتهما المتقلبة، فإن فضَّلتا «أخذي» معهما ذهبتُ، أمَّا إن فضَّلتا الذهاب وحدهما لحاجةٍ في نفسيهما فأتخذ مقعدي في العربة. فضَّلتُ المشي، لكن نفوراً من أن أتطفل بحضوري على أحد لا يرغب في ذلك؛ أبقاني دائماً غير نشطة في هذه المناسبات وما شابهها. ولم أستفسر قط عن أسباب نزواتهما المتنوعة. بطبيعة الحال، كانت تلك أفضل سياسة؛ لأنَّ الخضوع والالتزام شأن المربية، أمَّا أخذ المرء متعته بعين الاعتبار فهو شأن الطلاب. لكن حين أمشي، فإن النصف الأول من الرحلة عادةً مزعج جدّاً لي، فما لاحظتني أيّ من الآنسات أو السادة آنفي الذكر قط، ومن غير المحبّذ أن أمشي بجانبهم وكأني أتنصت على ما يقولونه، أو أرغب في أن يظن الناس أني واحدة منهم، وأصواتهم تغطي على صوتي أو تقاطعني، وإن صادف أن وقعت أعينهم أثناء حديثهم عليّ، بدا وكأنّهم يرون فراغاً، كما لو أنّهم إما لم يروني، وإمّا رغبوا جداً في أن يبدو الأمر كذلك. من غير المحبّذ، أيضاً، أن أسير خلفهم فأبدو كأني أقرّ بدونيّتي؛ لأني في الحقيقة عددتُ نفسي تقريباً جيدة كأفضلهم، ورغبتُ في أن

يعرفوا ذلك، وألا يتصوروا أنّي عددتُ نفسي محض خادم تعرف مقامها جيداً معرفةً تمنعها من المشي مع آنسات وسادة رفيعي المقام مثلهم، مع أنَّ آنستيها الصغيرتين قد ترغبان في وجودها معهما، بل حتى تتنازلان وتتحدثان معها حين لا تتوافر صحبة أفضل. لذلك أنا تقريباً خجلة من الاعتراف بذلك، لكني، بطبيعة الحال، لم أتعب نفسي ولو تعباً بسيطاً في مساعيّ (هذا إن كنتُ قد واصلتُ فيها) لأن أظهر بمظهرٍ غير الواعية تماماً أو اللامبالية بحضورهم، كما لو كنتُ مستغرقة تماماً في تفكيري، أو تأمل الأشياء المحيطة، أو إن تباطأتُ خلفهم، فإنّ ما يلفت انتباهي هو طائر أو حشرة ما، شجرة أو زهرة، وبعد أن عاينتُها كما ينبغي، أواصل سيري وحدي، بسرعةٍ متمهلة، إلى أن تودّع طالبتاي رفقاءهما، وتخرجان نحو الطريق الخصوصي الهادئ.

أتذكر مناسبة كهذه تذكراً خاصّاً: بعد ظهرٍ بهيج نحو نهاية آذار/مارس، أرسل السيد غرين وأختاه عربتهم عائدة فارغة، ليستمتعوا بأشعة الشمس المشرقة والجو المعتدل في تمشية مؤنسة يعودون فيها إلى البيت مع زوارهم؛ النقيب فلان والملازم فلان الآخر (العسكريين شديدي التأنق في الملبس) والآنستين مري اللتين، بطبيعة الحال، وجدتا طريقة للانضمام إليهما. مجموعة كتلك سارَّة لروزالي جدّاً، لكني لم أرها سارَّة لي بالمقدار ذاته، تراجعتُ فوراً، وشرعتُ أدرس النباتات، وأدرس الحشرات على طول ضفاف النهر الخضراء والوشائع المتبرعمة حتى أضحت الرفقة على مسافة كبيرة أمامي، واستطعتُ سماع الغناء العذب للقبرة السعيدة، ثم بدأ شعوري ببغض البشر يتلاشى تحت الجو المعتدل الصافي، وأشعة الشمس اللطيفة، لكن ظهرت، بدلاً من ذلك، أفكار حزينة من بواكر الطفولة، ولهفة للأفراح الماضية أو لنصيب مستقبلي أشد إشراقاً. أثناء ما كانت عيناي تجولان حول ضفاف النهر المنحدرة المكسوة بالعشب النابت حديثاً والنباتات ذات الأوراق النضرة التي تعلوها الوشائع المتبرعمة، تقتُ توقاً شديداً إلى زهرة مألوفة قد تذكّر بالوديان المُدغلة أو جوانب التلال المكسوة بالعشب في الديار. كانت الأرض البراح البنية، بطبيعة الحال، غير واردة إطلاقاً. اكتشاف كهذا سيجعل عيني تفيضان ماء، لا شك، لكنّ ذلك إحدى أعظم متعي الآن. لمحتُ أخيراً، عالياً بين جذور ملتوية لشجرة بلوط، ثلاث زهرات ربيعية جميلة، تلوح بعذوبةٍ شديدة من موضع اختبائها حتى إن دموعي انهملت بالفعل من المنظر، لكنّها نبتت عالياً جداً فوقي. حاولتُ عبثاً أن أجمع واحدة أو اثنتين لأحلم بها وأحملها معي. لم أستطع أن أطولها إلا إذا تسلقتُ ضفة النهر، الأمر الذي انثنيتُ عن فعله لسماعي وقع أقدام في اللحظة ذاتها خلفي، وأوشكتُ إثر ذلك أن أدير وجهي، حين أجفلتني الكلمات: «اسمحي لي بجمعها لكِ، يا آنسة غري» قيلت بنبرة

وقورة، خفيضة لصوتٍ معروف. جُمِعَت الزهور فوراً، وأضحت في يدي. إنه السيد وستن، بطبيعة الحال. مَن غيره قد يزعج نفسه ليفعل الكثير لأجلي؟

شكرتُه. لا أعرف إن شكرتُه بحرارة أو ببرود، لكني متيقنة من أني لم أعبر عن نصف الشكران الذي شعرتُ به. لعل من الغباء أن أشعر بالشكران أصلاً، لكن بدا لي في تلك اللحظة أنّ ذلك شاهد استثنائي على لطفه، فعلٌ بدافع الطيبة لم أستطع أن أجازيه عليه، لكن لن أنساه أبداً. لم أعتد إطلاقاً على تلقّي مثل تلك الكياسة، ولم أستعد إلا قليلاً لتوقعها من أيّ شخص في حدود خمسين ميلاً من هورتن لودج. لكنّ هذا لم يمنعني من الشعور بالقليل من عدم الارتياح في حضرته، وتقدمتُ لتتبع طالبتَي بسرعة أكبر من ذي قبل، رغم أنّه ربّما لو فهم السيد وستن التلميح، وتركني أعبر من دون كلمة أخرى، ربما كنتُ لأعيد الكرة بعد ساعة، لكنّه لم يفعل. ما عددتُه سيراً سريعاً نوعاً ما هو سيره العادي.

قال: «آنستاكِ الصغيرتان تركتاكِ وحدكِ».

«أجل، إنهما مشغولتان برفقةٍ أكثر أنساً».

«إذاً. لا تزعجي نفسكِ باللحاق بهما». خففتُ سرعتي، لكني ندمتُ على ذلك في اللحظة التالية. لم يتحدث رفيقي، ولم يكن عندي من شيء لأقوله إطلاقاً، وخشيتُ أن يكون في المأزق ذاته. لكنّه، أخيراً، كسر الصمت بسؤاله بفجائية هادئة محدّدة يتميّز بها إن كنتُ أحبّ الزهور.

أجبتُ قائلة: «أجل. كثيراً، ولاسيما الزهور البرية».

قال: «أحبُّ الزهور البرية. أمّا غيرها فلا أبالي بها؛ لأنها لا ترتبط في ذهني بشيء محدّد، عدا واحدة أو اثنتين. ما هي زهوركِ المفضلة؟».

«زهور الربيع، زهور الجريس، زهور الخلنج».

«ليست البنفسج؟».

«لا. لأنه كما قلتَ لا ترتبط في ذهني بشيء محدد؛ لأنه ما من زهور بنفسج جميلة بين التلال والوديان المحيطة بالديار».

علق مرافقي قائلاً بعد صمت قصير: «لا بد من أنه عزاء عظيم لكِ أن يكون لكِ بيت يا آنسة غري، بغضّ النظر عن بُعده أو ندرة زياراتكِ له، ما زال شيئاً تعتمدين عليه».

«إنّه كذلك إلى الحدّ الذي أظنّ أنني غير قادرة على العيش من دونه». أجبتُ بحماسة ندمت عليها فوراً، لأني رأيتُ أن ما قلتُه لا بد من أنه بدا ساذجاً في ذاته.

قال بابتسامة مراعية: «بل يمكنكِ. الأربطة التي تربطنا بالحياة أمتن مما تتصورين أو مما قد يتصوره شخص لم يشعر بالقوة التي يمكن أن تُسحَب بها دون أن تنقطع. قد تكونين تعيسة بلا بيت، لكن، حتى أنتِ بوسعكِ أن تعيشي، وليس على نحو شديد التعاسة كما تفترضين. إنّ فؤاد المرء مثل المطاط، بوسع القليل من السعادة أن تملأه، لكن كثيرها لن يفجره. من تضايقه صغائر الأمور سيكفيه ما هو دون كبائرها حزناً. ثمّة في الأطراف الخارجية لأجسادنا قوّة أساس متأصّلة في ذاتها تقويها ضدّ العنف الخارجي. كلّ ضربة تهزّها سوف تقويها لضربة مستقبلية، مثلما يُنَخِّن العمل المتواصل جلد اليد، ويقوّي عضلاتها بدلاً من إضعافها، لذلك إنّ يوم كدح شاق قد يكشط راحة يد ليدي لن يخلف دمغة كبيرة على راحة يد حرَّاث قوي الاحتمال.

«أتحدث عن خبرة، جزءٌ منها خبرتي. مرَّ وقتٌ فكرتُ فيه كما تفكرين، في الأقل، كنتُ مقتنعاً تماماً بأنّ البيت وما فيه من عواطف هي الأشياء الوحيدة التي تجعل الحياة محتملة، لذلك إن حُرمتِ منها فسيصبح الوجود عبئاً يصعب تحمله، لكن الآن ليس لي بيت، إلا إن شرَّفتِ غرفتَي المؤجرتَين في هورتن بهذا الاسم، وفقدتُ في ما لا يزيد على اثني عشر شهراً مضت آخر وأعز أصدقائي الأوائل، ولكني لم أعش فحسب، بل إنّي لستُ محروماً بالكامل من الأمل والمتعة، حتى لهذه الحياة، إلا أنّه عليّ أن أقرّ بأنّي من النادر أن أدخل حتى كوخاً متواضعاً في نهاية اليوم، وأرى سكانه مجتمعين بسلام حول موقدهم المبهِج من دون أن أشعر تقريباً بالحسد من متعتهم العائلية».

قلتُ: «أنتَ لا تعرف ما السعادة التي تنتظرك بعد. أنت الآن في بداية رحلتك فحسب».

أجاب قائلاً: «أفضل السعادة هي ملكي بالفعل؛ القوة والعزم على أن أكون مفيداً».

اقتربنا الآن من مرقى يتّصل بممرّ مشاة يؤدي إلى بيت مزرعة، حيث، بحسب ما أفترض، صمم السيّد وستن على أن يجعل نفسه «مفيداً» لأنّه غادرني فوراً، وعبَر المرقى، واجتاز الممرّ بمشيته المرنة، القوية المعتادة، تاركاً إيّاي لأفكر مليّاً بكلماته وأنا أواصل مساري وحدي. سمعتُ سابقاً أنه فقد أمّه ليس قبل أشهر كثيرة من مجيئه. هي، إذاً، آخر وأعز أصدقائه الأوائل، ولم يكن له منزل. أشفقتُ عليه من قلبي، كدتُ أبكي من التعاطف. ورأيتُ أن هذا

يفسر مسحة عمق التفكير المبكر التي كثيراً ما تعلو محياه، وأكسبته سمعةَ ذي المزاج الكئيب والنكد من المتلطّفة في حكمها على الناس الآنسة مري وكلِّ أقربائها. فكرتُ: «لكنه ليس تعيساً جدّاً كما كنتُ لأكون تحت حرمان كذاك. إنه يعيش حياة نشِطة، ويمتد أمامه حقل واسع للجهد المفيد. بوسعه تكوين أصدقاء، وبوسعه إنشاء منزل أيضاً، إن رغب في ذلك، ولا شك في أنه سيرغب في ذلك ذات يوم. عسى الله أن يجعل شريكته في ذلك المنزل مستحقة لاختياره، ويجعله منزلاً سعيداً، منزلاً يستحقّ أن يحظى به! وما أكثر ما سيكون مبهجاً أن...»، لكن لا يهمّ ما الذي أعتقده.

بدأتُ هذا الكتاب بنيّة ألا أخفي شيئاً، ليتمعّن أولئك الذين يرغبون في قلب أخت لهم في الإنسانية، لكنّنا نمتلك بعض الأفكار التي مرحّب بكلّ الملائكة في الجنة أن تشاهدها، لكن ليس إخوتنا في الإنسانية، ولا حتى أفضلهم وألطفهم.

كان آل غرين، في حلول ذلك الوقت، قد عادوا إلى دارهم، وعاد آل مري إلى الطريق الخصوصي؛ حيث أسرعتُ للحاق بهما. وجدتُ الفتاتين تتحدثان بحرارة في مناقشة حية عن المزايا الخاصة بكلّ من الضابطين الشابين، لكن حين رأتني روزالي قطعت حديثها في منتصف الجملة لتهتف قائلة بمرح خبيث:

«أوه-هو، آنسة غري! جئتِ أخيراً، ألم تفعلي؟ لا عجب من أنكِ تباطأتِ خلفنا لوقت طويل، ولا عجب من أنك دائماً تدافعين عن السيد وستن بقوة حين أشتمه. أهَّا! لقد فهمتُ الأمر برمته الآن!».

قلتُ محاولةً أن أضحك ضحكة لطيفة: «كفاكِ الآن يا آنسة مري. لا تكوني سخيفة، تعرفين أنّ مثل هذا الهراء لا يؤثّر فيَّ».

لكنّها، استمرّت بالحديث عن أمور لا تطاق، وأختها تساعدها باختلاقها قصصاً ملائمة للمناسبة، حتى إني رأيتُ أنّ من اللازم أن أقول شيئاً دفاعاً عن نفسي.

هتفتُ قائلة: «ما أغبى كلّ ما تقولانه! إن صادف أن طريق السيد وستن هو طريقي ذاته لبضعة أمتار، وإن رغب في تبادل كلمة أو كلمتين أثناء العبور، فما الاستثنائي في ذلك؟ أؤكّد لكما أنّي لم أحدّثه قبلاً قط، عدا مرة واحدة».

صاحتا بلهفة قائلتين: «أين؟ أين؟ ومتى؟».

«في كوخ نانسي».

هتفت روزالي قائلة: «أهَّا! قابلتِه هناك، أليس كذلك؟»، ضاحكةً ضحكة جذلة: «آه! الآن، يا ماتلدا، اكتشفتُ لماذا هي مولعة بالذهاب إلى كوخ نانسي براون! إنّها تذهب هناك لتغازل السيد وستن».

«حقاً. هذا زعمٌ لا يستحقّ أن أعارضه، أقول لكِ إني رأيتُه هناك مرّة فقط، وكيف لي أن أعرف أنه كان سيأتي؟».

منزعجةً كما كنتُ من مرحهما السخيف وإيحاءاتهما المغيظة، لم يطل ارتباكي طويلاً؛ حين فرغتا من ضحكهما، عادتا مجدداً إلى القائد والملازم، وأثناء ما كانتا تتجادلان وتعلقان عليهما، هدأ سخطي سريعاً، ونُسِي سببه سريعاً، وأعدتُ أفكاري إلى مجرى ألطف. هكذا تقدّمنا فوق الميدان، ودخلنا القصر، وأثناء صعودي السلالم إلى حجرتي، لم تشغل تفكيري إلا فكرة واحدة؛ امتلأ قلبي إلى حدّ الفيضان بأمنية واحدة جدية. بعد أن دخلتُ الحجرة، وأغلقتُ الباب، ركعتُ على ركبتي، وصليتُ صلاة متقدة، لكنّها غير متهورة. جاهدتُ لأقول طوال الصلاة: «لتكن مشيئتك»، لكن «أبي، كلّ شيء مستطاع لديك، ولتكن مشيئتك» تلتها بالتأكيد. تلك الأمنية، تلك الصلاة، كان كلٌّ من الرجال والنساء ليحتقروني بسببها، قلتُ: «لكن يا أبي لا تحتقرها»، وأيقنتُ أنَّه لن يحتقرها. بدا لي أنَّه ينبغي أن يكون التوسل إلى الله باتقادٍ ليهب شخصاً آخر الخير باتقاد توسلي إليه ذاته. لا. بل تلك هي الغاية الأساس لرغبة قلبي. ربما كنتُ أخدع نفسي، لكن منحتني تلك الفكرة الثقة لأطلب، والقوة لآمل، أني لم أطلب عبثاً. أما زهور الربيع، فأبقيتُ اثنتين منها في كأس في حجرتي حتى ذبلتا تماماً ورمتهما الخادم، وضغطتُ بتلات الأخرى بين أوراق إنجيلي، ما زلتُ محتفظة بهما، وأنوي الاحتفاظ بهما دائماً.

14

الكاهن

كان اليوم التالي كالذي سبقه حُسناً؛ فسريعاً بعد الفطور، بعد أن أسرعت الآنسة ماتلدا، وتخبطت في بضعة دروس عديمة الجدوى، وانتقمت من البيانو بضربه لساعة، مستاءةً جداً مني ومنه؛ لأن أمّها لن تعطيها إجازة. ذهبت لارتياد أماكنها المفضلة: الزريبة، الإسطبل، وجار الكلاب. وذهبت الآنسة مري خارجاً لتستمتع بنزهة هادئة مع رفيق أنيق جديد، تاركةً إياي في حجرة الدرس أعمل على رسمة ألوان مائية وَعَدْتُها بأن أتمها لها، وأصرَّت عليّ أن أنهيها ذلك اليوم.

رقد تحت قدميَّ كُليبٌ صغير قاسي الشعر. كان ملكِ الآنسة ماتلدا، لكنّها كرهت الحيوان، ونوت بيعه، مدّعية أنه مدلل جداً؛ إنه حقاً كلب فريد من نوعه، لكنها أكدت أنه لا يصلح لشيء، وليس لديه القدرة حتى على تَبَيُّن مالكته.

الحقيقة أنّها اشترته وهو جرو صغير، مصرّة في البداية على ألا يلمسه أحد عداها، لكنها سئمت سريعاً من الصغير العاجز والمزعج حتى أذعنت بسرور لتوسلاتي بأن يُسمح لي أن أكون مسؤولة عنه، وأنا لتربيتي المخلوق الصغير بعناية شديدة من طفولته إلى مراهقته، حزتُ، بطبيعة الحال، حبه، وتلك مكافأة وجبَ أن أقدرها تقديراً عظيماً، وأنظر إليها كأنّها تجازي كلّ التعب الذي تعبته معه، لو أنّ مشاعر سناب المسكين الممتنة لم تعرضه للكثير من الكلمات القاسية والركلات والقرصات الخبيثة من مالكته، ولو أنه لم يكن الآن معرضاً لخطر أن «يُقتَل» عاقبة لذلك، أو يُنقَل إلى مالك قاسٍ متحجر الفؤاد. لكن ماذا عساي أفعل؟ ما كان لي أن أقسو على الكلب ليكرهني، وهي لن تسترضيه باللطف.

لكن جاءت، وأنا جالسة أرسم بريشة الرسام باجتهاد، السيدة مري، نصف ماشية بوقار، ونصف منطلقة، إلى الحجرة.

شرعتْ في الكلام قائلة: «يا آنسة غري، ربَّاه! أنَّى لكِ الجلوس والرسم في يوم كهذا؟»، (ظنَّتني أرسم تسليةً لنفسي)، «أتساءل لماذا لا تعتمرين قلنسوتكِ وتخرجين مع الآنستين الصغيرتين».

«يا سيدتي، أظنّ أن الآنسة مري تقرأ، والآنسة ماتلدا تسلّي نفسها مع كلابها».

«لو حاولتِ تسلية الآنسة ماتلدا بنفسكِ أكثر قليلاً، أظنّها ما كانت لتبحث عنها بصحبة الكلاب والأحصنة وسائسي الخيل قدرَ ما تفعل، ولو أنكِ أصبحتِ أكثر بقليل مرحة وحلوة الحديث مع الآنسة مري، لما ذهبت غالباً لتتجوّل في الحقول حاملة كتاباً في يدها»، ثم أضافت قائلةً: «لكن لا أريد إغاظتكِ» حين رأت، بحسب ما أفترض، أنّ خدّيَّ اتقدا ويديّ ارتعشتا بفعل شعور غير لطيف. «أرجوكِ حاولي ألا تكوني حسَّاسة جدّاً، وإلا فسيتعذر عليّ حينها التحدّث معكِ. وأخبريني إن كنتِ تعرفين إلى أين ذهبت روزالي، وما لها تحبُّ أن تكون بمفردها تماماً؟».

«قالت إنّها تحبّ أن تكون بمفردها حين يكون لديها كتاب جديد لتقرأه».

«لكن لماذا لا يمكنها قراءته في الميدان أو الحديقة؟ لماذا عليها الذهاب إلى الحقول والمجازات؟ وكيف يصادف أن يجدها السيد هاتفيلد ذاك غالباً؟ أخبرتني الأسبوع الفائت أنّه كان يُمَشِّي حصانه بجانبها طوال مجاز موس، والآن أنا متيقنة من أنّه هو من رأيتُه من نافذة حجرة تغيير الملابس يسير بسرعة إلى ما وراء بوابة الميدان نحو الحقل؛ حيث كثيراً ما تذهب. أرجو أن تذهبي وترَي إن كانت هناك، وأن تذكّريها برفق فحسب بأنّ ليس من اللائق لآنسة صغيرة من مقامها وما هو مأمول لها أن تتجوّل وحدها بتلك الطريقة، مُعرضةً لملاطفات أيّ أحدٍ يجرؤ على الحديث معها، مثل فتاة مسكينة مُهمَلة ليس عندها ميدان تسير فيه ولا أصدقاء يعتنون بها، وأخبريها أنّ أباها سيغضب بشدة إن عرف أنّها تعامل السيد هاتفيلد بالطريقة الحميمية التي أخشى أنّها تعامله بها. و... أوه! لو أنَّ لكِ، لو أنّ لأي مربّية نصف يقظة الأم، نصف عناية الأم القلقة لكُفيتِ العناء، وستدركين فوراً ضرورة مراقبتها، وتجعلين صحبتكِ مؤنسة لـ... حسناً اذهبي... اذهبي، ما من وقت لتضييعه». صاحت قائلة حين رأتني وضعت جانباً لوازم رسمي، منتظرة في المدخل حتى انتهاء حديثها.

وفقاً لتكهناتها، وجدتُ الآنسة مري في حقلها المفضّل خارج الميدان مباشرة، ولسوء الحظ ليست وحدها؛ لأن جسد السيد هاتفيلد الطويل الضخم يمشي الهوينى بجانبها.

هنا أحجية لي، فواجبي أن أقاطع حديثهما الخاص، لكن كيف عساي أفعل ذلك؟ لا يمكن لشخص غير ذي أهمية مثلي إبعادَ السيد هاتفيلد، وأن أذهب وأمشي في الجانب الآخر للآنسة مري، وأفرض حضوري غير المرحب به عليها من دون أن أعير رفيقها انتباهاً،

لهي وقاحة لم يكن بوسعي أن اَتَّهَمَ بها، ولم أملك الشجاعة لأن أصيح من أعلى الحقل أنّها مطلوبة في مكان آخر؛ لذا انتهجتُ المنهج الوسط بالسير ببطء، لكن، بثبات نحوهما، عازمة في حال فشل اقترابي في إخافة العاشق على أن أمرّ وأخبر الآنسة مري أن أمها تريدها. بدت، لا شك، جميلة جداً وهي تتمشى، تمشي الهوينى تحت أشجار كستناءِ الحصان المتبرعمةِ ذات الأذرع الطويلة الممتدة على سياج الميدان، حاملة كتابها المغلق بيدٍ، وباليد الأخرى عسلوج آس جميل اتخذته لعبةً جميلة جداً، تفرُّ عقصاتها اللامعة بغزارة من قلنسوتها الصغيرة، ويُحركها النسيم برقة، خدُّها الصافي يتورّد بغرور مُشبَع، عيناها الزرقاوان الباسمتان، اللتان تارة ترمقان بخبثٍ مُعجبَها، وتارة تحدقان في عسلوج آسِها. لكن سناب، راكضاً أمامي، قاطعها في منتصف ما كان دردشةً شبه وقحة، شبه لعوب، بإمساك فستانها وشدّه بحماسة إلى أن ضربَ السيد هاتفيلد بعصاه ضربة مدوّية رأس الحيوان أرسلته يعوي عائداً إليّ بصيحات صاخبة أمتعت السيد الموقَّر أيَّما إمتاع، لكن برؤيته لي قريبة جداً، أفترض أنّه فكّر في أنه يجدر به المغادرة، وأثناء ما توقفتُ لأمسد الكلب بشفقة لافتة الأنظار لأظهر معارضتي لقسوته، سمعتُه يقول: «متى سأراكِ مجدداً يا آنسة مري؟».

ردت قائلة: «في الكنيسة، أفترض، إلا إن صادف أن يأتي بك عملك هنا مجدداً في اللحظة ذاتها التي يصادف أن أكون فيها مارَّة».

«يمكنني أن أتدبر أن يكون لي دائماً عمل هنا، إن عرفتُ بدقة متى وأين أجدكِ».

«لكن لو كنتُ أعرف لما تمكنتُ من إخبارك؛ لأني غير منهجية إطلاقاً. لا يمكنني أن أعرف اليوم إطلاقاً ما سأفعله غداً».

«لكن لو كنتُ أعرف لما تمكنتُ من إخبارك؛ لأني غير منهجية إطلاقاً. لا يمكنني أن أعرف اليوم إطلاقاً ما سأفعله غداً».

قال نصفَ هازلٍ ونصفَ جادٍ: «إذاً، أعطِنِي هذا، في الوقت الحالي، لمواساتي»، مادّاً يده إلى عسلوج الآس.

«لا. من المؤكد أني لن أفعل».

«افعلي! أرجوكِ افعلي! سأكون أتعس امرئ على وجه البسيطة إن لم تفعلي. لا يمكن أن تكوني بتلك القسوة لتحرميني مِنَّةً من السهل منحها، لكنها مقدَّرة جدّاً!». توسل توسلاً شديداً كما لو كانت حياته تعتمد على ذلك.

كنتُ، في ذلك الوقت، واقفة على بعد بضعة أمتارٍ عنهما، منتظرة بنفاد صبر مغادرته.

قالت روزالي: «هاك إذاً! خذه وارحل!».

تلقى الهدية بسعادة، همس بشيء جعلها تحمرّ وترفع رأسها فجأة في حركة تعبّر عن غضبها، لكنها، بضحكة صغيرة، كشفت أنّ استياءها برمته كان مصطنعاً، ثم بعد قولها تحيةً لطيفة ذهبت.

قالت ملتفتةً إلي: «أشاهدتِ قطُّ رجلاً كهذا يا آنسة غري؟ أنا سعيدة جداً لأنكِ أتيتِ! ظننتُ أني لن أتخلّص منه أبداً، وكنتُ خائفة جداً من أن يبصره بابا».

«أكان معكِ منذ وقتٍ طويل؟».

«لا. ليس منذ وقت طويل، لكنه وقح جداً، وهو دائماً يتسكع متظاهراً بأن عمله أو واجباته الإكليركية تتطلب حضوره في تلك المناطق، لكن الحقيقة أنه يبحث عني أنا المسكينة، وينقض علي في اللحظة التي يراني فيها».

«ترى أمكِ أنه لا ينبغي عليكِ الذهاب خارج الميدان أو الحديقة من دون شخص عاقل رزين مثلي ليصحبكِ، ويبعد عنكِ كلّ المتطفلين. لقد لمحتِ السيدَ هاتفيلد يسرع إلى ما وراء بوابة الميدان، وأرسلتني على الفور بتعليمات للبحث عنكِ وللاعتناء بكِ، وأيضاً لتحذير...».

«ماما مضجرة جدّاً! كأني لا أستطيع الاعتناء بنفسي. لقد أزعجتني قبلاً بشأن السيد هاتفيلد، وأخبرتها أنّ بوسعها أن تثق بي، فلن أنسى أبداً منزلتي ومقامي لأشدّ رجل خُلِق إبهاجاً. أتمنى أن يركع على ركبته غداً ويتوسل إليّ لأصبح زوجه، ليتسنّى لي أن أريها ما أكثرَ خطأ ظنّها أنّي قد... إنّ هذا يغيظني جداً! أن تظنّ أني قد أكون حمقاء إلى درجة الوقوع في الحُب! إن فعل ذلك فهو أمر يحطّ من كرامة المرأة. الحُب! إنّي أمقت الكلمة! حين تنطبق على واحدة من النساء فإنّي أعدّها إهانة مثالية. قد أقرُّ بالتفضيل، لكن ليس لمسكين مثل السيد هاتفيلد لا يملك سبعمئة سنويّاً يتنعّم بها. أحبُّ الحديث معه؛ لأنه ذكي جدّاً ومسلٍّ. أتمنى لو أنّ السيد توماس آشبي كان بنصف لطفه. إلى جانب ذلك، يجب أن يكون عندي رجلٌ ألاطفه، ولا أحد آخر لديه القدرة ليأتي إلى هنا، وحين نخرج، لا تسمح لي ماما بأن ألاطف أحداً سوى السيد توماس إن كان هناك، وإن لم يكن هناك فلا مناص لي من الامتثال، خوفاً من أن يذهب أحدهم ويختلق قصة مبالغاً فيها ويقنعه بأني مخطوبة، أو محتمل أن أخطَب لشخص آخر، أو ما هو مرجح أكثر، خوفاً من أنّ أمه العجوز البغيضة قد

ترى أو تسمع عن أفعالي، وتخلص إلى أني لستُ زوجاً مناسبة لابنها الممتاز، كما لو أنَّ الابن المذكور ليس بأعظم لعوبٍ في العالم المسيحي، أو كما لو أنَّ أيّ امرأةٍ محترمة ليست بأفضل منه أضعافاً».

«أحقّاً ما تقولين، يا آنسة مري؟ وهل أمكِ على علم بذلك، ورغم ذلك ترغب منكِ أن تتزوجيه؟».

«من المؤكد أنها تفعل! أنا موقنة أنها تعرف مثالبه خيراً مني. إنّها لا تذكرها لي خوفاً من تثبيطي، دون أن تعرف مدى قلّة اكتراثي بمثل تلك الأشياء؛ لأنه ليس بالأمر الجلل حقّاً، سيتحسن حين يتزوج، كما تقول ماما، والخُلَعاء المُقَوَّمون هم خير الأزواج، الكلّ يعرف ذلك. أتمنّى فقط لو أنّه لم يكن قبيحاً جدّاً، هذا كلّ ما أفكّر فيه، لكن ما من خيار هنا في الريف، ولن يسمح لنا بابا بالذهاب إلى لندن...».

«لكنّي أرى أنَّ السيدَ هاتفيلد سيكون خيراً لكِ».

«وهو كذلك لو أنَّه كان اللورد آشبي بارك، لا جدال في ذلك، لكن الحقَّ أنّ عليَّ امتلاك آشبي بارك، أيّاً كان من سيشاركها معي».

«لكن السيد هاتفيلد يظنُّ أنكِ تحبينه طوال هذا الوقت، ألا تفكّرين في مدى خيبة أمله حين يكتشف أنه مخطئ».

«لا، بطبيعة الحال!، ستكون عقوبة ملائمة على وقاحته، على جرأته في أن يظنّ أني قد أحبه. لن يمتعني شيء قدرَ ما سيمتعني رفع الستار عن عينيه».

«كلّما أسرعتِ في فعل ذلك كان خيراً».

«لا. أنا أقول لكِ أحبّ أن أمتع نفسي معه. إلى جانب ذلك، هو لا يعتقد حقاً أني أحبه. أنا أتدبر الأمر على خير وجه بهذا الشأن. أنتِ لا تعرفين شدّة دهائي. قد يجرؤ على أن يظن أن بوسعه إغرائي لأعجب به؛ الأمر الذي ينبغي لي أن أعاقبه عليه عقاباً يستحقه».

أجبتُ قائلة: «احرصي على ألا تتمادي في عقابكِ له على جرأته. هذا كل ما في الأمر».

لكن عبثاً كانت كل نصائحي، فقد جعلَتها فقط نوعاً ما تواقة أكثر إلى إخفاء رغباتها وأفكارها عني. ما عادت تحدثني عن الكاهن، لكن كان بإمكاني أن أرى أن ذهنها، إن لم يكن قلبها، ما زال مشغولاً به، وأنها كانت مصممة على أن تقابله كرة أخرى، فرغم امتثالي لأمر أمها، عُيِّنتُ الآن رفيقة نزهاتها بعض

الوقت، فما زالت تواصل التجول في الحقول والمجازات بقرب الطريق، وسواء أتحدثت معي أم قرأت الكتاب الذي تحمله في يدها، كانت تتوقف على نحو متواصل لتنظر حولها، أو تحدق في الطريق لترى إن كان أحدهم قادماً. وإن خبَّ حصان فارس بقربها أمكنني أن أعرف من شتمها المفرط للفارس المسكين، أياً كان، أنها كرهته لأنه ليس السيد هاتفيلد.

فكرتُ: «من المؤكد أنها ليست غير مبالية به تماماً كما تعتقد أو كما تريد لغيرها أن يعتقد، وقلق أمها ليس بلا سبب تماماً كما تؤكد هي».

مرت ثلاثة أيام، ولم يظهر. في ما بعد ظهيرة اليوم الرابع، ونحن نسير بجانب سياج الميدان في الحقل الجدير بالذكر، وكلٌّ منّا مزودة بكتاب (لأني حرصتُ دائماً على أن أزود نفسي بشيء أفعله حين لم تكن تطلب مني الحديث)، قاطعت قراءتي فجأة هاتفة:

«أوه، يا آنسة غري! تلطفي واذهبي لزيارة مارك وود، وخذي لزوجه شلنين ونصف الشلن من أجلي، كان يفترض بي إعطاؤها أو إرسالها قبل أسبوع، لكني نسيتُ تماماً. هاكِ!» قالت، راميةً إليّ جزدانها، ومتحدثةً بسرعة: «لا تكترثي بإخراجها الآن، بل خُذي الجزدان وأعطيهم ما تشائين، كنتُ لأذهب معكِ، لكني أريد إنهاء هذا المجلد. سآتي وألقاكِ حين أنتهي منه، أسرعي، هلَّا فعلتِ، و... أوه، انتظري، ألا يستحسن بكِ أن تقرئي له؟ اهرعي إلى البيت واجلبي كتاباً ما جيداً، أيّ كتاب سيفي بالغرض».

فعلتُ ما طُلِب مني، لكن، مرتابةً من تصرفها المتعجل وبغتة طلبها، حدقتُ إلى الخلف فقط قبل أن أغادر الحقل، وهناك كان السيد هاتفيلد على وشك أن يدخل من البوابة في الأسفل. بإرسالي إلى البيت لجلب كتاب، منعتْ بذلك بصعوبة مقابلتي له في الطريق.

فكرتُ: «لا يهم! لن يحدث ضرر كبير، سيسعد مارك المسكين بالشلنين ونصف الشلن، وربما بالكتاب الجيد أيضاً، وإن سرق الكاهن قلب روزالي فإن ذلك سيخفف من كبريائها قليلاً، وإن تزوجا في النهاية فإن ذلك سينقذها فحسب من مصير أسوأ، وستكون شريكة جيدة كفاية له، وهو لها».

كان مارك وود العامل المصاب بالسل، الذي ذكرتُه سابقاً، يضعف سريعاً الآن. حازت الآنسة مري، بسخائها، صدقاً، استحسانَه هو الذي على وشك أن يقضي نحبه، فرغم أنَّ الشلنين ونصف الشلن لن ينفعاه إلا نفعاً يسيراً، كان سعيداً بهما من أجل زوجه وأطفاله، الذين سيغدون قريباً أرملةً وأيتاماً. بعد أن جلستُ بضع دقائق، وقرأتُ قليلاً لمواساته وتثقيفه وزوجه المحزونة، غادرتهم، لكني لم أتقدم خمسين ِمتراً قبل أن أصادف السيد وستن، على ما يبدو متجهاً

إلى الدار ذاتها. حياني بأسلوبه المعتاد الهادئ، غير المتكلف، توقف ليستفسر عن وضع الرجل المريض وأهله، وأخذ بأسلوب غير واعٍ نوعاً ما، مهملاً الرسميات إهمالاً أخويّاً، الكتابَ الذي كنتُ أقرأ منه، قلّب صفحاته، علق بضع تعليقات قصيرة، لكنّها حكيمة جداً، وأعاده، ثم أخبرني عن مريض مسكين ما قد زاره للتو، تحدث قليلاً عن نانسي براون، وأبدى بعض الملاحظات عن صديقي الصغير قاسي الشعر الكليب، الذي كان يرقص مرحاً تحت قدميه، وأخيراً عن جمال الجو، وغادر.

أهملتُ ذكر كلماته تفصيلاً، بسبب انطباع شخصي عن أنّها لن تهم القارئ مثلما أهمّتني، وليس لأنّي نسيتُها. لا. فأنا أتذكّرها جيداً؛ لأني فكرتُ فيها مراراً وتكراراً مجدداً خلال ذلك اليوم والكثير من الأيام التي تبعته، لا أعرف كم مرة، وتذكرتُ كلَّ ارتفاع وانخفاض في طبقة صوته الخفيض الواضح، كلَّ طرفة من طرفات عينه السريعة البنية، وكلَّ بارقة من بوارق ابتسامته العذبة، لكن الزائلة سريعاً جداً. أخشى أنّ اعترافاً كهذا سيبدو سخيفاً جدّاً، لكن، بغض النظر، لقد كتبتُه، والذين يقرؤونه لن يعرفوا كاتبته.

أثناء ما كنتُ أسير، سعيدةً من الداخل، وراضيةً بكلّ ما حولي، جاءت الآنسة مري مسرعةً لملاقاتي، تُظهر خطواتها المرحة، وخداها المتوردان، وابتساماتها المشرقة، أنّها سعيدة أيضاً بطريقتها الخاصة. راكضةً نحوي، لفّت ذراعها بذراعي، ومن دون أن تنتظر لتستردّ أنفاسها، شرعت تقول: «الآن، يا آنسة غري، عدّي نفسكِ مكرمةً تكريماً عظيماً؛ لأني جئتُ أطلعكِ على أخباري قبل أن أنطق بحرف منها لأيّ أحدٍ آخر».

«حسناً. ما الأمر؟».

«أوه. يا لها من أخبار! في المقام الأول، عليكِ أن تعرفي أن السيد هاتفيلد صادفني بُعَيد مغادرتكِ. كنتُ في حالة يُرثى لها بسبب خوفي من أنّ بابا أو ماما قد يريانه، لكنّكِ تعرفين أنه لم يكن بوسعي مناداتكِ مجدداً، ولذا! أوه يا لطيف! لا يمكنني إخباركِ الأمر كلّه الآن؛ لأني أرى ماتلدا هناك في الميدان، لكن عليّ أن أذهب وأفضي إليها بالأمر، لكن كان هاتفيلد جريئاً جراءةً غير مألوفة، مجاملاً مجاملةً لا توصف، وحنوناً حناناً لم يسبق له مثيل. حاول أن يكون كذلك، على الأقل، لم ينجح نجاحاً جيداً في ذلك؛ لأن ذلك ليس طبعه. سأخبركِ بكلّ ما قاله في وقت لاحق».

«لكن ماذا قلتِ أنتِ؟ أنا مهتمّة أكثر بذلك».

«سأخبركِ بذلك، أيضاً، في وقتٍ ما في المستقبل، صادف أنّي كنتُ في مزاج جيّدٍ جداً حينها، لكن رغم أني كنتُ لطيفة ومهذبة كفاية، حرصتُ على ألا

أعرّض نفَسي للفضيحة بأيّ شكلٍ ممكن، لكن الحقير المغرور اختار أن يفسّر طبعي الودود على هواه، وأخيراً استغلّ تساهلي حتى الآن، ماذا تتوقعين؟ طلب يدي للزواج حقاً!».

«وأنتِ...».

«وقفتُ بشموخ، وعبّرتُ عن دهشتي من حادثة كهذه بأعظم رباطة جأش، ورجوتُ أنّه لم يرَ من تصرّفي شيئاً يبرّر له توقعاته. كان ينبغي عليكِ أن تري كيف تَجَهَّمَ وَجْهُهُ كَمَداً![20]

لقد شحب وجهه تماماً. أكدتُ له أنّي أحترمه وما إلى ذلك، لكنّي ليس من الممكن أن أوافق على طلبه، وإن وافقتُ، بابا وماما لا يمكن إقناعهما أبداً بالموافقة».

قال: «لكن، إن كان من الممكن إقناعهما، فهل سترفضين؟».

أجبتُ قائلة: «بالتأكيد يا سيد هاتفيلد». بعزمٍ رزين قمع آماله كلها فوراً. أوه، لو أنّكِ رأيتِ كيف كان خزيانَ على نحو مروّعٍ. كيف سحقته خيبة أمله أرضاً! حقاً. كدتُ أشفق عليه بنفسي.

«لكنّه حاول محاولة يائسة أخرى، فبعد صمتٍ دام برهة طويلة، برهة جاهد فيها ليظلّ هادئاً وأنا لأظلَّ وقورة؛ لأني شعرتُ برغبةٍ عارمة في الضحك كانت لتفسد كلّ شيء، قال، بشبه ابتسامة: «لكن أخبريني صراحةً، يا آنسة مري، لو كنتُ أملك ثروة السيد هيو ميلثام، أو الآمال الواعدة لابنه الأكبر، أكنتِ لتظلّي رافضةً إياي؟ أجيبيني بصدق، بشرفكِ».

قلتُ: «لا شك. لن يغير ذلك من الأمر شيئاً».

«كانت كذبةً عظيمة، لكن بدا أنه ما زال واثقاً جداً من جاذبيته ثقةً عزمتُ معها على ألا أترك له حجراً على حجر[21] . نظر إليّ بوجهه كاملاً، لكني حافظتُ على رزانتي جيداً حفاظاً لم يستطع معه أن يتصوّر أنّي أقول شيئاً عدا الحقيقة الحقة».

قال: «إذاً، أفترض أنّ كل شيء قد انتهى». وقد بدا كمن كان ليموت فوراً من غيظه وشدة يأسه، لكنه كان غاضباً إلى جانب كونه خائب الأمل. كان هو هناك؛ يعاني معاناة رهيبة، وكنتُ أنا هناك؛ السبب عديم الرحمة للأمر كله، لا أختَرقُ إطلاقاً من كلِّ مدافع وسامته وكلماته، رزينة ومفتخرة بهدوء شديد، حتى إنه لم يسعه إلا أن يشعر بشيء من الامتعاض، وشرع يقول وهو مستاء

استياءً استثنائيّاً: «أنا، بطبيعة الحال، لم أتوقع هذا يا آنسة مري، قد أقول شيئاً بشأن تصرفاتكِ السالفة، والآمال التي جعلتِني أنميها، لكنّي سأحجم عن ذلك، بشرط...».

قلتُ: «لا شروط يا سيد هاتفيلد!»، ساخطةً الآن حقَّاً على وقاحته.

أجاب قائلاً، خافضاً صوته فوراً، ومتحدثاً بنبرة أذل: «إذاً، دعيني أستجدي معروفاً. دعيني أتوسل ألا تذكري هذه العلاقة لأيّ أحد البتة. إن ظللتِ صامتةً بشأنها فلن يُزعَج أيٌّ من الطرفين، أعني لا شيء عدا ما لا يمكن تجنّبه تجنباً كاملاً؛ لأني سأحاول الاحتفاظ بمشاعري لنفسي إن لم أتمكن من إزالتها. سأحاول أن أغفر إن لم أستطع نسيان سبب عذاباتي. لن أفترض يا آنسة مري أنّكِ مدركة لعمق جرحكِ لي، لن أعدَّكِ مدركة لذلك، لكن إن -إضافة إلى الجرح الذي سببتِه لي سلفاً، اعذريني، لكن سواء أكنتِ جاهلةً أم عامدة، لقد جرحتِني- إن أضفتِ إليه إذاعتكِ لهذه العلاقة المؤسفة، أو ذكرها إطلاقاً، فستكتشفين أني أيضاً قادر على الكلام، ومع أنّكِ احتقرتِ حبي، فستكادين تحتقرين...».

«توقفَ، لكنّه عضّ شفته الشاحبة، وبدا ضارباً ضراوةً شديدة أذعرتني ذعراً شديداً، لكن كبريائي ثبتني، وأجبتُ بازدراء قائلة: «لا أعرف أيّ دافع تعتقد أنّي قد أملكه لأذكرها لأيّ أحدٍ يا سيد هاتفيلد، لكن إن كنتُ ميالة إلى فعل ذلك، فلن تثنيني عن ذلك بالتهديدات، وهذا يكاد يكون شيئاً قد يحاول رجل موقَّرٌ فعله».

قال: «اعذريني، يا آنسة مري. لقد أحببتُك حباً شديداً وما زلتُ أعشقكِ بعمق عشقاً يستحيل معه أن أهينكِ راغباً، لكن رغم أنّي لم أحبّ قط، ولن أقدر أبداً على أن أحبّ أيَّ امرأة مثلما أحببتكِ، فمؤكدٌ أنه لم تعاملني إحداهنّ معاملة سيّئة كهذه، بل على النقيض، لقد عددتُ النساء دائماً ألطف وأرقّ وأكثر مخلوقات الرب ميلاً إلى المساعدة، حتى هذه اللحظة». (تصوري الرجل المغرور وهو يقول ذلك!). «وجِدَّة الدرس الذي علمتني إياه اليوم وقسوته، ومرارة أن يخيب ظنّي في الشخص الوحيد الذي تعتمد عليه سعادة حياتي، ينبغي أن تكون عذراً لي على أيّ مظهر من مظاهر خشونتي». وأردف قائلاً: «إن كان وجودي يضايقكِ يا آنسة مري»، (لأني كنتُ أنظر حولي لأبيّن مدى قلّة اهتمامي به؛ لذا أفترض أنه ظنّ أني قد سئمتُ منه)، «إن كان وجودي يضايقكِ يا آنسة مري، فما عليكِ إلا أن تعديني بالمعروف الذي ذكرتُه، وسأريحكِ مني فوراً. هناك الكثير من الآنسات -بعضهنّ حتى في هذه الأبرشية- اللاتي سيسعدهنّ قبول ما دستِه تحت قدمكِ بازدراء شديد، سيملنَ، بطبيعة الحال، إلى كره مَنْ حُسنُها الفائقُ نفَّر تنفيراً كاملاً قلبي منهنّ وأعماني

عن حسنهنّ، وتلميحٌ واحد عن الحقيقة منّي لواحدة منهنّ سيكفي لإثارة أقاويل ضدّكِ ستؤذي إيذاءً شديداً آمالكِ الواعدة، وتقلّل من فرص نجاحكِ مع أيّ أسيادٍ موقَّرين آخرين قد تخطّطين أنتِ أو ماماكِ لتوريطه».

قلتُ: «ما قصدك يا سيدي؟»، متأهبةً لضرب الأرض بقدمي تعبيراً عن انفعالي.

«أقصد أنَّه يظهر لي أنَّ هذه العلاقة من مبتدئها إلى منتهاها هي غزلٌ محض، هذا أقلّ ما أصفه بها، وهو أمرٌ سترين أنَّه بالأحرى من غير اللائق أن يُذاع أمام الملأ، ولا سيما مع إضافات ومبالغات خصومكِ الإناث اللاتي سيسعدهنّ بشدة إذاعة الخبر إن أعطيتُهنّ فحسب فهماً للأمر، لكنّي أعدكِ وعد سيد موقَّر بأنَّه لا كلمة ولا حرفاً قد يعرّضكِ للإجحاف ستخرج من فمي، بشرط أن...».

قلتُ: «حسناً، حسناً. لن أذكرها، بوسعكَ أن تثق بصمتي، إن كان هذا سيمنحك أيّ عزاء».

«أتعدين بذلك؟».

أجبتُ قائلة: «أجل»؛ لأنّي أردتُ التخلّص منه الآن.

قال بأشدّ نبرة حزن وقنوط: «إذاً، وداعاً». وبنظرة جاهد فيها الكبرياء عبثاً ضد اليأس، استدار وغادر، تواقاً بلا شك إلى الرجوع إلى بيته ليغلق الباب على نفسه في حجرة مكتبه ويبكي، إن لم ينفجر باكياً قبل وصوله إلى هناك».

قلتُ: «لكن، ها قد أخلفتِ وعدكِ»، مذعورةً ذعراً شديداً من خيانتها الأمانة.

«أوه! أطلعتُك أنت عليه فحسب. أعرف أنكِ لن تذيعيه».

«يقيناً لن أذيعه، لكنّكِ قلتِ إنّكِ ستطلعين عليه أختكِ، وهي ستخبر أخويكِ حين يعودان وبراون فوراً إن لم تخبريها بنفسكِ، وبراون ستذيعه، أو ستكون وسيلة إذاعته عبر الريف».

«لا. من المؤكد أنها لن تذيعه. لن نطلعها عليه إطلاقاً، إلا تحت وعدٍ أشدِّ سريَّة صرامةً».

«لكن أنّى لكِ أن تتوقّعي منها الحفاظ على وعدها حفاظاً أفضل من آنستها المتنوّرة؟».

قالت الآنسة مري بفظاظة قليلاً: «حسناً، حسناً، ينبغي ألا تسمعه إذاً».

واصلتُ قائلةً: «لكنكِ ستخبرين أمكِ، بطبيعة الحال، وهي ستخبر أباكِ».

«من المؤكد أني سأخبر أمي. هذا أكثر ما يسعدني. سأقدر الآن على إقناعها بفداحة خطئها في خوفها عليَّ».

«أوه. هذا هو الأمر، أليس كذلك؟ تساءلتُ ما الذي جعلكِ تبدين سعيدة جدّاً».

«أجل. والسبب الآخر هو أني جعلتُ بنحوٍ ساحرٍ السيد هاتفيلد يتواضع، والسبب الآخر أن عليكِ أن تسمحي لي بحصة من الغرور الأنثوي، فأنا لا أتظاهر أنّي لا أمتلك تلك الصفة الأساس جداً لبنات جنسنا، ولو أنّكِ أبصرتِ توق هاتفيلد المسكين الشديد إلى إعلان تصريحه المتقد وعرضه الإطرائي للزواج، وعذاب ذهنه الذي لم تنجح أيّ محاولة من كبريائه في إخفائه بسبب رفضي له، لسمحتِ لي بأن أعدّ ذلك موجباً لسروري».

«أرى أنَّه كلّما زاد عذابه انبغى أن يقلّ ما يوجب سرورك».

صاحت الآنسة الصغيرة قائلة وهي ترتعش غيظاً: «هراء! إمّا أنّكِ غير قادرة على فهمي، وإمّا أنك لا ترغبين في ذلك، ولولا تيقّني من شهامتكِ لظننتُكِ تحسدينني، لكنّكِ في الأرجح ستفهمين سبب سروري الذي هو عظيم عظم غيره. أعني أنّي سعيدةٌ لتمتّعي بالتعقل، وضبط النفس، وانعدام الرحمة، إن شئتِ. لم أفاجأ ولو قليلاً، لم أرتبك ولو قليلاً، أو أتصرف بخرق أو حمق. تصرفتُ وتحدثتُ كما كان ينبغي لي، وكنتُ سيدة نفسي طوال الوقت. ووقف هناك رجل وسيم بلا جدال، تدعوه جين وسوزان غرين وسيماً وسامةً ساحرة، وأفترض أنهما آنستان من الآنسات اللاتي يزعم أنهنَّ سيسعدن جداً بالزواج منه، لكنّه كان -لا شك- رفيقاً ذكياً، ظريفاً، مؤنساً جداً، ليس بامرئٍ تصِفينه بالذكي، لكنّه ذكي كفاية ليسليني، ورجل ليس على المرء أن يشعر بالخجل منه في أيّ مكان، ورجل لن أسأم منه سريعاً. ولأصدقكِ القول، لقد أعجبتُ به بالأحرى، حتى إنّي أعجبتُ به مؤخراً أكثر من هاري ميلثام، وهو -لا شك- قد هام بي أيّما هيام، ورغم ذلك أتى إليَّ وأنا وحيدة وغير متأهبة. تمتعتُ بالحكمة، والكبرياء، والقوة لرفضه، بل رفضته رفضاً شديداً ازدرائيّاً وهادئاً، عندي أسباب جيّدة لأفخر بذلك».

«وهل فخورةٌ أنتِ بالقدر ذاته أنكِ أخبرتِه بأنّ امتلاكه ثروة السيد هيو ميلثام لن يشكّل فارقاً لكِ حين لم يكن ذلك صحيحاً، وأنكِ وعدتِه ألا تفضي إلى أحدٍ سوء حظه، من دون، على ما يبدو، أدنى نية في الحفاظ على وعدكِ؟».

«بالتأكيد! ماذا عساني أفعل غير ذلك؟ لا أحسبكِ كنتِ ترضين أن... لكني، أرى يا آنسة غري أنكِ لستِ في مزاج جيد، ها هي ذي ماتلدا، سأرى ماذا ستقول وماما عما حدث».

غادرتني، شاعرةً بالإهانة من عدم تعاطفي، ومعتقدة -لا شك- أني حسدتُها. لم أفعل، في أدنى حال، أيقنتُ يقيناً تامّاً أنّي لم أفعل. أسفتُ على حالها، ذُهلتُ، واشمأززتُ من غرورها عديم الرحمة، تساءلتُ: لماذا يُعطى الكثير من الجمال لأولئك الذين يستغلونه أسوأ استغلال، ويُحرم منه بعض من سيستفيدون منه، ويفيدون غيرهم به.

لكني استنتجتُ أن الله يعلم خيراً مني، وأفترض وجود بعض الرجال الذين هم بقدر اختيالها وأنانيتها وعدم رحمتها ذاته، وربما نساء مثلها مفيدات لعقابهم.

15

النزهة

قالت روزالي، في اليوم التالي في الرابعة مساءً، وهي تضع عملها الصوفي جانباً، وتنظر بكسل ناحية النافذة، متثائبة تثاؤباً هائلاً: «أوه. يا لطيف! أتمنى لو أن هاتفيلد لم يكن متهوراً جدّاً! ما من دافع للخروج الآن، وما من شيء للتطلع إليه، ستطول الأيام جداً، ويشتدّ مللها حين لا تُقام حفلات لإنعاشها، وعلى حسب علمي ما من حفلة هذا الأسبوع، أو الأسبوع القادم أيضاً».

علقت ماتلدا، التي وُجِّه إليها هذا التحسر، قائلة: «مؤسف أنكِ عاملتِه بفظاظة شديدة. لن يأتي مجدداً أبداً، وأخالكِ أعجبتِ به بعد كلّ شيء. رجوتُ أنكِ اتخذتِه عشيقاً، وتركتِ هاري العزيز لي».

«همف! يا ماتلدا، إن رضيتُ بأن ألزم عشيقاً واحداً، فينبغي له أن يكون بطبيعة الحال شابّاً فائق الجمال يُعجِب كلّ من ينظر إليه. أعترف أني أسفتُ لخسارة هاتفيلد، لكنّي سأرحب ترحيباً حارّاً بأوّل رجل، أو رجال، سيشغل مكانه. غداً هو الأحد، أتساءل كيف سيبدو، وهل سيقدر على أداء القداس. سيتظاهر في الأرجح أنه مصاب بالزكام، وسيجعل السيد وستن يؤديه كله».

هتفت ماتلدا قائلة هتافاً يعبّر عن شيء من الازدراء: «ليس شخصاً مثله! فعلى حماقته ليس حساساً إلى هذا الحد».

شعرت أختها بإهانة يسيرة، لكن الظروف أثبتت أنّ ماتلدا على صواب. أدى العاشق خائب الظن واجباته الخاصة براعي الأبرشية كالمعتاد. أكدت روزالي، بطبيعة الحال، أنه بدا شاحباً جداً ومكتئباً. ربما هو شاحب قليلاً، لكن الاختلاف -إن وُجد- يكاد يُلاحَظ. أما عن اكتئابه، فأنا بالتأكيد لم أسمع ضحكته المدوية من حجرة الاجتماعات والصفوف الكنسية كالمعتاد، ولا صوته عالياً في حديث مرح صاخب، رغم أني سمعتُه مبتهجاً حين وبّخ القندلفت توبيخاً جعل جماعة المصلين تحدق فيه، وأثناء تنقلاته إلى ومن المنبر وطاولة العشاء الرباني، بدت عليه أبّهة جليلة أكثر، وغطرسة أقلّ من تلك الغطرسة الوقحة المعتدّة بنفسها، أو بالأحرى السعيدة بنفسها التي اعتاد أن يمشي بوقار بها؛ ذلك المظهر الذي بدا أنه يقول: «أعرف أنّ جميعكم يوقّرني ويعشقني، لكن إن

كان أحدٌ منكم لا يوقرني ويعشقني، فإني أتحداه تحدياً تاماً!»، لكن أكثر اختلاف استثنائي هو أنه لم يسمح لعينيه قط ولو مرة أن تجولا ناحية مقعد السيد مري، ولم يغادر الكنيسة حتى ذهبنا.

لا شك في أن السيد هاتفيلد قد تلقّى ضربةً موجعةً جداً، لكن أجبرته كبرياؤه على استعمال كلّ جهد لإخفاء آثار ذلك. لقد خاب ظنّه في أمله الموقن في حيازة لا زوجاً جميلة وجذابة جداً في نظره فحسب، بل منزلتها وثروتها قد يمنحان تألقاً لمفاتن أقلّ بكثير. شعر أيضاً -لا شك- بالخزي الشديد من رفضه، وبإهانة عميقة من تصرف الآنسة مري طوال تلك الحادثة. لم تمنحه معرفته بشدة خيبتها من رؤيته غير متأثر، في ما يبدو، أدنى عزاء، ولا رؤيتها أن بوسعه الإحجام عن النظر إليها ولو نظرة واحدة خلال القداسَين كليهما، رغم أنها أكدت أن ذلك كشف أنه يفكر فيها طوال الوقت وإلا وقعت عيناه عليها حتى لو من قبيل المصادفة، لكن إن صادف أن وقعتا عليها فستؤكد أن سبب ذلك هو عجزهما عن مقاومة الإغراء. كان ليسعده أيضاً، إلى حدٍّ ما، أن يرى ما أكثر ما كانت عليه كئيبة ومستاءة طوال ذلك الأسبوع (في الأقل معظمه)، لغياب مصدر إثارتها المعتاد، وكم مرة ندمت على أنها «استنفدته سريعاً جداً» مثل طفل التهم كعكة خوخه سريعاً، وأخذ يلعق أصابعه جالساً يتحسّر عبثاً على شرهه.

أخيراً استُدعيت، ذات صباح صافٍ، لأرافقها في نزهة إلى القرية. يبدو أنها ذهبت لجلب درجات ألوان من صوف برلين، في محل محترم احتراماً مقبولاً مدعوماً في المقام الأول من قبل السيدات في المناطق المجاورة: حقاً، أملتُ ألا يُعَدَّ خرقاً للخيرية أن أفترض أنها ذهبت بنية مقابلة إما الكاهن نفسه، وإما معجب آخر في طريقنا؛ لأنه أثناء سيرنا، ظلت تتساءل: «ما الذي سيفعله أو يقوله هاتفيلد إن قابلناه»... إلخ.

أثناء اجتيازنا بوابة ميدان السيد غرين، «تساءلَت ما إذا كان في بيته الأحمقُ المغفلُ الكبير»؛ وحين عبرت بقربنا عربة السيدة ميلثام، «تساءلت ما الذي يفعله السيد هاري في مثل هذا اليوم الجميل»، ثم أخذت تشتم أخاه الأكبر لكونه: «مغفلاً إلى حدّ أن يتزوج ويذهب للعيش في لندن».

قلتُ: «ظننتُكِ أنتِ بذاتكِ راغبةً في العيش في لندن».

«أجل، لأن المكان مضجر جداً هنا؛ لكنه يجعله أشد ضجراً بإبعاد نفسه. وإن لم يكن متزوجاً لحظيتُ به بديلاً لذاك الكريه السيد توماس».

ثم، ملاحظةً آثار أقدام حصان على الطريق الموحل قليلاً، «تساءلتْ ما إذا كان حصان سيد موقَّر»، وخلصت أخيراً إلى أنه كذلك؛ لأن الآثار أصغر من أن

تكون آثار «حصان عربة أخرق»، ثم «تساءلَت من عساه يكون ممتطيه»، وما إذا كان يجدر بنا مقابلته أثناء العودة؛ لأنها متيقنة من أنه قد عبر هذا الصباح فقط. وأخيراً، حين دخلنا القرية ورأينا فقط القليل من سكانها المتواضعين يتجولون في الأنحاء، «تساءلت لماذا الناس الأغبياء لم يلزموا منازلهم؛ فهي بالتأكيد واثقة بأنها لا ترغب في رؤية وجوههم القبيحة، وثيابهم المتسخة المبتذلة، فليس لهذا قد جاءت إلى هورتن!».

في خضمّ كلّ ذلك، أعترف أني تساءلتُ أيضاً في سري إن كان يجدر بنا أن نقابل أو نلمح شخصاً آخر، بل حتى إني ذهبتُ إلى حدّ أن أتساءل أثناء عبورنا غرفه المستأجرة ما إذا كان عند النافذة. أثناء دخولنا المحل، طلبت مني الآنسة مري أن أقف في المدخل وأخبرها إن مرّ أحدٌ ريثما تؤدي عملية شرائها، لكن واأسفاه! ما من أحد ظاهر عدا القرويين باستثناء جين وسوزان غرين القادمتين من الشارع المفرد، عائدتين على ما يبدو من نزهة.

غمغمت قائلةً: «الحمقاوان!»، حين خرجت بعد أن انتهت من الشراء. «لماذا لم تجلبا معهما أخاهما الأحمق؟ حتى هو سيكون أفضل من لا شيء».

لكنّها حيّتهما بابتسامة مرحة، وأكّدت لهما سعادتها بمقابلتهما. وقفت كلٌّ منهما على جانب من جانبيها، وسارت الثلاث كلهنّ مدردشات وضاحكات كما تفعل الآنسات الصغيرات حين يكنَّ معاً، حتى لو لم يكنَّ إلا على أقل درجات الوفاق. لكن، شاعرةً بأني سأكون زحمةً عليهن، تركتهنّ لمرحهنّ وتباطأتُ خلفهنّ، كالمعتاد في مناسبات كهذه، لم يكن عندي ميل إلى السير بجانب الآنسة غرين أو الآنسة سوزان صماءَ أو بكماءَ، لا يمكنها الحديث أو أن يُتَحَدَّث إليها. لكني، هذه المرة، لم أكن وحيدة لوقت طويل. تعجبتُ، في البداية، من أنه في اللحظة ذاتها التي كنتُ أفكر فيها بالسيد وستن أتى وبادرني الحديث، لكن، في ما بعد، حين تمعنتُ في الأمر، رأيتُ أنه ما من شيء عجيب بشأن ذلك، اللهم إلا إن كان حقيقةَ أنه يتحدث معي لأنه في صباح كذاك، وبالقرب الشديد من داره، كان من الطبيعي جداً أن يكون بالجوار. أما عن تفكيري فيه، فقد كنتُ أفعل ذلك، بتقطعات مؤقتة يسيرة، منذ أن انطلقنا في رحلتنا؛ لذا ما كان هناك شيء استثنائي في ذلك.

بادر بالقول: «أنتِ وحدكِ مجدداً، آنسة غري».

«أجل».

«أيّ نوع من الآنسات تانك الآنستان غرين؟».

«أنا حقاً لا أعرف».

«هذا غريب مع أنك تسكنين بالقرب منهما جداً وترينهما كثيراً جداً!».

«حسناً. أفترض أنهما فتاتان نشيطتان، دمثتا الخلق؛ لكني أتصور أنك تعرفهما خيراً مني، بذاتك؛ لأني لم أتبادل كلمة قط مع أيٍّ منهما».

«حقاً؟ لا تبدوان لي متحفظتين إلى تلك الدرجة على نحو واضح».

«من المرجح جداً أنهما ليستا كذلك مع من هم من طبقتهما الاجتماعية؛ لكنّهما تعدّان نفسيهما تتحرّكان في عالم مختلف جداً عن عالمي!».

لم يرد على ذلك، لكن، بعد صمتٍ قصير، قال: «أفترض أنها هذي الأمور، يا آنسة غري، التي تجعلكِ تعتقدين بأنكِ غير قادرة على العيش من دون بيت؟».

«ليس بالضبط، الحقيقة أني أشدّ ميلاً إلى الاجتماع من أن أقدر على عيش عيشة قانعة من دون صديق، ولأن الأصدقاء الوحيدين الذين أصادقهم، أو من المحتمل أن أصادقهم، هم في الديار، في هذه الحال...، أو بالأحرى إن اختفوا، فلن أقول إني لن أتمكن من العيش، لكني، بالأحرى، لن أتمكن من العيش في عالم وحيد كذاك العالم».

«لكن لماذا تقولين الأصدقاء الذين من المحتمل أن تصادقيهم؟ هل أنتِ انطوائية جداً إلى الحدّ الذي لا تستطيعين معه أن تصادقي أناساً؟».

«لا. لكني لم أصادق قط أحداً بعد، وفي وظيفتي الحالية ما من إمكانية في ذلك، أو حتى في تشكيل أحد المعارف المشتركين. لعلّ الخطأ جزئيّاً فيّ، لكني آمل ألا يكون كله».

«الخطأ جزئيّاً في المجتمع، وجزئيّاً، أعتقد، في جيرانكِ المباشرين، وجزئيّاً، أيضاً، فيكِ؛ لأن ليديات كثر، في وظيفتكِ، يجعلنَ من أنفسهنَّ ملحوظات وذوات شأن. لكن ينبغي أن تكون طالبتاكِ رفيقتين لكِ إلى حدٍّ ما؛ لا يمكن أن تكونا أصغر منكِ بسنين كثيرة».

«أوه، أجل. إنهما صحبة جيدة أحياناً، لكني لا أستطيع تسميتهما صديقتين، ولن تفكّرا في تسميتي بذلك، لديهما رفقاء آخرون يلائمون ذوقيهما ملاءمة أفضل».

«لعلكِ حكيمةٌ جدّاً على مثلهما. كيف تمتّعين نفسكِ في خلوتكِ، أتقرئين كثيراً؟».

«القراءة هوايتي المفضلة. حين يكون عندي وقت فراغ لها وكتبٌ لقراءتها».

من الحديث عن الكتب عموماً، انتقل إلى كتب أخرى على وجه الخصوص، وواصل بانتقالات سريعة من موضوع إلى آخر، حتى عدة مسائل، عن الذوق والرأي، نوقشتُ على نحوٍ كبير في غضون نصف ساعة، لكن من دون أن يزوقها بتعليقات كثيرة منه. بدا على نحو جليٍّ أقلّ عزماً على الإدلاء بأفكاره وميوله من اكتشاف أفكاري وميولي. عازته اللياقة، والمهارة، لنيل مبتغى كذلك؛ لأن يُخرج ببراعة آرائي أو أفكاري عن طريق عرضه آراءه وأفكاره الحقيقية أو الظاهرية، أو أخذ المحادثة، بتدرّج غير مدركٍ، إلى موضوعات رغب في الالتفات إليها، لكنّ عدمَ ترابط رقيق كذاك، ومباشرةً موطّدة العزم، لم يكن لهما أن يشعراني بالإهانة.

«ولم عساه يهتم أصلاً بصفاتي الخُلقية والعقلية؟ ما الذي يعني له ما أفكر أو أشعر به؟»، سألتُ نفسي. وخفق قلبي إجابة عن السؤال.

لكن جين وسوزان غرين وصلتا سريعاً إلى منزلهما. وهما واقفتان تفاوضان عند بوابة الميدان، محاولتين إقناع الآنسة مري بالدخول. تمنّيتُ لو أن السيد وستن يذهب لكيلا تراه معي حين تستدير، لكن كان عمله، لسوء الحظ، زيارة أخرى للمسكين مارك وود، ما قاده لمواصلة طريقنا ذاته حتى نهاية المشوار تقريباً. ورغب، حين رأى روزالي غادرت صديقتيها، وأنا على وشك الانضمام إليها، أن يتركني ويعبر بسرعة أكبر، لكن حين رفع قبعته بتهذيب وهو يمرّ بها، فاجأني أنها بدلاً من أن تردّ له التحية بانحناءة رسمية فظّة، بادرته الحديث بواحدة من أعذب ابتساماتها، ثمّ مشت بجانبه تتجاذب معه أطرافَ الحديث بكلّ ما يمكن تخيّله من المرح والأنس؛ وبذلك واصل ثلاثتنا معاً.

بعد صمتٍ قصير في المحادثة، علّق السيد وستن تعليقاً موجهاً خصيصاً إلي، يتعلّق بشيء كنّا نتحدث عنه سلفاً، لكن قبل أن تتسنّى لي الإجابة، أجابت الآنسة مري عن التعليق وأسهبت فيه. أجابها، ومنذ ذلك وحتى نهاية المشوار، استحوذت عليه كاملاً لنفسها. قد يكون السبب عائداً جزئياً إلى غبائي، وعوز لياقتي وثقتي بنفسي: لكني شعرتُ بأني مظلومة؛ ارتعشتُ خشيةً، وأصغيتُ حاسدةً لتدفّق حديثها السلس، السريع، ورأيتُ بقلقٍ ابتسامتها المشرقة التي نظرت بها إلى وجهه بين الفينة والأخرى؛ لأنها كانت تسير أمامه قليلاً، لغرض (بحسب ما ظننتُ) أن تُرى كما تُسمَع. إن كان حديثها تافهاً وبلا قيمة، فقد كان ممتعاً، ولم يكن يعوزها قطّ شيء تقوله، أو كلمات مناسبة لتعبّر بها عما ستقوله. ما من شيء الآن وقح أو صفيق في سلوكها مثلما كان الحال حين

سارت مع السيد هاتفيلد. كلّ ما فيها ضربٌ رقيق لعوب من المرح رأيتُ أنه سيكون سارّاً جداً على نحو مميز لرجل له طبع ومزاج السيد وستن.

حين رحل أخذت تضحك، وغمغمت لنفسها قائلة: «علمتُ أنَّ بوسعي فعلها!».

سألتُ قائلةً: «فعل ماذا؟».

«إيقاع ذلك الرجل في غرامي».

«ما الذي تقصدينه بحق العالم؟».

«أعني أنه سيذهب إلى المنزل ويحلم بي. لقد أصبتُه في قلبه!».

«أنَّى لكِ معرفة ذلك؟».

«بالعديد من الدلائل الدامغة، ولاسيما النظرة التي نظر إليّ بها حين رحل، لم تكن نظرة وقحة -أبرؤه من ذلك- بل نظرة هيام تبجيليٍّ رقيق. ها، ها! إنه ليس مغفلاً جدّاً كما حسبتُه!».

لم أجبها؛ لأنَّ قلبي كان مليئاً بالخشية، أو بشيء مشابهٍ لها، وما كان لي أن أنطق بحديثٍ خوفاً من أن أندم عليه، صحتُ قائلة في نفسي: «يا رب، امنع حدوث ذلك! لمصلحته، لا لمصلحتي!».

علقت الآنسة مري عدة تعليقات تافهة ونحن نعبر الميدان، تعليقات (رغم نفوري من أن أظهر لمحة واحدة من مشاعري) تمكّنتُ فقط من الردّ عليها بكلمات أحادية المقطع. لم أتبيَّن ما إذا كان قصدها تعذيبي، أو إمتاع نفسها فحسب، ولم أهتم كثيراً، لكني فكرتُ في الفقير ونعجته الواحدة، والغني وقطعانه الكثيرة[22] ، وخشيتُ أني لا أعرف ما الذي سيحلّ بالسيد وستن بعيداً عن آمالي المحطمة.

سعدتُ سعادةً غامرة لدخولي البيت، واختلائي مرة أخرى في حجرتي. كان دافعي الأول أن أنهارَ على الكرسي بجانب السرير، وأضع رأسي على الوسادة، لأريح نفسي بانفجار متّقد من الدموع. لدي رغبة ملحة في انغماس من هذا النوع، لكن واأسفاه! ما زال عليّ أن أكبت وأبتلع مشاعري: ها هو الجرس قد رن؛ الجرس البغيض الذي ينادي لحضور وجبة الطعام في حجرة الدرس، وعليّ أن أنزل هادئة الوجه، وأبتسم، وأضحك، وأتحدث بالهراء. أجل، وآكل، أيضاً، إن أمكن، وكأنّ كلّ شيء على ما يرام، وكأني عدتُ من نزهةٍ سارَّة.

16

الإستبدال

الأحد التالي كان أظلم أيام نيسان/إبريل، يومَ غيومٍ معتمة، كثيفة، ووابل أمطار غزيرة. لم يرغب أيٌّ من آل مري في الذهاب إلى الكنيسة ما بعد الظهر، ما عدا روزالي؛ كانت عازمة على الذهاب كالمعتاد؛ لذا طلبتِ العربة، وذهبتُ معها، فليس في ذلك ما أخسره، بطبيعة الحال؛ لأنّي في الكنيسة بوسعي أن أنظر من دون خوف من الازدراء أو اللوم إلى جسدٍ ووجهٍ يسرّني أكثر من أجمل مخلوقات الله؛ بوسعي أن أصغي من دون مقاطعة إلى صوتٍ أشدّ سحراً من أعذب موسيقا لأذني؛ يبدو أنني قادرة على تأسيس صلة حميمية مع تلك الروح التي شعرتُ اتجاهها باهتمام عميق، وأن أتشرب أنقى أفكارها وأقدس طموحاتها، من دون ما يفسد سعادة عظيمة كتلك سوى توبيخات ضميري السرية، الذي كان كثيراً ما يهمس أني كنتُ أخدع ذاتي، وأهزأ بالله بقلب يعبده وهو مائل على المخلوق بدلاً من الخالق.

أحياناً، تلك الأفكار تضايقني كفاية، لكن، أحياناً، كان بوسعي إخراسها بالتفكير. إنه ليس الرجل، بل صلاحه الذي أحب. «كُلُّ مَا كَانَ طَاهِراً، وَكُلُّ مَا كَانَ مُسْتَحَبّاً، وَكُلُّ مَا كَانَ شَرِيفاً، وَكُلُّ مَا كَانَ حَسَنَ السُّمْعَةِ، فَاشْغِلُوا أَفْكَارَكُمْ بِهِ»[23] . نحن نحسن العمل حين نبجِّل الله في مخلوقاته، ولستُ أعرف مخلوقاً من مخلوقاته تُشرق فيه العديد من صفاته والكثير من روحه مثل خادمه المخلص هذا، الذي إن عرفتُه ولم أقدِّره سيعدّ ذلك لا مبالاة بليدة مني، أنا التي ليس لدي إلا القليل لأشغل به قلبي.

غادرت الآنسة مري الكنيسة على الفور بعد نهاية القداس تقريباً. توجّب علينا الوقوف في مدخل الكنيسة المسقوف؛ لأنها كانت تمطر، ولم تأتِ العربة بعد. تساءلتُ لماذا خرجت خارجاً بسرعة؛ لأنه لا ميلثام الشاب ولا السيد المالك غرين كانا هناك، لكني سريعاً اكتشفت أنّ فعلتها لتضمن مقابلة مع السيد وستن حين يخرج؛ الأمر الذي فعله سريعاً. بعد أن حيّانا كلانا مضى في طريقه، لكنها عوَّقته؛ في البدء بتعليقات عن الجو السيّئ، ثمّ بسؤالها إياه إن كان بوسعه أن يتلطف ويأتي غداً في أحد الأوقات ليرى حفيدة العجوز المسؤولة عن كوخ البواب؛ لأن الفتاة مريضة بالحمى، وتتمنّى رؤيته. وعد أن يفعل ذلك.

«وفي أيّ وقت من المرجح أن تأتي يا سيد وستن؟ العجوز تودّ أن تعرف متى تتوقّع حضورك. أنت تعرف أن أناساً مثلهم يفكّرون في ترتيب أكواخهم حين يأتي أناس محترمون لرؤيتهم أكثر مما نحن ميالون للاعتقاد».

كان ذلك مثالاً بديعاً عن مراعاة الآخرين من الآنسة مري، التي لا تراعي الآخرين. حدّد السيد وستن ساعة في الصباح سيحاول الحضور حينئذٍ. في ذلك الوقت هُيِّئَت العربة والخادم ينتظر ممسكاً بمظلة مفتوحة ليرافق الآنسة مري عبر فِناء الكنيسة. أوشكتُ أن أتبعهما، لكنّ السيد وستن معه مظلّة أيضاً، وعرض عليّ الانتفاع بحمايتها؛ لأنها تمطر بغزارة.

قلتُ: «لا. شكراً، لا أمانع المطر». عازني المنطق دائماً حين أُفاجأ.

أجاب قائلاً: «لكني أفترض أنكِ لا تحبينه، أليس كذلك؟ لن تضرّكِ مظلة على أيّ حال»، مبتسماً ابتسامةً أظهرت أنه لا يشعر بالإهانة كما كان ليفعل رجلٌ أسوأ مزاجاً أو أقلّ حدة ذهن بسبب رفض كهذا لمساعدته. لم أستطع إنكار صدق ما قاله؛ لذا ذهبتُ معه إلى العربة، حتى إنَّه عرض عليّ يده أثناء ركوبي العربة، بادرة لطيفة غير ضرورية، لكنّي قبلتُها، أيضاً، خوفًا من أن أهينه. أعطاني لمحة واحدة، ابتسامة واحدة حين افترقنا، لم يدم ذلك إلا لحظة فقط، لكني قرأتُ فيها، أو ظننتُ أني قرأتُ فيها، معنى أشعل في قلبي شعلة أمل أشدّ إشراقاً من أيّ شعلة أمل قد أُشعِلت قط.

علقت روزالي قائلةً ووجهها الجميل تغطيه ملامح غير ودودة: «يا آنسة غري، لو أنكِ انتظرتِ لحظة لأرسلتُ الخادم ليعود إليكِ. ما من حاجة لأخذكِ مظلة السيد وستن».

أجبتُ قائلة: «كنتُ لآتي بلا مظلة، لكن السيد وستن عرض عليّ الانتفاع بمظلته، وما كان لي أن أرفض أكثر مما فعلتُ من دون أن أهينه»، مبتسمة ابتسامة هادئة؛ لأن سعادتي الداخلية جعلت ذلك ممتعاً، وكان ذلك ليجرحني في وقت آخر.

تحركت العربة الآن، ومالتِ الآنسة مري للأمام، ونظرت خارج النافذة ونحن نمر بالسيد وستن، كان يمشي الهوينى نحو بيته عبر المجازة[24] ، ولم يدر رأسه.

صاحت قائلة: «مغفل!». راميةً نفسها إلى الخلف على الكرسي مجدداً. «لا تعرف ما الذي خسرتَه بعدم نظرك إلى هذا الاتجاه!».

«ما الذي خسره؟».

«انحناءة مني كانت لترفعه إلى السماء السابعة!».

لم أجب، فقد رأيتُ أن مزاجها متعكر، وسعدتُ سعادةٍ سرية بذلك. لا أعني أني سعدتُ بأنها مغتاظة، بل باعتقادها أن عندها سبباً لتغتاظ. جعلني ذلك أفكر في أن آمالي ليست بالكامل نتاج أمانيّ وخيالاتي.

قالت رفيقتي، بعد صمت قصير، مستأنفةً شيئاً من مرحها المعتاد: «أنوي أن أصاحب السيد وستن بدلاً من السيد هاتفيلد، الحفلة الراقصة في آشبي بارك يوم الثلاثاء، أنتِ تعرفين، وتعتقد ماما أنَّ من المرجح جداً أن يطلب السيد توماس يدي للزواج حينها، فأمور كهذه عادةً تُؤدَّى في كنف الخصوصية التي توفرها قاعة الرقص، أسهل مكان يُوقَع فيه السادة في الشرك، وأكثر مكان تكون فيه النساء فاتنات، لكن إن توجب علي الزواج سريعاً، فعليّ أن أستفيد من الوقت الحالي. أنا عازمة على ألا يكون هاتفيلد الرجل الوحيد الذي يضع قلبه عند قدمي ويتوسل إلي عبثاً أن أقبل الهدية عديمة القيمة».

قلتُ متصنّعةً اللامبالاة: «إن كنتِ تنوين جعل السيد وستن أحد قتلاك، فعليكِ أن تقدّمي عروضاً سيصعب عليكِ التراجع عنها حين يطلب منكِ إتمام التوقعات التي أثرتِها».

«لا أحسبه سيطلب مني الزواج، ولن أرغب في ذلك، فذلك بالأحرى وقاحة شديدة! لكني أنوي أن يشعر بقوتي. لقد شعر بها سلفاً بطبيعة الحال، لكن عليه أن يقرّ بها أيضاً، وعليه أن يحتفظ لنفسه بأيّ آمال حالمة يحلم بها، وأن يمتعني بنتائجها فقط... لبعض الوقت».

هتفتُ قائلةً في داخلي: «أوه! ليت ضرباً من الأرواح يهمس بهذه الكلمات في أذنه». كنتُ أسخط من أن أخاطر بردٍّ عالٍ على تعليقها، ولم يُقَل شيء آخر عن السيد وستن ذلك اليوم، سواء قلتُه أم سمعتُه. لكن جاءت الآنسة مري إلى حجرة الدرس في الصباح التالي سريعاً بعد الفطور، وأختها منكبة على دراساتها، أو بالأحرى دروسها؛ لأنها ليست بدراسات، وقالت: «ماتلدا، أريدكِ أن تتنزهي معي نحو الحادية عشرة».

«أوه. لا أستطيع يا روزالي! عليّ إعطاء التعليمات بشأن لجامي وحِلسي الجديدين، وأن أتحدث إلى صائد الجرذان بشأن كلابه. يجب أن تذهب الآنسة غري معكِ».

قالت روزالي: «لا. أريدكِ أنتِ»، ومستدعيةً أختها إلى النافذة، همست بتفسير في أذنها وافقت الأخيرة على إثره على الذهاب.

تذكرتُ أن الحادية عشرة هي الساعة التي عرض فيها السيد وستن المجيء إلى كوخ البواب، ولاحظتُ، بتذكّري ذلك، الحيلةَ كلها، وبذلك مُتِّعتُ أثناء الغداء بحكي طويل عن لحاق السيد وستن بهما وهما تسيران على الطريق، وكيف أنهما تنزّهتا وتحدّثتا معه وقتاً طويلاً، واكتشفتا أنه رفيق حلو المعشر حقاً، وكيف أنه سُرَّ -لا شك- سروراً جليّاً بهما وبتنازلهما المذهل.... إلخ، إلخ.

17

الإعترافات

لمّا كنت بصدد الاعتراف، فبوسعي أيضاً أن أقرّ بأنني، في هذا الوقت تقريباً، اهتممتُ باللباس أكثر من أيّ وقتٍ مضى قط. هذا ليس بمستغرب، لأني كنتُ، حتى هذه اللحظة، مهملة قليلة بهذا الشأن، لكنه ليس بأمر غير معتاد، حتى الآن أيضاً، أن أقضي دقيقتين في تأمّل صورتي في المرآة مع أنّي لا أستطيع أبداً أن أستمدّ أيّ عزاء من تأمّلٍ كهذا. لا أستطيع اكتشاف أيّ جمال في تلك الملامح الغليظة؛ ذلك الخد الشاحب الغائر، والشعر البني الغامق العادي. قد يكون هناك ذكاء في الجبهة. قد تكون هناك قدرة على التعبير في العينين الرماديتين الغامقتين، لكن ما فائدة ذلك؟ حاجب إغريقي منخفض، وعينان سوداوان واسعتان خاليتان من رقة الشعور ستعدّ أجدر بالتفضيل على نحو كبير. إنَّ من السخف أن يتمنى المرء الجمال؛ العقلاء لا يرغبون فيه أبداً لأنفسهم، ولا يكترثون لوجوده عند غيرهم. إن تُعُهِّد العقل تعهداً حسناً، واتّصف القلب بالود، فلا أحد أبداً يكترث للمظهر الخارجي. هذا ما قاله أساتذة طفولتنا، وهذا ما نقوله لأطفال الحاضر. كل هذا كلام حكيم وممتاز بلا شك، لكن هل توكيدات كتلك تدعمها التجربة الحقيقية؟

نحن مطبوعون فطرياً على حبّ ما يسرّنا، وما الذي يسرّ أكثر من وجه حسن، حين لا نعرف سوءاً عن صاحبه في الأقل؟ تحبّ فتاةٌ صغيرةٌ طائرها، لماذا؟ لأنَّه يعيش ويحس؟ لأنّه عاجزٌ وغير مؤذٍ؟ إنَّ علجوماً، أيضاً، ليعيش ويحس، وعاجز وغير مؤذٍ بالقدر ذاته، لكن رغم أنها لن تؤذي علجوماً، ليس بمقدورها حبّه مثل الطائر ذي الهيئة الجميلة، والريش الناعم، والعينين اللامعتين المعبرتين. تُمدَح المرأة الجميلة الودودة على كلتا الصفتين، لكن معظم البشر يمدحونها خصوصاً على الصفة الأولى. أمّا إن كانت سيئة الخَلق والخُلق، فإنّ قبحها عادةً ممّا يُندَّد به على أنه جريمتها الأعظم؛ لأن عامة المشاهدين يعدون ذلك أعظم إهانة. أما إن كانت قبيحة وحسنة الخُلق، بشرط أن يكون سلوكها انطوائيّاً وحياتها انعزالية، فلا أحد أبداً يعرف بشأن حسن خُلقها باستثناء أقاربها المباشرين. أما الآخرون، على النقيض من ذلك، فميالون إلى تكوين آراء غير حسنة عن عقلها وطبعها، ولو كان ذلك فقط لتبرير نفورهم الغريزي من شخص لم تحابِه الطبيعة إطلاقاً، وخلاف ذلك من تخفي هيئتها الملاكية قلباً فاسداً، أو تضفي جمالاً زائفاً مخادعاً على عيوبها

ومغامزها التي لن تُجاز عند أحد آخر. ليمتنَّ الجميلون على جمالهم، وليستفيدوا منه خير استفادة، مثل أيّ موهبة أخرى. أمّا القبيحون فليعزّوا أنفسهم، وليبذلوا جهدهم من دونه، مع أنه -لا شك- عرضةٌ لأن يُقَدَّر أكبر من قدره، إلا أنه هبة من الله، وليس بشيء يُمقَت. سيشعر الكثيرون بهذا؛ مَن شعروا بأن بمقدورهم أن يُحِبُّوا، ومن تخبرهم قلوبهم أنهم يستحقون أن يُحَبُّوا ثانية، وهم رغم ذلك محرومون، في الوقت نفسه، بنقص هذا أو شيءٍ تافه مثله من إعطاء أو تلقي تلك السعادة التي يبدو أنهم تقريباً خُلقوا ليشعروا بها ويمنحوها. ومثل ذلك قد تمقت اليراعة المتواضعة قوة منح الضوء تلك، التي من دونها قد يجتازها الذباب المتجول، ويجتازها مرة أخرى آلاف المرات، ولا يستقر بجانبها قط. قد تسمع حبيبها المُجَنَّح يطنّ فوقها وحولها، عبثاً يبحث عنها، هي تتوق إلى أن يُعثَر عليها، لكن من دون قوة تجعل حضورها معلوماً، ولا صوت لتناديه، ولا أجنحة لتَتْبَع طيرانه؛ على الذبابة أن تبحث عن زوج آخر، الدودة عليها أن تعيش وتموت وحيدة. ومثل ذلك بعض تأملاتي عن هذه الحقبة، قد أواصل نثر المزيد والمزيد، قد أتعمق أكثر، وأكشف أفكاراً أخرى، أقترح أسئلة قد يُعمِل القارئ فكره بحثاً عن إجاباتها، وأستنتج حججاً قد تُجفِل تحيّزاته، أو ربما تثير سخريته؛ لأنه غير قادر على فهمها، لكني أحجم عن ذلك.

إذاً، لنعد الآن إلى الآنسة مري: لقد رافقتْ أمّها إلى الحفلة الراقصة يوم الثلاثاء، مرتديةً، بطبيعة الحال، رداءً فخماً، وسعيدة بآمالها الواعدة وجمالها. توجب عليهما الانطلاق مبكراً جدّاً؛ لأن آشبي بارك على بعد عشرة أميال تقريباً من هورتن لودج. نويتُ قضاء المساء مع نانسي براون، التي لم أرها منذ وقت طويل، لكن طالبتي الطيبة حرصت على ألا أقضيه هناك أو في أيّ مكان خارج حدود حجرة الدرس، بإعطائي قطعةً موسيقية لنسخها؛ الأمر الذي أبقاني مشغولة جدًا حتى موعد النوم. نحو الحادية عشرة في الصباح التالي، ما إن غادرتْ غرفتها حتى جاءت لتخبرني أخبارها. لقد طلب السيد توماس يدها للزواج فعلاً في الحفلة الراقصة، إنه حدثٌ يعود الفضل العظيم فيه إلى حصافة ماماها، إن لم يكن إلى براعة سعة حيلتها. أفضل الميل لتصديق أنّها خططت خططها أولاً، ثم تنبأت بنجاحاتها. قُبِل العرض، بطبيعة الحال، وكان العريس المنتخب قادماً في ذلك اليوم ليسوّي الشؤون مع السيد مري.

سعدتْ روزالي بفكرة أنّها ستصبح سيدة آشبي بارك، وابتهجت بالأمل الموعود للحفلة الزفافية وما يصحبها من فخامة وبهاء، وشهر العسل الذي سيُقضى خارج البلاد، والمسرات اللاحقة التي توقعت الاستمتاع بها في لندن وغيرها من الأماكن. بدت مسرورة جداً أيضاً، في الوقت الحالي، مع السيد توماس ذاته؛ لأنها رأته منذ وقت قريب جداً، ورقصت معه، وأُطرِيَت من قِبله؛ لكن، بعد كل شيء، بدت نافرة من فكرة أنها ستتزوج قريباً جداً. تمنت أن

تؤجل الحفلة بضعة شهور، في الأقل، وتمنيتُ ذلك أيضاً. بدا أمراً فظيعاً أن يُسرّع الزواج المنحوس، وألا تُعطى المخلوقة المسكينة وقتاً لتفكر وتتمعّن في الخطوة النهائية التي هي على وشك اتخاذها. لم أتظاهر إطلاقاً بتمتعي «بعناية الأم اليقظة القلقة»، لكنّي تفاجأت وارتعتُ من قسوة السيدة مري، أو قلة عنايتها بمصلحة طفلتها، وبتحذيراتي ونصائحي المتجاهَلة. جاهدتُ عبثاً لتصحيح العمل الشرير. ضحكت الآنسة مري فحسب على ما قلتُه، واكتشفتُ سريعاً أن نفورها من الزواج السريع نشأ أساساً من رغبة في فعل ما بوسعها فعله للسادة الصغار من معارفها، قبل أن تصبح عاجزة عن التسبّب في المزيد من الأذى من هذا النوع. لهذا السبب، قبل أن تفضي إليّ سرّ خطوبتها، انتزعتْ وعداً مفاده أنّي لن أذكر كلمة حول الموضوع لأحد، وحين رأيتُ هذا، وحين رأيتها تغطس غطساً أشد تهوراً من ذي قبل في أعماق الغنج القاسي، ما عدتُ أشفق عليها، فكرتُ قائلة: «ليحدث ما يحدث، هي تستحق ذلك، لا يمكن أن يكون السيد توماس سيئاً جدّاً لها، وكلّما بان عجزها عن خداع وإيذاء الآخرين كان أفضل».

حُدِّد موعد الزفاف في أوّل حزيران/يونيو، بينه وبين الحفلة الراقصة الحاسمة أكثر بقليل من ستة أسابيع، لكن يمكن، بمهارة روزالي المتمكنة وجهدها المصمم، فعل الكثير، حتى في غضون تلك المدة، ولاسيما أن السيد توماس قضى أغلب الوقت الفاصل في لندن؛ حيث ذهب، كما قيل، ليسوّي شؤوناً مع محاميه، ويقوم بتحضيراتٍ أخرى للزفاف المقترب. حاول أن يعوض انعدام حضوره بسيلٍ من رسائل الحب المتواصلة، لكن تلك لم تجذب انتباه الجيران وتفتح أعينهم كما كانت لتفعل الزيارات الشخصية، ومنع تحفظ السيدة آشبي العجوز المتغطرس والفظ عن إذاعة الأخبار، في حين منعتها صحتها السيئة من القدوم لزيارة كنتها المستقبلية، وبذلك، جملةً، أبقيت هذه المسألة طيّ الكتمان على نحو أشد مما تكون عليه هذه المسائل عادة.

أرتني روزالي رسائل عشيقها أحياناً لتقنعني بأنّه سيغدو زوجاً طيباً مخلصاً، وأرتني رسائل شخص آخر أيضاً؛ السيد غرين غير المحظوظ الذي لم يتمتع بالشجاعة أو «الجرأة»، على حدّ تعبيرها، ليدافع شخصيّاً عن قضيته، لكنه شخصٌ لن يقنعه رفض واحد؛ لذا عليه أن يكتب مجدداً ومجدداً. ما كان ليفعل ذلك لو وَسِعَه أن يرى التقبضات الازدرائية لوجه محبوبته الجميلة التي أبدتها تجاه استغاثاته المؤثرة لمشاعرها، وأن يسمع ضحكتها المحتقرة، والنعوت الحقيرة التي أغدقتها عليه بسبب مثابرته.

سألتُ قائلة: «لم لا تخبرينه فوراً بأنكِ مخطوبة؟».

أجابت قائلة: «أوه. لا أريده أن يعرف ذلك؛ لأنه إن عرف فستعرف أختاه وكلّ أحد آخر، وحينها سينتهي ما أفعله من... إحم! ثم إن أخبرته بذلك، فسيظن أن خطوبتي هي العائق الوحيد، وأني سأوافق عليه لو كان الأمر بيدي، وهو ما لن أتحمل أن يتصوره عني أيُّ رجل، في الأقل هو من بين كل الآخرين». أضافت قائلة بازدراء: «كما أني لا أهتم لرسائله، له أن يكتب قدر ما يشاء، وأن يبدو أعظم فتى غرّ قدر ما يشاء حين أقابله؛ إن ذلك يسليني فحسب».

كان ميلثام الصغير في غضون ذلك كثير الزيارات إلى البيت أو العبور أمامه، ونظراً للعناتِ ماتلدا وتوبيخاتها، اهتمت أختها به أكثر مما يتطلبه التهذيب، بعبارة أخرى واصلت غزلها الحيّ بما يسمح به حضور والديها. حاولت بضع محاولات لجعل السيد هاتفيلد يهيم بها مرة أخرى، لكن حين رأت أنها غير ناجحة، قابلت لامبالاته المتغطرسة بازدراء متعجرف، وتحدثت عنه بازدراء ومقت قدرَ ما تحدثت به سابقاً عن مساعده. لكنها، في خضمِّ كلِّ ذلك، لم تفقد قط انتباهها للحظة عن السيد وستن، وانتهزت كل فرصة للقائه، وجربت كلّ حيلة لتفتنه، ولاحقته بمثابرة كما لو أنها تحبه حقاً ولا أحد غيره، واعتمدت سعادة حياتها على إثارة ردة فعل مبادلته العاطفة. فعلٌ كذلك أكبر تماماً من قدرتي على فهمه، لو أني رأيته مُصَوَّراً في رواية لظننتُه غريباً، ولو أنِّي سمعتُ الآخرين يصفونه لعددتُه خطأً أو مبالغة، لكن حين رأيتُه بأمّ عيني، وعانيتُ منه أيضاً، لم يسعني إلا أن أخلص إلى أن الغرور المفرط، مثل السُّكْر، يُمَرِّس القلب ويستعبد الملكات العقلية، ويحرِّف المشاعر، وأن الكلاب ليست المخلوقات الوحيدة التي حين تتخم تخمة شديدة ترمق بإعجاب ومحبة ما لا يمكنها التهامه، وتضنّ باللقمة على أخٍ يتضوّر جوعاً.

أضحت الآن مُحسِنةً جداً إلى ساكني الأكواخ الفقراء، وزاد معارفها بينهم زيادة كبيرة، وأصبحت زياراتها إلى دورهم المتواضعة أكثر وأشد تقطعاً مما كانت من ذي قبل قط. لذلك نالت بينهم سمعة الآنسة الصغيرة المتلطفة والمحسنة جداً. وبالتأكيد ستُذكر مدائحهم للسيد وستن، الذي أيضاً سنحت لها فرصة يومية للقائه في مسكن من مساكنهم، أو خلال تنقلاتها بينها، وغالباً ما استنتجتْ أيضاً من قيلهم وقالهم أيَّ الأماكن من المرجح أن يذهب إليها في الوقت الفلاني، إمّا ليعمد طفلاً، وإما ليزور كبار السن، أو المرضى، أو الحزانى، أو المحتضرين؛ وخططت خططها ببراعة طبقاً لذلك. ذهبتْ في هذه النزهات أحياناً مع أختها التي، بوسيلة ما، أقنعتها أو رشتها لتدخل في خططها، وأحياناً بمفردها، ولا تذهب الآن معي أبداً، بذلك حُرمتُ من لذة رؤية السيد وستن، أو سماع صوته حتى أثناء حديثه مع شخص آخر؛ الأمر الذي كنتُ لأستلذ به لا شك لذةً عظيمةً مهما أوجعني أو ملأني بالألم. لم أستطع رؤيته

في الكنيسة حتى؛ لأن الآنسة مري، متذرّعة بعذرٍ تافه، رغبت في أن تستحوذ على ذلك الموضع في مقعد العائلة الذي هو موضعي منذ قدومي، وعليّ، إلا إن كنتُ أملك الجرأة للجلوس بين السيد والسيدة مري، أن أجلس وظهري للمنبر؛ الأمر الذي فعلتُه وفقاً لذلك.

الآن، أيضاً، لم أمشِ عودة إلى البيت مع طالبتَي أبداً؛ قالتا إنَّ أمهما ارتأت أن من غير اللائق رؤية ثلاثة أشخاص من العائلة يمشون، ويركب فقط اثنان منهم العربة، ولأنهما تفضلان المشيء تفضيلاً عظيماً في الجو الصحو، ينبغي لي أن أشعر بالشرف لذهابي مع الكبيرين. قالتا: «إلى جانب ذلك، لا يمكنكِ المشي بسرعتنا. أنتِ تعرفين أنكِ تتباطئين خلفنا دائماً». عرفتُ أن تلك أعذارٍ زائفة، لكني لم أبدِ أيّ اعتراضات، ولم أخالف توكيدات كتلك، عالمةً جيداً الدوافع التي تمليها عليهما. وفي ما بعد الظهيرة، خلال تلك الأسابيع الستة الجديرة بالذكر،

لم أذهب إلى الكنيسة قط. استفادتا من إصابتي بالزكام أو أيّ توعك بسيط لتجعلاني أبقى في البيت، وكثيراً ما تخبرانني أنهما نفسيهما لن تذهبا مرة أخرى في ذلك اليوم، ثم تتظاهران بتغيير رأييهما، وتنطلقان من دون إخباري، وتتدبران أمر رحيلهما تدبراً حسناً جداً لا أكتشف معه أبداً اختلاف الدافع إلا حين يفوت الأوان. تمتعانني حين تعودان إلى البيت في إحدى تلك المناسبات بسرد حيّ عن حديث خاضاه مع السيد وستن، وهم يرافقون بعضهم. قالت ماتلدا: «وسأل إن كنتِ مريضة يا آنسة غري، لكن قلنا له إنكِ في أتم العافية، لكنكِ لم ترغبي فحسب في القدوم إلى الكنيسة، ليظن أنكِ أصبحتِ أثيمة».

مُنع حدوث كلِّ لقاءات المصادفات في أيام الأسبوع بدقّة أيضاً؛ لأن الآنسة مري قد حرصت، خوفاً من أن أذهب لرؤية نانسي براون المسكينة أو أي أحد آخر، على توفير أعمال كافية لكلّ ساعات فراغي. هناك دائماً رسمة ما لإنهائها، موسيقا ما لنسخها، أو عمل ما لفعله كافٍ لجعلي عاجزة عن إشباع أيّ رغبة في أيّ فعل يفوق نزهة قصيرة حول الأراضي المجاورة، مهما كانت هي أو أختها مشغولتين.

بعد أن ذهبتا وارتقبتا السيد وستن ذات صباح، عادتا مسرورتين سروراً شديداً لتسردا عليّ مقابلتهما. قالت ماتلدا: «وسأل عنكِ مرة أخرى»، رغم أن أختها لمحت لها تلميحاً صامتاً مُلِحّاً أن تمسك لسانها، «تساءل لماذا لستِ معنا قط، وظنّ أنه لا بد من أن صحتكِ واهنة، لأنكِ نادراً ما تخرجين».

«لم يفعل ذلك يا ماتلدا، يا للهراء الذي تتفوهين به!».

«أوه، يا روزالي، يا لها من كذبة! لقد فعل ذلك، أنتِ تعرفين، وقلتِ... لا تفعلي، يا روزالي... اللعنة! لن أسمح لكِ بقرصي! ويا آنسة غري، أخبرته روزالي أنكِ في أتمّ عافية، لكنكِ دائماً مشغولة جداً بقراءة كتبكِ؛ حيث لا تستمتعين بأيّ شيء آخر».

فكرتُ قائلة: «يا للتصوُّر الذي لا بد من أنه قد كوَّنه عني!».

سألتُ قائلة: «وهل تسأل العجوز نانسي عني؟».

«أجل. ونخبرها أنكِ مولعة بالقراءة والرسم ولعاً يمنعكِ عن القيام بأيّ شيء آخر».

«لكن هذه ليست الحقيقة، لو أنكِ أخبرتها أنّي مشغولة جدّاً شغلاً يمنعني من القدوم لرؤيتها لكان أقرب إلى الحقيقة».

أجابت الآنسة مري قائلة فجأةً وهي مفعمة بالحيوية: «لا أظنُّه كان ليكون كذلك. من المؤكد أن لديكِ وقتاً كثيراً لنفسكِ الآن لقلة التدريس الذي عليكِ القيام به».

لا طائل من الشروع في جدال مع مخلوقتين مدللتين غير منطقيتين؛ لذا التزمتُ الصمت. اعتدتُ الآن البقاء صامتة حين تُقال أمور كريهة لأذني، واعتدتُ الآن، أيضاً، إظهار ملامح رزينة باسمة حين يكون قلبي مُرّاً داخلي. وحدهم من شعروا بمثل ما شعرتُ به بوسعهم تصوّر مشاعري وأنا جالسة متظاهرة بلا مبالاة مبتسمة، مستمعة إلى سرد تلك اللقاءات والمقابلات مع السيد وستن، وبدا أنهما تستمتعان بوصفها لي، وسامعةً أموراً أُكِّدَت عنه؛ عرفتُ أنها، لمعرفتي بشخصية الرجل، مبالغات وتحريفات للحقيقة إن لم تكن زائفة بالكامل، أموراً تحطُّ من قدره، وتزيدهما حسناً، ولاسيما الآنسة مري، وتقتُ لتكذيبها،

أو في الأقل أن أبدي شكوكي حول صحتها، لكني لم أجرؤ، خشية أن يُظهِرَ تعبيري عن إنكاري اهتمامي أيضاً. أمورٌ أخرى سمعتُها شعرتُ أو خفتُ أن تكون بالفعل صحيحة تماماً، لكن ما زال عليّ إخفاء قلقي في ما يخصها، وسخطي عليهما، تحت مظهر لا مبال، وأمور أخرى هي محض تلميحات لشيء قيل أو فُعِل، تقتُ لأن أسمع المزيد عنها، وما كان بوسعي أن أجرؤ على السؤال. هكذا مضى الوقت المرهق، ولم أقدر حتى على أن أعزّي نفسي بقول: «ستتزوّج قريباً، ثمّ قد يكون هناك أمل».

ستأتي العطلة قريباً بعد زواجها، وحين أعود من الديار، على الأرجح، سيكون السيد وستن قد غادر؛ لأنه قيل لي إنه والكاهن لم ينسجما (خطأ الكاهن بطبيعة الحال) وأوشك على الانتقال إلى مكان آخر.

لا. بجانب أملي بالله، عزائي الوحيد أن أفكر في أني -رغم أنه لا يعرف ذلك- أستحقّ حبه أكثر من روزالي مري، رغم أنها ساحرة وفاتنة؛ لأني قادرة على تقدير فضيلته؛ الأمر الذي لا تقدر عليه. سأكرس حياتي لتعزيز سعادته، أما هي فستدمر سعادته من أجل الإشباع اللحظي لغرورها. هتفتُ بجدية قائلة: «أوه، لو أن بوسعه فقط أن يعرف الفرق! لكن، لا! لن أدعه يرى قلبي، رغم ذلك، لو أن بوسعه فقط أن يعرف فراغها، وعبثها التافه القاسي، فسيكون بمأمن حينها، وسأكون... سعيدة تقريباً، رغم أني قد لا أراه بعد ذلك أبداً!».

أخشى أن القارئ، بحلول هذا الوقت، قد اشمأزّ تقريباً من الغباء والضعف اللذين عرضتهما عليه بحرية كبيرة. لم أكشف عنهما قط حينها، وما كنتُ لأكشفهما لو أن أختي أو أمي معي في المنزل. كنتُ منافقةً ومتكتمة ومصممة، في هذا الشأن على الأقل، فلم يشهد صلواتي، ودموعي، وأمنياتي، ومخاوفي، ومناحاتي إلا أنا والربّ فقط.

حين تضايقنا الأحزان أو القلق، أو تغمنا وقتاً طويلاً مشاعر قوية علينا الاحتفاظ بها لأنفسنا، مشاعر لا نستطيع نيل أو التماس تعاطف أيّ مخلوق حيّ عليها، ولا نستطيع بعد أو لن نرغب في القضاء عليها بالكامل، فإننا غالباً نبحث طبيعيّاً عن الراحة في الشِّعر، وغالباً نجدها أيضاً، سواء في إفاضات الآخرين في التعبير عن عواطفهم، الإفاضات التي يبدو أنها تتوافق مع قضيتنا الموجودة، أم في محاولاتنا لقول تلك الأفكار والمشاعر بنبرة أقل موسيقية ربما، لكنها أكثر ملاءمة، ثم أكثر نفاذاً وتعاطفاً، وفي الزمن الآني، أكثر هدوءًا، أو أكثر قوة لتثير القلب المضطهد والمحزون وتحرّره من العبء. قبل هذا الوقت، في بيت ويلوود وهنا، حين أعاني من اكتئاب الحنين إلى الديار، التمستُ الراحة مرتين أو ثلاثاً في مصدر العزاء السري هذا، وأهرع الآن إليه مجدداً، بنهم أكثر من ذي قبل؛ لأنه يبدو أني أحتاجه على نحو أشد. ما زلتُ أحتفظ ببقايا المعاناة والتجارب الماضية، مثل أعمدة شاهدة[25] توضع خلال السير عبر وادي الحياة، لتكون علامة على الحوادث المحددة. آثار الأقدام ممحوة الآن، ربما تغيرت خصائص الريف، لكن العمود ما زال هناك، ليذكرني بما كانت عليه كل الأشياء وهو يُشَيَّد. خوفاً من شعور القارئ بالفضول لرؤية أيٍّ من هذه الإفاضات، سأمنحه نموذجاً قصيراً واحداً، رغم أنَّ الأبيات قد تبدو فاترة وتعوزها الحيوية، فهي تكاد تكون عاطفة حزن يدينون لها بحياتهم:

أوه، لقد سلبوا مني الأمل

الذي تعزُّه روحي جدّاً.

لن يسمحوا لي بسماع الصوت

الذي تبتهج روحي لسماعه.

لن يسمحوا لي برؤية الوجه

الذي تبهجني رؤيته جدّاً.

وقد أخذوا كل ابتساماتك،

وكل حبك مني.

حسنا، دعهم يحوزوا ما يُمكنهم حيازته

كنزٌ واحدٌ ما زال ملكي

قلبٌ يحبُّ التفكير بك،

ويشعر بقيمتك.

أجل، على الأقل، لا يستطيعون حرماني من ذلك، بوسعي التفكير فيه ليلاً ونهاراً، وبوسعي أن أشعر بأنه يستحق أن أفكر فيه، لم يعرفه أحد مثلما عرفتُه، لم يستطع أحد تقديره مثلما قدرتُه، لم يستطع أحد أن يحبه مثلما أحببتُه إن سُمِح لي بذلك، لكن هنا يكمن الشر. ما شأني لأسهب في التفكير في شخص لم يفكر فيّ قط؟ أليست تلك بحماقة؟ أليس ذلك بخطأ؟ مع ذلك، سألتُ نفسي: إن كنتُ أستلذ لذة عميقة في التفكير فيه، وإن احتفظتُ بهذه الأفكار لنفسي، ولم أزعج أحداً آخر بها، فما الضرر في ذلك؟ ومنعني هذا المنطق من بذل أيّ جهد كافٍ للتخلص من قيودي.

لكن إن أبهجتني تلك الأفكار، فإنّها بهجة مؤلمة قلقة، هي أقرب إلى الكرب، بهجة آذتني أكثر مما أدركتُ ذلك، كانت انغماساً ذاتيّاً ستحرم امرأةٌ أكثر حكمة أو أشد خبرة نفسها منه بلا شك، ورغم ذلك، ما أشد الكآبة التي سأصاب بها إن أشحت بناظريَّ عن تأمل ذلك الهدف الساطع، وأجبرتهما على التركيز على المناظر الطبيعية المملة، الكئيبة، الباعثة على الشجن حولي: الطريق المُكَدِّر، اليائس، المنعزل الممتد أمامي. من الخطأ أن أسرف في

الكآبة والقنوط، ينبغي أن أجعل الله صديقي، وأن أجعل رغبته لذة حياتي وشغلها، لكن إيماني ضعيف جداً، وعاطفتي قوية جداً.

عندي في وقت القلق هذا سببان آخران لأحزن، قد يبدو الأول تافهاً، لكنه جعلني أذرف دموعاً كثيرة: سناب، رفيقي الصغير الأبكم، خشن الملامح، لكن ذو العينين البراقتين، والقلب الحنون، الشيء الوحيد الذي أحبني، أُخِذ بعيداً، ونُقِل إلى قسوة صائد جرذان القرية، الرجل السيّئ السمعة لمعاملته الوحشية لعبيده الكلاب. أمَّا السبب الآخر فهو خطرٌ كفاية: لمَّحت رسائلي من الديار إلى أن صحة أبي قد تدهورت. لم تُذكر فيها أي مخاوف منذرة بشر، لكني أخذتُ أشعر بالخوف والجزع، ولم أستطع منع نفسي من الخوف من أن كارثةً مروعةً بانتظارنا هناك. بدا أني أرى الغيوم السوداء تتجمع حول تلال موطني، وأسمع هدير العاصفة الغاضب، العاصفة التي توشك أن تنفجر، وتدمر مدفأتنا.

18

الحبور والحداد

حلَّ اليوم الأول من حزيران/يونيو أخيراً، وتحوَّلت روزالي مري إلى السيدة آشبي. بدت في زيّ زفافها جميلةً جمالاً باهراً. حين عادت من الكنيسة، بعد المراسم، جاءت مسرعةً إلى حجرة الدرس، تغمرها الإثارة، وتضحك ضحكة نصفها مرحٌ ونصفها يأس مفضٍ إلى التهور، كما بدا لي.

هتفتْ قائلة: «الآن، يا آنسة غري، أنا السيدة آشبي! انتهى، لقد حُسِم أمري، ما من تراجع الآن. جئتُ لأتلقّى تهانيكِ وأودعكِ، ثمّ سأذهب إلى باريس، روما، نابولي، سويسرا، لندن... أوه، يا لطيف! ما أكثر ما سأراه وأسمعه قبل أن أعود مجدداً، لكن لا تنسيني. لن أنساكِ، رغم أني كنتُ فتاة شقية، هيا، لم لا تهنئينني؟».

أجبتُ قائلةً: «لا أستطيع تهنئتكِ حتى أتيقّن من أنّ هذا التغيير هو فعلاً للأفضل، لكني بصدق آمل أنه كذلك، وأتمنى لكِ سعادةً حقيقيةً وأفضل البركات».

«حسناً. وداعاً. العربة تنتظر، وهم ينادونني».

قبَّلتني قبلةً سريعة، ثُمَّ خرجت مسرعة، لكنها عادت فجأةً، وحضنتني بعاطفة أكبر ممّا تصورتُ أن بوسعها إبداءها، وغادرت بعينين دامعتين. يا للفتاةِ المسكينة! أحببتُها حقّاً حينها، وغفرتُ لها من قلبي كلّ الأذى الذي ألحقته بي... وبالآخرين أيضاً، وثقتُ بأنها لم تدرك ذلك حتى نصف إدراك، ودعوتُ الله أن يغفر لها أيضاً.

تأتّى لي فعل ما يحلو لي خلال ما تبقى من ذلك اليوم المبهج المحزن، ولأني مشوشة تشوُّشاً حال بيني وبين أيّ عمل يستلزم الهدوء، تجولتُ في الأنحاء حاملةً كتاباً في يدي عدة ساعات، أفكّر أكثر مما أقرأ؛ لأن لدي العديد من الأمور لأفكّر بها. في المساء، استفدتُ من حريتي لأذهب وأزور صديقتي القديمة نانسي مرة أخرى، لأعتذر عن غيابي الطويل (الذي لا بد من أنه بدا أمراً يدلّ على الفظاظة والاستخفاف الشديد) بإخبارها أني كنتُ مشغولة جدّاً، وأني سأتحدث معها، أو أقرأ لها، أو أعمل لأجلها، أياً كان الذي يناسبها،

ولأخبرها أيضاً، بطبيعة الحال، عن هذا اليوم المهم، وربما لأحوز بضع معلومات منها في المقابل في ما يتعلق برحيل السيد وستن المتوقع، لكن بدا أنها لا تعرف شيئاً عن ذلك، ورجوتُ، كما رجت، أنّها إشاعة زائفة برمتها. سعدتْ جداً برؤيتي، لكن، لحسن الحظ، قاربت عيناها جداً الآن على الشفاء إلى حدّ أنها تقريباً أصبحت في غنى عن خدماتي.

اهتمت جداً بالزفاف، لكن أثناء ما متعتُها بتفاصيل اليوم البهيج، وفخامة حفل الزفاف، وفخامة العروس نفسها، كانت كثيراً ما تتنهد وتهز رأسها، وتتمنى أن يثمر الخير عنه، بدت، مثلي، تعده بالأحرى أمراً يبعث على الحزن لا الفرح. جلستُ وقتاً طويلا متحدثة معها عن ذلك وعن أمور أخرى... لكن، لم يأتِ أحد.

هل عليّ أن أعترف بأني أحياناً أنظر نحو الباب راغبةً رغبةً نصفَ متوقَّعة الحدوث في أن أراه يُفتح ويدخل منه السيد وستن، كما حدث ذات مرة في السابق؟ وكثيراً ما أتوقف، وأنا عائدة عبر المجازات والحقول، لأنظر حولي، وأمشي أبطأ مما تستدعيه الحاجة، لأنَّ المساء على حسنه لم يكن حارّاً، وأخيراً أشعر بشيء من الخواء وخيبة الأمل عند وصولي إلى البيت دون أن أقابل أو ألمح لمحة بعيدة أيّ أحد باستثناء بضعة عمّال عائدين من عملهم؟

لكن كان الأحد يقترب، سأراه حينها، فلمّا كانت الآنسة مري قد رحلت الآن، بوسعي الجلوس في مكاني القديم مجدداً. سأراه، وبنظرته، وكلامه، وتصرفاته، سأتبيّن ما إذا كان ظرف زواجها قد أحزنه حزناً شديداً. لحسن الحسن لم ألحظ أدنى اختلاف؛ بدت سيماؤه كما بدت قبل شهرين، وصوته ونظرته وتصرفاته لم تتغيّر على حد سواء، ما زال حديثه متسماً بالصدق الجلي حاد البصيرة ذاته، وأسلوبه بالوضوح القوي ذاته، وجميع قوله وفعله باليُسر الجاد ذاته، صفاتٌ لا تلحظها العين والأذن، بل تستشعرها قلوب جماعة مستمعيه.

مشيتُ نحو المنزل مع الآنسة ماتلدا، لكنه لم ينضم إلينا. أصبحت ماتلدا الآن، لسوء الحظ، لا تعرف كيف تمتع نفسها، وبحاجةٍ مُلحَّةٍ ومحزنة إلى رفيق؛ أخواها في المدرسة، وأختها تزوّجت ورحلت، وهي أصغر من أن تُدخَل المجتمعَ؛ الأمر الذي بسببه أخذتْ تستحسن إلى حدٍّ ما، محتذية حذو روزالي، صحبة السادة، على الأقل السادة من طبقات اجتماعية معينة في هذا الوقت الممل من السنة (ما من مطاردة تجري، ولا حتى صيد)، ورغم أنها لن تشارك في ذلك، ما زال من المثير رؤية والدها أو حارس الطرائد يخرجان مع الكلاب، وأن تتحدث معهما أثناء عودتهما عن الطيور المتنوعة التي اصطاداها. حُرِمت الآن أيضاً من العزاء الذي منحتها إياه رفقة الحوذي، وسائسي الخيل،

والأحصنة، وكلاب السلوقي، وكلاب الصيد الضخمة؛ لأنه بعد أن تخلصت أمها تخلصاً مُرضياً من ابنتها الكبرى، على الرغم من عوائق حياة الريف، بدأ فخر قلبها يحوِّل اهتمامها تحوُّلاً جديّاً نحو الصغرى، ولشعورها بالخطر من فظاظة سلوكها، وظنها أن الوقت المناسب لتقويمها قد حان، حُفِّزَت أخيراً على استعمال سلطتها، ومنعت منعاً باتاً الزرائب، والإسطبلات، ووجارات الكلاب، وبيت المركبات. لم تُطَع تماماً بطبيعة الحال، لكن رغم أنها كانت متساهلة حتى اليوم، ما إن يستيقظ عزمها حتى لا يكون مزاجها بلطف المزاج الذي تطالب به مربيتها، ولا تقاوِمُ الحصانةُ مشيئتها.

بعد عدة مشاجرات بين الأم والابنة، وثورات عديدة عنيفة خجلتُ من إبصارها استُدعِيَت فيها سلطة الأب لتعزّز بالشتائم والتهديدات موانع الأم المتجاهَلة؛ لأنه حتى هو بوسعه أن يرى أن: «من الممكن أن تكون تيلي فتاة بارعة، لكنها لم ترقَ بعد لتصبحَ آنسة شابّة كما ينبغي»؛ اكتشفت ماتلدا أخيراً أن أسهل خطة هي تجنب المناطق المحظورة، إلا في حال أمكنها، بين الفينة والأخرى، أن تتسلل إليها من دون علم أمها اليقظة.

في خضم كل ذلك، لا تتصور أني نجوتُ دون الكثير من التأنيب، والكثير من التوبيخات الضمنية، التي لم يُفقِدها عدم قولها صراحةً شيئاً من لذعتها، بل جرحتني على نحو أعمق؛ لأنها بدت، لذلك السبب بالضبط، تعوق دفاعي عن نفسي. قيل لي كثيراً أن أمتع الآنسة ماتلدا بأشياء أخرى، وأن أذكرها بوصايا أمها وموانعها. فعلتُ ذلك بأقصى جهدي، لكنّها لن تستمتع من دون رغبتها، وليس من الممكن إمتاعها بشيء ليس من ذوقها، ورغم أني فعلتُ أكثر من مجرد التذكير، كانت الاحتجاجات اللطيفة التي استطعتُ استعمالها عقيمة بالكامل.

«عزيزتي آنسة غري، ما أعجب هذا! أعتقد أن الأمر ليس بيدكِ إن لم يكن ذلك جزءاً من طبيعتكِ، لكني أتعجب من عدم قدرتكِ على كسب ثقة تلك الفتاة، وجعل عشرتكِ في الأقل مستساغة لها قدرَ عشرة روبرت أو جوزيف!».

أجبتُ قائلة: «بوسعهم التحدث على أفضل وجه عن الأمور التي تثير اهتمامها».

«حسناً! لكنْ هذا اعتراف غريب ليصدر من مربيتها! أتساءل من ذا الذي سيُشكِّل ذوق آنسة صغيرة إن لم تشكّله مربيتها؟ عرفتُ مربيات عددنَ سمعتهنَّ وسمعة الآنسات الصغيرات في ما يتعلق بالرقي وتهذيب العقل والسلوك أمراً واحداً تماماً، حتى إنهنّ ليخجلن من أن يتفوهنَ بكلمة تسيء

لهن. وسماعهن لأدنى لوم يُعزى إلى طالباتهنّ لهو أمر أسوأ من أن يُلَمْن هُنَّ أنفسهن، وإني لأعد ذلك أمراً طبيعياً جداً برأيي».

«أحقاً يا سيدتي؟».

«أجل، بطبيعة الحال، فبراعة ورقيّ الآنسة الصغيرة يهمّ المربية أكثر من براعتها ورقيّها، وكذلك الأمر في ما يخص العالم. إن شاءت أن تزدهر في وظيفتها، فعليها تكريس كل طاقاتها لعملها، ستُعنَى كل أفكارها وطموحاتها بتحقيق هذه الغاية الوحيدة. حين نريد أن نحكم على جدارة مربية، فإننا بدهياً ننظر إلى الآنسات الصغيرات اللاتي قالت إنها علّمتهنّ، ونحكم عليها وفقاً لذلك. تعرف المربية الحكيمة ما يأتي: تعرف أنَّه في أثناء ما تعيش هي مغمورة، فإنّ فضائل وعيوب طالباتها ستظهر لكلّ عين، وأنه لا ينبغي لها أن ترجو النجاح إلا في حال أهملت نفسها في سبيل تنميتهم. أنتِ ترين، يا آنسة غري، أنَّها تماماً مثل أيّ مهنة أو حرفة أخرى، مَن يَرُمنَ الازدهار فيها عليهنّ أن يكرّسنَ ذواتهنّ جسداً وروحاً لندائهنّ، وإن شرعن في الخضوع للكسل أو الانغماس الذاتي، فسرعان ما تستبعدهنّ منافساتهنّ ذوات الخبرة الأفضل، لا فرق بين من تفسد طالباتها بالإهمال، ومن تفسدهنّ باقتدائهنّ بها. اعذريني على إلقائي هذه التلميحات. تعرفين أنَّ كلّ ذلك لمصلحتكِ. كانت الكثير من السيدات ليخاطبنكِ بنبرةٍ أَحَدّ، وكثير منهنّ لم يكن ليزعجنَ أنفسهنّ بمخاطبتكِ إطلاقاً، بل سيبحثنَ بهدوء عن بديلة، وهو ما سيُعَدّ -لا شك- أسهل خطة، لكني أعرف مزايا وظيفة كهذه لشخص في مثل وضعكِ، وليس عندي أيّ رغبة في أن أفارقكِ؛ لأني واثقة بأنكِ ستبلَين بلاء حسناً إن أمعنتِ التفكير في هذه الأمور، وحاولتِ أن تجاهدي نفسكِ أكثر بقليل، ثُمَّ أنا متيقنة من أنكِ قريباً سوف تكتسبين تلك اللياقة الحساسة التي وحدها تعوزكِ لتمنحكِ تأثيراً أفضل على عقل طالبتكِ».

أوشكتُ أن أبيِّن لليدي خطأ توقعاتها، لكنها غادرت ماشيةً بوقار ما إن ختمت حديثها. بعد أن قالت ما رغبت في قوله، لم يكن انتظار إجابتي جزءاً من خطتها؛ واجبي أن أصغي، وألا أتكلم.

لكن، كما قلتُ، رضخت ماتلدا أخيراً، إلى حد ما، لسلطة أمها (مؤسف أنها لم تُمارَس قبلاً)، وبذلك حُرمَت تقريباً من كلّ مصدر للمتعة، فلم يكن هناك منه إلا ذهابها في جولات امتطاء حصان طويلة مع سائس الخيل، ونزهات طويلة مع المربية، وزيارة الأكواخ وبيوت المزارع في مِلكية والدها، لتزجي الوقت بالتحدث مع العجائز والشيوخ الذين يقطنون فيها. في إحدى تلك النزهات، سنحت لنا الفرصة لمقابلة السيد وستن، هذا ما رغبتُ فيه زمناً طويلاً، لكن الآن، للحظة، تمنيتُ لو كنتُ أنا أو هو في مكان بعيد، شعرتُ

بقلبي ينبض بشدة إلى حدّ أني خفتُ أن تظهر علامات خارجية تدل على مشاعري، لكن، أكاد أظنه رمقني، فهدأتُ سريعاً. بعد أن حيَّانا تحية قصيرة، سأل ماتلدا إن كانت قد سمعت مؤخراً أخباراً عن أختها.

أجابت قائلة: «أجل. كانت في باريس حين كتبت الرسالة، وهي بصحة ممتازة، وجدّاً سعيدة».

نطقتِ الكلمة الأخيرة نطقاً مشدداً، وهي ترمقه بنظرة ماكرة وقحة. لم يبدُ أنه قد انتبه إلى ذلك، لكنه أجاب، بالقدر ذاته من التشديد، وعلى نحو جدي جداً: «آمل أن تظلّ على هذا النحو».

تجرأت على السؤال قائلة: «أتظنّ أن ذلك مرجح؟»؛ لأنّ ماتلدا شرعت تلاحق كلبها الذي يطارد خِرنِقاً.

أجاب قائلاً: «ليس مؤكداً. قد يكون السيد توماس رجلاً خيراً مما أظن، لكن من كل ما سمعتُ ورأيتُ يظهر لي أن من المؤسف أن صغيرةً ومرحة جدّاً، و... مثيرة للاهتمام، لأصف الكثير بكلمتين، والتي خطؤها الأعظم، إن لم يكن الوحيد، يبدو أنه عدم مراعاتها لمشاعر الآخرين، وهو يقيناً ليس بالخطأ الهين؛ لأنه يجعل صاحب هذه الصفة عرضة تقريباً لكلّ خطأ آخر، ويعرضه لإغراءاتٍ كثيرة، لكن يبدو من المؤسف أن تُلقى على رجل مثله. أفترض أنها رغبة أمها؟».

«أجل، وأظنها رغبتها أيضاً؛ لأنها ضحكت دائماً على محاولاتي لثنيها عن اتخاذ هذه الخطوة».

«حاولتِ ذلك؟ إذاً سيسركِ أن تعرفي على الأقل أنّ ذلك ليس خطأكِ إن نتج شرٌّ عن الأمر. أما السيدة مري، فلا أعرف كيف يمكنها تبرير سلوكها، إن كان لي معرفة كافية بها لسألتُها».

«يبدو ذلك غريباً، لكن بعض الناس يظنون أن المرتبة الاجتماعية والثراء هما أعظم الخير، وإن تأتّى لهم ضمان ذلك لأطفالهم، فهم يرون أنّهم قد أدوا واجبهم».

«صحيح. لكن أليس غريباً أنّ أناساً ذوي خبرة، هم أنفسهم متزوجون، يُقَدِّرون الأمور تقديراً خاطئاً جداً؟». عادت ماتلدا الآن راكضة وهي تلهث، وفي يدها الجسد الممزق للخِرنق.

سأل السيد وستن قائلاً: «أنويتِ قتل هذا الخِرنق أم إنقاذه يا آنسة مري؟»، حائراً على ما يبدو من مظهرها المبتهج.

أجابت قائلة، صادقةً كفاية: «تظاهرتُ أنّي أرغب في إنقاذه، لأننا على نحو جليٍّ لسنا في موسم الصيد، لكني سعدتُ سعادةً شديدة حين أبصرتُه يتراخى، لكن بوسع كليكما أن يشهد أنه ما كان بيدي حيلة، فبرنس عزم على نيله، وقبض عليه من ظهره، وقتله في لحظة! أولم تكن مطاردة ممتازة؟».

«جدّاً! لسيدة صغيرة تطارد خرنقاً».

في نبرة صوته، حين أجاب، سخريةٌ هادئة لم تَفُتها، فهزّت كتفيها، وسألتني وهي تستدير قائلة: «همف!» ذات مغزى إن كنتُ قد استمتعتُ بالتسلية. أجبتُها أني لا أرى أيّ متعة في الموضوع، لكني اعترفتُ بأنّي لم أتمعن الحدث تمعناً دقيقاً جداً.

«أولم تبصري كيف تلوَّى مثل أرنبة مسنة تماماً؟ ألم تسمعيه وهو يصرخ؟».

«يسعدني أن أقول إنّي لم أسمعه».

«صرخ مثل طفل تماماً».

«يا للمسكين! ما أنتِ فاعلةٌ به؟».

«تعالي. سأتركه في أول بيت نبلغه، فلا أريد أخذه إلى البيت، خوفاً من أن يوبخني بابا على سماحي للكلب بقتله».

رحل السيد وستن الآن، ونحن أيضاً مضينا في طريقنا، لكن حين عدنا، بعد أن وضعنا الخرنق في بيت مزرعة، والتهمنا بعضاً من الكعك المنكَّه ونبيذ زبيب مقابلها، قابلناه عائداً أيضاً من تنفيذ مهمّته، أيّاً كانت، حاملاً في يده مجموعة زهور جريس جميلة قدّمها لي، وقال معلقاً، وهو يبتسم، إنه رغم أنه لم يرني إلا قليلاً في الشهرين الأخيرين، لم ينسَ أنّ زهور الجريس هي ضمن زهوري المفضلة. فُعِل ذلك على أنّه عملٌ وديّ يسير، من دون إطراءٍ أو مجاملةٍ استثنائية، أو أي نظرةٍ يمكن أن تُفَسَّر على أنها «عشقٌ تبجيليٌّ رقيق» (راجعْ روزالي مري)، لكن رغم ذلك لهو أمرٌ مهمٌّ أن أكتشف أنَّ مقولتي غير المهمة مُتَذَكَّرةٌ تذكراً حسناً، ومن المهم أيضاً أنه لاحظ ملاحظةً دقيقة جدّاً الوقت الذي توقفتُ فيه عن الظهور.

قال: «قيل لي إنكِ دودة كتب مثالية يا آنسة مري، مستغرقة جداً في قراءاتكِ إلى حدّ أنكِ زهدتِ في كل متعة أخرى».

صاحت ماتلدا قائلة: «أجل، هذا صحيح تماماً!».

«لا. يا سيد وستن، لا تصدق ذلك، إنَّه طعنٌ مخزٍ، هاتان الآنستان الصغيرتان مولعتان بشدّة في اختلاق توكيدات عشوائية على حساب أصدقائهما، وعليك أن تتبيَّن ما تسمعه منهما».

«على أيّ حال، أرجو أنَّ هذا التوكيد بالذات لا أساس له من الصحة».

«لماذا؟ أتعترض اعتراضاً محدداً على قراءة الآنسات؟».

«لا. لكني أعترض على أيّ أحدٍ يكرس نفسه أو نفسها للقراءة تكريساً يجعله يهمل أيّ شيء عداها، اللهم إلا في ظروف خاصة، فأنا أعدُّ كل قراءة دقيقة ومتواصلة مضيعة للوقت وأذى للعقل كما هي أذى للجسد».

«حسناً. ليس لدي الوقت ولا الرغبة لاقتراف انتهاكات كهذه».

افترقنا كرة أخرى.

حسناً! ما الاستثنائي في كلّ ما سبق؟ لماذا سجلتُه؟ لأنه كان، أيّها القارئ، مهماً كفايةً لمنحي مساءً مبهجاً، وليلةَ أحلام سعيدة، وصباحَ آمالٍ رائعة. قد تقول إنه ابتهاج أحمق، وأحلام سخيفة، وآمالٌ لا أساس لها من الصحة، ولن أجرؤ على إنكار ذلك، فكثيراً ما أُثِيرَتْ في عقلي شبهات تحمل هذا المضمون، لكنّ أمانينا مثل حُراقٍ[26] ، يقدحُ الصوانُ وفولاذُ الظروف شرارَنا باستمرار، شراراً سريع الزوال ما لم يصادفْ وقوعه على حُراقِ أمانينا، فيشتعل حينئذٍ من ساعته، ويُوقدُ لهيب الأمل في لحظة.

لكن، واأسفاه! في ذلك الصباح تماماً، أطفأتْ رسالةٌ من أمي لهيب أملي المومض إطفاءً كئيباً، رسالةٌ ذُكر فيها ذِكراً جديّاً مرض أبي المتفاقم، حتى إني خشيتُ أنَّ فرصة تحسنه -إن وُجدت- ضئيلة، ورغم أن العطلة أوشكت على الحلول، كدتُ أرتعش خوفاً من أن تتأخر حتى يفوت الأوان لأقابله في هذا العالم. بعدها بيومين، أخبرتني رسالةٌ من ماري أن حياته ميؤوس منها، وأنه يبدو أنّ أجله يدنو بسرعة. ثمّ، فوراً، التمستُ إذناً لتعجيل الإجازة، والذهاب من دون تأخير، حدّقت إليَّ السيدة مري، وتعجّبت من القوة غير المعتادة والجرأة التي ألححتُ بها على الطلب، ورأت أنه ما من سبب للعجلة. أذنت لي أخيراً، لكنها قالت إنه: «ما من داعٍ لأهتاج مثل هذا الاهتياج بسبب هذه المسألة، فقد يكون إنذاراً كاذباً بعد كلّ شيء، وإن لم يكن كذلك، فإنَّ هذا من سنن الطبيعة فحسب، كلّنا سنموت ذات يوم. وأكدت أنه لا ينبغي أن أحسب نفسي المحزونة الوحيدة في العالم». وختمت كلامها بقولها إن بوسعي أخذ العربة لتأخذني إلى أُ*** «وبدلاً من التشكّي يا آنسة غري، كوني شاكرة على الامتيازات التي تتمتّعين بها، هناك الكثير من القساوسة الذين ستفلس

عائلاتهم بموتهم، لكن أنتِ، كما ترين، لديكِ أصدقاءٌ ذوو نفوذٍ مستعدون لمواصلة تفضّلهم عليكِ، وأن يظهروا لكِ كلّ مراعاة».

شكرتُها على «مراعاتها»، وأسرعتُ إلى حجرتي لأقوم ببعض التجهيزات السريعة لمغادرتي. بعد أن اعتمرتُ قلنسوتي وارتديتُ شالي، وحشوتُ بسرعة بضعة أشياء في صندوق ملابسي الأكبر، نزلتُ، لكن لعلي تمهلتُ في تأديتي ما سبق من عمل؛ لأنه ما من أحد آخر مستعجل، وما زال لدي وقت طويل لانتظار العربة. جاءت أخيراً إلى الباب، وانطلقتُ، لكن، أوه، ما أكأبها من رحلة! ما أشدّ اختلافها عن الرحلات السابقة التي اتجهتُ بها إلى الديار! لأني تأخرتُ جداً على آخر عربة متجهة إلى *** اضطررتُ إلى استئجار مركبة لعشرة أميال، ثم عربة لتقلني إلى التلال الوعرة.

كانت الساعة العاشرة والنصف قبل أن أبلغ البيت، ولم تكونا نائمتين.

قابلتني أمي وأختي كلتاهما عند المجاز حزينتين، وصامتتين، وشاحبتين! صُدِمتُ وذُعرتُ جداً إلى حدٍّ أني لم أتمكن من الكلام لأسأل عن المعلومة التي تقتُ إليها بشدة مع أنّ فرائصي ترتعد من معرفتها.

قالت أمي: «أغنس!». وهي تعاني لكبتِ إحساسٍ قوي.

صاحت ماري قائلة: «أوه يا أغنس!»، وانفجرت باكية.

سألتُ قائلةً: «كيف حاله؟»، متلهفةً للجواب.

«ميت!».

إنها الإجابة التي توقعتُها، لكن الصدمة ما زالت مع ذلك مروعة.

19

الرسالة

سُلِّمَ جُثمانه للقبر، وجلسنا نحن بوجوهٍ حزينة وثياب معتمة وقتاً طويلاً حول طاولة الفطور المقتصدة، مفكّراتِ ملياً في خطط لحياتنا المستقبلية. لم يخضع عقل أمي القوي لوطأة المصاب حتى، فلم تنكسر معنوياتها مع أنها محطمة. رغبتْ ماري في أن أعود إلى هورتن لودج، ورأت أنّ على أمّنا الذهاب والعيش معها والسيد ريتشاردسن في مقرّ القس، مؤكدة أن رغبته في ذلك ليست بأقل من رغبتها، وأن تسوية كهذه لن تخفق في نفع كلّ الأطراف؛ لأنهما سيعدّان رفقة أمي وخبرتها أمرين لا يقدّران بثمن، وسيفعلان ما بوسعهما لإسعادها. لكن ما كان لأي مجادلة أو توسلات أن تفلح، فأمي عازمة على ألا تذهب، لا لأنها شكّت للحظة في رغبات ابنتها ونياتها الطيبة، بل لأنها أكدت أنه ما دام الله حافظاً لها صحتها وقوتها، فستستفيد منهما لكسب قوت يومها، ولكيلا تصبح عبئاً مالياً على أحدٍ، سواء أشعروا بأن اعتمادها عليهم عبءٌ أم لا. إن امتلكتِ المال الكافي لتعيش مثل مقيمة في مقر القس، فإنّها ستختار ذلك البيت قبل كلّ البيوت الأخرى مسكناً لها، لكن لأنها ليست في ظرف يضطرّها إلى ذلك، فلن تأتي أبداً تحت سقفه إلا زائرةً تزوره أحياناً، إلا إن جعل المرض والبؤس مساعَدته مطلوبةً جداً، أو حتى يجعلها التقدم في السن أو الوهن غير قادرة على إعالة نفسها.

قالت: «لا. يا ماري، إن كان لديكما أنتِ وريتشاردسون شيءٌ لتعطيانه فعليكما ادّخاره لعائلتكما. أما أنا وأغنس فسنجمع المال لنفسينا. بفضلِ مقدراتي سأحظى ببناتٍ لتعليمهنَّ، فما نسيت ما حققته. بإذن الله، سأكفّ عن هذه الشكوى العبثية» قالت، والدمعة تلو الأخرى تسيل على خديها على محاولاتها لمنعها، لكنّها مسحتها، وواصلت قائلة، وهي تهز رأسها للوراء بعزم: «سأبذل جهدي، وأبحث عن بيت صغير يقع، على نحو ملائم، في منطقة كثيفة السكان، لكن صحيّة؛ حيث سنأخذ بضع آنسات صغيرات لإسكانهنّ وتعليمهنّ إن استطعنا الحصول عليهنّ، وبحسب عدد الأيام التي ستأتي فيها الطالبات، أو بحسب ما نكون قادراتٍ على تعليمهنّ. سيتمكن أقرباء والدكِ وأصدقاؤه القدامى من إرسال بعض الطالبات إلينا، أو مساعدتنا في تزكيتنا لا شك. لن أطلب ذلك من أقربائي وأصدقائي القدامى. ما رأيكِ يا أغنس؟ هل ترغبين في مغادرة وظيفتكِ الحالية وتحاولين؟».

«راغبة جداً، يا ماما، وسيكفي المال الذي ادخرتُه لتأثيث البيت. يجب أن يؤخذ من المَصرِف مباشرة».

«حين نحتاج إليه. علينا الحصول على البيت وتحديد الخطوات التمهيدية أولاً».

عرضت ماري أن تقرضَ القليل الذي تملكه، لكن أمي رفضته، قائلةً إن علينا البدء بخطة اقتصادية، ورجتْ أن كلَّ أو جزءاً من ما معي، مضافاً إلى ما يمكننا كسبه ببيعنا الأثاث، والقليل الذي وجد بابا العزيز وسيلةً لادخاره لها منذ الديون التي دفعناها، سيكفينا حتى أعياد الميلاد، حين سينشأ، كما رجونا، شيء من جهودنا المتضافرة. اتفقنا أخيراً على أن تكون تلك خطتنا، وأن علينا أن نعمل فوراً على الاستعلامات والتجهيزات. وفي حين أشغلت أمي نفسها بهذه الأمور، عليّ أن أعود إلى هورتن لودج في نهاية عطلة أسابيعي الأربعة، وأخطرهم برحيلي النهائي أثناء ما تُحضَّر الأمور للبداية السريعة لمدرستنا.

بينما ناقشنا تلك المسائل في الصباح الذي ذكرتُه، قرابة أسبوعين بعد وفاة والدي؛ إذ جُلبَت رسالة لأمي، وأنا أرى أيّ لون علا وجهها، مؤخراً هو شاحب كفاية بسبب السهر، والقلق، والحزن المفرط. همهمت قائلة: «من أبي!»، وهي تمزّق غلاف الرسالة بسرعة. لم تسمع من أيٍّ من أقربائها منذ سنوات طويلة. بديهيّاً متسائلةً عمّا قد تحويه الرسالة، شاهدتُ ملامحها وهي تقرؤها، وتفاجأتُ قليلاً من رؤيتها تعضّ على شفتها وتقطب حاجبها كما لو أنها غاضبة. حين انتهت، ألقت بها على الطاولة على نحوٍ اتّسم بقليل من عدم التوقير، قائلةً وهي تبتسم ابتسامة محتقِرة: «كان جدكما طيباً جداً ليكتب إليّ، قال إنّه لا يساوره الشك في أنّي قد ندمتُ وقتاً طويلاً على «زواجي المؤسف»، وإن أقررتُ بذلك فحسب، واعترفتُ بأنّي أخطأتُ في إهمالي لنصيحته، وبأنّي عانيتُ عناءً أستحقّه جراء ذلك، فسيجعل منّي سيدة مرّة أخرى، إن أمكن ذلك بعد انخفاض رتبتي وقتاً طويلاً، وسيذكر بناتي في وصيّته. أحضري إليّ مكتبي يا أغنس، وأبعدي هذه الأشياء، سأردّ على الرسالة مباشرة. لكن، أولاً، لأني قد أحرم كلتيكما من ميراث، عليّ إخباركما بما أنوي قوله. سأقول إنّه مخطئ في افتراضه أنّ بوسعي الندمَ على ولادة ابنتَي (اللتين هما فخر حياتي، ومن المرجح أن تكونا راحتي عند الهرم)، أو الثلاثين سنة التي قضيتُها برفقة أفضل وأعزّ صديق لي، إلى حدّ أنّه، إن كانت مآسينا ثلاثة أضعاف ما كانت عليه (إلا في حال كانت بسببي) فسأظلّ أشد بهجةً بمشاركتها مع والدكما، وبتقديم ما أمكنني من عزاءِ،

وإن كانت معاناته مع المرض عشرة أضعاف ما كانت عليه، ما كنتُ لأندم على رعايته واجتهادي للتخفيف عنه، ولو أنّه قد تزوّج بزوج أغنى، فإنّ المآسي

والصعاب كانت لتظلّ آتية إليه بلا ريب، وأنا مغرورةٌ كفايةً لأتصوّر أنه ما كان لامرأة أخرى أن تواسيه خلالها مواساةً حسنة كما واسيتُه، ليس وكأني خيرٌ من غيري، لكني خُلقتُ له، وخُلق لي، ولا يمكنني أن أندم على الساعات والأيام والسنين السعيدة التي قضيناها معاً، والتي ما كان لأحدنا أن يحظى بها دون الآخر، كما لا يمكنني أن أندم على حظوة أن أكون ممرضته في مرضه، وراحته في مصابه.

«أهذا كافٍ يا طفلتَي أم علي القول إن جميعنا نادمون على ما حدث خلال الثلاثين سنة الماضية، وإن ابنتيّ تتمنيان لو أنهما لم تولدا قط، لكن لمّا كانتا، لسوء حظهما، وُلدتا، فستكونان شاكرتين على أيّ مقدار ضئيل من المال سيتلطّف جدهما كفايةً لمنحهما إياه؟».

استحسنت كلتانا قرار أمي بطبيعة الحال. أزالت ماري أغراض الفطور، وأحضرتُ أنا المكتب، كُتِبَت الرسالة سريعاً وأُرسلت، ومنذ ذلك اليوم، لم نسمع خبراً عن جدنا حتى رأينا موته معلناً عنه في الصحيفة بعدها بوقت طويل، تُرِكت كل ممتلكاته الدنيوية، بطبيعة الحال، لأقربائنا الأغنياء المجهولين.

20

الوداع

استُؤجِر بيتٌ في أ***، المنتجع المائي الأنيق لمدرستنا، وحِيز وعدٌ بحصولنا على طالبتَين أو ثلاث لاستهلالها. عدتُ إلى هورتن لودج منتصف تموز/يوليو تقريباً، تاركة أمي لتعقد الصفقة لبيتنا، ولتحصل على طالبات أكثر، ولتبيع أثاث دارنا القديمة، ولتوفر الاحتياجات للدار الجديدة.

غالباً، نشفق على الفقراء؛ لأنه لا وقت فراغ لديهم ليندبوا أقرباءهم الميتين، وتدفعهم الضرورة إلى العمل خلال أشدّ مصابهم جللاً، لكن أليس العمل النشيط خير علاج للحزن الطاغي، وأنجع ترياق لليأس؟ قد يكون أمراً مُسَلِّياً سلواناً صعباً. قد يبدو من الصعب أن تغمنا هموم الحياة حين لا يكون عندنا رغبة في متعها، أن نُدْفَع للعمل حين يكون القلب مستعداً للتحطم، وتتوسل الروح المغتاظة لترتاح فقط لتبكي في صمت، لكن أوليس العمل خيراً من الراحة التي نشتهيها؟ أليست هذه الهموم الصغيرة المعذِّبة أقلّ ضرراً من التفكير المتواصل في أعظم مصاب يغمُّنا؟ إلى جانب ذلك، لا يمكننا أن نحظى بهموم، وقلق، ومشقات من دون أمل، وإن كان فقط أمل أن ننجز مهماتنا الكئيبة، أو أن نحقق مشروعاً ضروريّاً ما، أو أن نتجنب المزيد من الإزعاج. على أي حال، سعدتُ بأن أمي لديها الكثير من العمل لكلّ قوة جسدية من قوى جسدها المحب للنشاط. ندب جيراننا الطيبون أنّها مَن كانت ذات يوم رفيعة المقام بالثراء والمنزلة الاجتماعية العليا، وقد أضحت اليوم في ضراء كهذه في وقت حزنها، لكني مقتنعة بأنها كانت لتعاني ثلاثة أضعاف لو أنها ظلت في ثرائها الذي يمنحها حرية أن تظل في ذلك البيت، مكان سعادتها المبكرة ومصابها المتأخر، دون ضرورة شديدة تمنعها من التفكير المستمر ورثاء فقدها.

لن أسهب في وصف المشاعر التي تركتُ بها البيت القديم، والحديقة المعروفة، وكنيسة القرية الصغيرة، التي كانت أثيرة عندي على نحو مضاعف؛ لأن أبي، الذي علَّم وصلى ثلاثين سنة بين جدرانها، يرقد الآن نائماً تحت سوسناتها، والتلال القديمة الجرداء، الساحرة بإقفارها، وبينها الوديان الضيقة، تتبسم بأيكاتها الخضراء ومائها المتلألئ، البيت الذي وُلدتُ فيه، مكان كل صداقاتي المبكرة، المكان الذي تمركزت فيه طوال الحياة عواطفي الأرضية،

وتركتها لكيلا أعود إليها مرة أخرى! صحيح، كنتُ عائدة إلى هورتن لودج؛ حيث ما زال هناك، وسط العديد من الشرور، مصدر سعادة واحد باقٍ، لكنها سعادة ممزوجة بالألم المفرط، وإقامتي -وأسفاه!- محدودة بستِّ أسابيع. حتى في ذلك الوقت الغالي، مرّ يوم تلو الآخر ولم أره، إلا في الكنيسة، لم أره قطُّ أسبوعين بعد عودتي. بدا ذلك وقتاً طويلاً عليَّ، ولأني غالباً في الخارج مع طالبتي المتجولة، سيظلّ الأمل يرتفع بالتأكيد، وستنتج عنه الخيبة، وحينها سأقول لقلبي: «هاك دليلاً دامغاً، لو أنَّ عندك الحكمة لتدرك ذلك فحسب، أو الصراحة لتقرّ بذلك، أعني أن تدرك وتقر بأنه لا يكترث لأمرك؛ لأنه لو فكر فيك فقط نصف ما تفكر فيه، لأوجد وسيلة لمقابلتك مرات عديدة قبل هذه. عليك أن تفهم هذا بمشاورتك لمشاعرك. لهذا، كفّ عن هذا الهراء، لا أساس لأملك، اطرد حالاً هذه الأفكار المؤلمة والأماني السخيفة من عقلك، والتفت لواجبك، والحياة المملة الرتيبة التي أمامك. كنت لتدرك أن سعادة كهذه ليست لك».

لكني قابلتُه أخيراً. فاجأني بقدومه وأنا أعبر حقلاً عائدة من زيارة لنانسي براون، التي انتهزتُ الفرصة لزيارتها أثناء ما كانت ماتلدا مري ممتطية فرسها المنقطعة النظير. لا بد من أنه قد سمع عن الخسارة الثقيلة التي تكبدتها، لم يُظهر أيّ تعاطف، ولم يقدّم أي تعزية، لكن أول كلمات نطق بها تقريباً هي: «كيف حال أمكِ؟»، ولم يكن ذلك سؤالاً معتاداً؛ لأنّي لم أخبره أنَّ عندي أمّاً قط، لا بد من أنه عرف هذه الحقيقة من الآخرين، إن عرفها أصلاً، وإلى جانب ذلك، إن في نبرة وأسلوب سؤاله مودةً مخلصة، بل حتى تعاطفاً عميقاً مؤثراً غير واضح. شكرتُه تهذيباً، وأخبرتُه أنَّها بخير على النحو الذي قد يُتَوَقَّع منها أن تكونه. كان: «ما الذي ستفعله؟» السؤال التالي، سؤالاً كان ليعده الكثيرون وقحاً، ويجيبون عنه إجابة مراوغة، لكن هذه الفكرة لم تخطر في بالي قط، وأدليتُ ببيان قصير، لكنه صريح عن خطط أمي وتوقعاتها.

قال: «إذاً، ستغادرين هذا المكان بعد مدة وجيزة؟».

«أجل، بعد شهر».

صمت للحظة كما لو أنه يفكر. حين تكلم مرة أخرى، رجوتُ أن يكون ذلك ليعبّر عن قلقه من رحيلي، لكنّه تكلم ليقول فقط: «أظنّ في أنكِ راغبة كفاية في المغادرة؟».

أجبتُ قائلة: «أجل، بسبب بعض الأمور».

«بسبب بعض الأمور فقط، أتساءل ما الذي قد يجعلكِ تتحسرين على ذلك؟».

انزعجتُ من ذلك إلى حدٍّ ما؛ لأن ذلك أحرجني، لدي فقط سبب واحد لأتحسر على ذلك، وذلك سرّ عميق لا شأن له ليزعجني به.

قلتُ: «لمَ تفترض أنّي أكره المكان؟».

«أخبرتني بذلك بنفسكِ»، كانت الإجابة الحاسمة. «قلتِ، على الأقل، أنتِ غير قادرة على العيش برضا من دون صديق، وليس عندكِ أصدقاء هنا ولا إمكانية لأن تصادقي أحداً، وإلى جانب ذلك، أعرف أنه لا بد من أنكِ تكرهينه».

«لكن، إن كانت ذاكرتك قوية، قلتُ، أو نويتُ القول، إنني لن أقدر على العيش برضا دون صديق في العالم، لم أكن غير منطقية جداً لأتطلب صديقاً بجانبي دائماً. أظنُّ أنَّ بوسعي أن أكون سعيدةً في بيتٍ يعجُّ بالأعداء إن...»، لكن لا. يجب ألا تُكمَل هذه الجملة، صمتُّ وأضفتُ قائلة بسرعة: «إلى جانب ذلك، لا يسعنا حقّاً أن نغادر مكاناً عشنا فيه سنتين أو ثلاثاً، من دون أن نشعر بشيء من الحسرة».

«هل ستتحسرين على فراقكِ الآنسة مري، طالبتكِ الوحيدة المتبقية ورفيقتكِ؟».

«بوسعي أن أقول إني سأتحسر على ذلك إلى حدٍّ ما، فلم أفارق أختها من دون حزن».

«بوسعي أن أتصور ذلك».

«حسناً. الآنسة ماتلدا جيدةٌ بقدرها، بل أفضل منها من ناحية واحدة».

«ما هي؟».

«إنها صادقة».

«والأخرى ليست صادقة؟».

«لن أنعتها بالكاذبة، لكن يجب أن يُعترف بأنّها ماكرة قليلاً».

«أماكرةٌ هي؟ رأيتُ أنها مستهترة وتافهة، والآن». أضاف قائلاً بعد صمت: «بوسعي تماماً أن أصدق أنها كانت ماكرة أيضاً، لكنها ماكرة على نحو مفرط حتى إنها أبدت مظهر البساطة الشديدة والصراحة غير الحذرة، أجل». أكمل قائلاً وهو مستغرق في التفكير: «هذا يفسر بعض الأمور الصغيرة التي حيرتني قليلاً من قبل».

بعد ذلك، غيّر الحديث إلى موضوعات أكثر عمومية. لم يغادرني حتى أوشكنا على بلوغ بوابة الميدان، بالتأكيد هو خرج قليلاً عن طريقه المعهود ليرافقني إلى هذا الحد؛ لأنه الآن عاد واختفى في موس لين، المدخل الذي اجتزناه قبل وقت قصير. يقيناً لم أندم على هذا الظرف، إن كان للحزن أيّ مكان في قلبي، فهو رحيله أخيراً، وأنه ما عاد يسير بجانبي، وأن زمن التفاعل المبهج ذاك قد انتهى. لم يهمس بكلمة حُب، أو يقدم تلميحاً واحداً على الحنان أو العاطفة، ومع ذلك كنت سعيدة جداً. اكتفيتُ بأن أكون بقربه، وأن أسمعه يتكلم بالطريقة التي تكلم بها، وأن أشعر بأنه فكر في أني أستحق أن يتحدث معي، وأني قادرة على فهم وتقدير حديث كذلك كما ينبغي.

قلتُ في نفسي، وأنا أتقدَّمُ ماشيةً في الميدان: «أجل، يا إدوارد وستن، بالتأكيد سأقدر على أن أكون سعيدة في بيت يعجّ بالأعداء إن كان معي صديق واحد فقط يحبّني بصدق وعمق وإخلاص، وإن كان هذا الصديق أنت، رغم أننا قد نكون بعيدين عن بعضنا، ونادراً ما نسمع عن بعضنا، وأندر من ذلك لقيانا، رغم أن الشقاء والمشاكل والاغتياظ قد يحيطون بي، فلهو أمرٌ مبهج جداً لأحلم به! لكن، من عساه يعرف... من عساه يعرف ما الذي قد يجلبه هذا الشهر الواحد؟ عشتُ نحو ثلاث وعشرين سنة، وعانيتُ الكثير، لكني لم أذق إلا القليل من البهجة. هل من المرجح أن حياتي ستكون كئيبة من بدايتها إلى نهايتها؟ أليس من الممكن أن الربّ قد يسمع صلواتي، ويبدد هذه الظلال المورثة للكآبة، ويمنحني بعضاً من أشعة شمس الجنة في النهاية؟ هل سيحرمني بالكامل هذه النعم التي تُعطى بوفرة للآخرين الذين لا يطلبونها، ولا يعترفون بها حين يستلمونها؟ ألا يسمح لي بأن أستمر في الأمل والرجاء؟ أملتُ ورجوتُ مدة طويلة، لكن واأسفاه! واأسفاه! انحسر الوقت، أسبوع تلا الآخر، وباستثناء لمحة بعيدة ولقاءين عابرين، كدنا نقول فيهما شيء، أثناء ما كنتُ أسير مع الآنسة ماتلدا، لم أره إلا في الكنيسة بطبيعة الحال.

والآن، يقترب الأحد الأخير، وآخر قداس. أوشكتُ غالباً على أن أنفجر باكية أثناء العظة، آخر مرة سأسمعه فيها، وأفضل ممّا قد أسمعه من أيّ أحد، مؤكَّد لدي ذلك. لقد انتهت. تُغادر جماعة المصلين، وعليّ اتباعهم، ثم عندها رأيتُه، وسمعتُ صوته أيضاً، في الأرجح لآخر مرة. في فِناء الكنيسة، انقضَّت الآنستان غرين على ماتلدا، وعندهما أسئلة عديدة عن أختها وأمور أخرى جهلتُها. تمنّيتُ فقط أن تفرغا، لكي نسرع عائدتين إلى هورتن لودج، تقتُ إلى أن ألوذ بمعتزل حجرتي، أو معتزل ما في الأراضي المجاورة، كي أتمكن من تسليم نفسي لمشاعري لأبكي وداعي الأخير، وأندب آمالي الزائفة وتوهماتي العبثية. هذه المرة فقط، ثمّ وداعاً للحُلم غير المثمر، فمن تلك اللحظة، وحده الواقع الرصين، المتين، المحزن يجب أن يشغل بالي. لكن، رغم أنّي عزمتُ على

ذلك، قال صوتٌ خفيضٌ قريب بجانبي: «أفترض أنكِ راحلة هذا الأسبوع يا آنسة غري؟»، أجبتُ قائلة: «أجل». جفلتُ من ذلكِ بشدة، ولو أني كنتُ هستيرية بطبعي، لعرّضتُ نفسي بالتأكيد لموقف لا أُحسد عليه حينها. حمداً لله، لم أكن كذلك.

قال السيد وستن: «حسناً. أريد توديعكِ، فليس من المرجح أن أراكِ ثانية قبل رحيلكِ».

قلتُ: «وداعاً، يا سيد وستن». أوه، ما أشدّ ما عانيتُ لأقولها بهدوء! أعطيتُه يدي، فاحتفظ بها بضع ثوانٍ في يده.

قال: «من الممكن أن نتقابل مجدداً. هل سيكون للقائنا من عدمه أيّ أهمية عندكِ؟».

«أجل. سأسرّ جداً برؤيتك ثانية».

لم يسعني أن أقول أقلّ من ذلك. ضغط على يدي بعطف، وذهب. الآن أصبحتُ سعيدة مجدداً، رغم أني كنتُ ميالة إلى الانفجار بكاءً أكثر من أيّ وقت مضى. لو أُجبرتُ على الحديث في تلك اللحظة، لعقبتها تواليات نشيج على نحوٍ يتعذّر اجتنابه، أمّا، والحال كذلك، فلم أتمكن من منع الماء من الانهمار من عينيّ. تمشيتُ مع الآنسة مري، مشيحةً بوجهي، ومهملةً ملاحظة عدة تعليقات متتابعة، حتى صاحت قائلة إنّي إما صمّاء وإما حمقاء، ثمّ (بعد أن استجمعتُ شتات نفسي)، مثل من صحت من نوبة ذهول، رفعتُ عينيَّ فجأةً وسألتُها عما كانت تتحدث.

21

المدرسة

غادرتُ هورتن لودج، وذهبتُ لأنضمّ إلى أمي في دارنا الجديدة في أ***، وجدتُها جيدة في صحتها، وراضية في روحها، بل حتى مبتهجة، رغم أنها متمالكة نفسها ورصينة في سلوكها العام. حظينا فقط بثلاث طالبات داخليات ونصف دزينة طالبات يوميات لنبدأ بهنَّ، لكن، بالاهتمام والمثابرة، رجونا قبل وقت طويل أن نزيد عدد كليهما.

أعددتُ نفسي بطاقةٍ ملائمة لأؤدي واجبات نهج هذه الحياة الجديدة. أدعوها جديدة لأنَّ هناك، بطبيعة الحال، فرقاً كبيراً بين العمل مع أمي في مدرسة لنا، والعمل مأجورةً بين الغرباء، محتقَرة ومعامَلة بقسوة من قبل الكبير والصغير. ولم أشعر خلال أول بضعة أسابيع بالحزن إطلاقاً. «من الممكن أن نتقابل مجدداً»، و: «هل سيكون للقائنا من عدمه أيّ أهمية عندكِ؟». ما زالت تلك الكلمات ترنّ في أذني، وقلبي معتمد عليها. إنها عزائي وعوني السري. «سأقابله كرةً أخرى، سيأتي، أو سيكتب». في الواقع، ما من وعد أشدّ إشراقاً أو أشدّ إفراطاً من أن يَهْمِس به «الأمل» في أذني. لم أصدق نصف ما قاله الأمل لي. تظاهرتُ بأنّي أضحك على الموضوع برمّته، لكنّي أكثر سذاجةً ممّا ظننتُني عليه، وإلا فلم يثب قلبي حين تُسمَع خبطة على الباب الأمامي وتجيء الخادم التي فتحته لتخبر أمي أن سيداً موقراً يرغب في رؤيتها؟ ولِمَ تعكر مزاجي لبقية اليوم حين اتّضح أنه مدرس موسيقا جاء يعرض خدماته على مدرستنا؟ وما الذي أوقف أنفاسي للحظة، حين قالت أمي بعد أن جلب ساعي البريد بضع رسائل: «هاكِ يا أغنس، هذه لكِ»، ورمت إحداها إليّ؟ وما الذي جعل الدماء الساخنة تتدفّق إلى وجهي حين رأيتُ أنها معنونة بخط سيد موقَّر؟ ولماذا، أوه! لماذا راودني شعور الخيبة البارد المقزز ذاك حين مزقتُ الغلاف، واكتشفتُ أنها فقط رسالة من ماري، التي، لسبب أو لآخر، عنونها زوجها لها؟

هل آلت الأمور إلى هذا الحد؛ أن يخيب أملي بتسلمي رسالة من أختي الوحيدة، ولأنّها لم تُكتَب من غريبٍ آخر؟ ماري العزيزة! بل إنّها حتى كتبتها على نحو لطيف جداً وظنت أني سأسعد بها! لم أستحق أن أقرأها! وصدقتُ أثناء سخطي على نفسي أنّ عليّ وضعها جانباً إلى أن أروّض نفسي بجعلي

بحالة ذهنية أفضل، وأصبح أشدّ استحقاقاً بشرف وامتياز قراءتها، لكن أمي تنظر إلي، وتتمنّى معرفة الأخبار التي تحويها؛ لذا قرأتُها وسلمتُها لها، ثم ذهبتُ إلى حجرة الدرس لأُعنَى بالطالبات، لكن وسط هموم النسخ والمسائل الحسابية، في الفترات الفاصلة بين تصحيح الأخطاء هنا، وتوبيخ إهمال الواجب هناك، كنتُ في داخلي أؤدّي مهمّة أشدّ صرامة. قال عقلي لقلبي، أو نفسي الأكثر صرامة لنفسي الأضعف: «ما أغباكِ! أنَّى لكِ أن تحلمي بأن يكتب إليكِ؟ على أيّ أساس بنيتِ أملكِ هذا، أو أمل أنَّه قد يقابلكِ، أو يكلف نفسه عناء الاكتراث بكِ، أو حتى أمل أن يفكر فيكِ ثانية؟»، «على أيّ أساس؟»، ثمّ وضع الأمل أمامي تلك المقابلة الأخيرة القصيرة، وردّد الكلمات التي اعتززتُ بها اعتزازاً مخلصاً في ذاكرتي. «حسناً. ما المميز في ذلك؟ من الذي يعلّق آماله على غُصَين ضعيف جداً؟ ما الشيء الذي كان في تلك الكلمات لن يقوله أحدُ المعارف المشتركين لبعضهم؟ بطبيعة الحال، من الممكن أن تتقابلا مجدداً. كان ليقول الشيء ذاته لو أنكِ كنتِ ذاهبة إلى نيوزيلاندا، لكن لم يكن في هذا ضمنيّاً نيّة في مقابلتكِ، ثمّ في ما يخصّ السؤال الذي تلاه، أيّ أحدٍ قد يسأل ذلك، وبماذا أجبتِ؟ بردٍّ أحمق عادي فحسب، ردٍّ كنتِ لتردّي به على السيد مري، أو أيّ أحدٍ آخر أنتِ على علاقة رسمية معه على نحو مقبول». أصرّ الأمل قائلاً: «لكن النبرة والطريقة التي تكلّم بها». «أوه، هذا هراء! إنّه دائماً يتكلّم على نحو مثير للإعجاب، وكان في تلك اللحظة يقف أمامه مباشرة آل غرين والآنسة ماتلدا، وأشخاص آخرون يمرّون، وكان ملزماً بأن يقف قريباً منكِ، وأن يتحدث بصوت خفيض، إلا إن رغب في أن يسمع الجميع ما قاله؛ الأمر الذي، رغم أنه لم يقل شيئاً ذا بال، سيرغب بطبيعة الحال في ألا يحدث»، لكن فوق كلّ شيء، ضغطة اليد الحازمة تلك مع رقّتها، التي بدا أنّها تقول: «ثقي بي»، والعديد من الأمور إلى جانب ذلك، الأمور التي تُسِرُّ جدّاً، وتكاد تكون إطرائية جداً، حتى إذا قالها المرء لنفسه. «حماقةٌ فاضحة! أسخف من أن تتطلب معارضتها، محض اختراعات من الخيال، اختراعات ينبغي لكِ أن تخجلي منها. لو أنكِ وضعتِ في الحسبان مظهركِ الخارجي غير الجذاب، وتحفظكِ غير الودي، وعدم ثقتكِ الحمقاء بالنفس، التي تجعلكِ -لا شك- تبدين باردة، ومملة، وخرقاء، وربما نزقة أيضاً، لو أنكِ وضعتِ في الحسبان على نحو صحيح هذه الأمور منذ البداية، لما أضمرتِ أفكاراً وقحةً كهذه، والآن لمّا كنت أصبحتِ حمقاء جداً، أرجوكِ توبي وقوّمي نفسكِ، ولنكفّ عن الأمر برمّته!».

لا أستطيع أن أقول إنّي أطعتُ أوامري طاعةً تامة، لكنّ حجة كهذه أضحت أشد فعالية مع مرور الوقت، ولم يُرَ السيد وستن، أو يُسمع خبرٌ عنه، إلى أن، أخيراً، كففتُ عن الأمل، فحتى قلبي أقرّ بأنّ كلّ هذا لا جدوى منه، لكن رغم ذلك ما زلتُ أفكر فيه، وأبقيتُ في الذهن صورته، واعتززتُ بكلّ كلمة،

ونظرة، وإيماءة استطاعت ذاكرتي تذكّرها، واستغرقتُ في التفكير في فضائله وميزاته، بل في الواقع بكل ما رأيتُ، وسمعتُ، أو تخيلتُ عنه.

«يا أغنس، أظنُّ أنّ هواء البحر وتغيير المكان هذين قد أضرّا بكِ. لم أركِ بائسة هكذا قطُّ. لا بد أنّ علّة ذلك هي جلوسكِ أكثر ممّا ينبغي، وسماحكِ لهموم حجرة الدرس أن تقلقكِ. عليكِ أن تتعلّمي كيف تتعاملين مع الأمور بروية، وأن تكوني أكثر نشاطاً وبهجةً، عليكِ أن تتمرّني متى سنحت لكِ الفرصة لذلك، وأن تتركي لي أشدَّ الواجبات إملالاً، فستعمل فقط على تمرين صبري، وربما تختبر طبعي قليلاً».

هذا ما قالته أمي ونحن جالسات في العمل ذات صباح في عطلة عيد الفصح، أكدت لها أنّ أعمالي ليست إطلاقاً مضايِقة، وأنّي بخير، أو إن كان هناك خطب ما فإنّه سيختفي ما إن تنتهي أشهر الربيع المرهقة، حين يأتي الصيف سأصير قويّة ومعافاة على النحو الذي تتمنّى رؤيتي به، لكنَّ ملاحظتها أجفلتني داخليّاً، كنتُ على دراية بأنّ قوتي تضعف، وأن شهيتي تقل، وأني أضحيتُ كسولة ومكتئبة، وإن كان حقّاً لا يمكنه أبداً أن يكترث بشأني، ولا يمكنني أن أراه أبداً بعد الآن، إن حُرّم علي أن أخدم سعادته، إن حُرِّم علي، للأبد، أن أتذوق مسرات الحُب، وأن أسعِد وأسعَد، إذاً، ستكون الحياة عبئاً، وإن استدعاني أبي السماوي، فسيسعدني أن أرتاح. لكن لا يصحُّ أن أموت مُخَلِّفةً أمي. يا لي من ابنة أنانية وحقيرة لأنساها للحظة! أولم تُسَلَّم سعادتها تسليماً كبيراً إلى عهدتي؟ ورفاه طالباتنا الصغيرات أيضاً؟ هل عليّ أن أنكمش ذعراً من العمل الذي وضعه الله أمامي؛ لأنه لا يناسب ذوقي؟ أوليس هو يعرف خيراً مني ما ينبغي لي فعله، وأين يجب عليّ أن أعمل؟ وهل ينبغي لي أن أتوق إلى ترك خدمته قبل أن أنجز مهمتي، وأتوقع الدُّخول لراحته من دون أن أعمل لأستحقها؟ «لا، بمعونته سأنهض وأنكبُّ بجدٍّ على واجبي المحدد. إن لم تكن السعادة في هذا العالم مقدّرة لي، فسأسعى لتعزيز رفاه من هم حولي، ومكافأتي ستكون في الآخرة». هذا ما قلتُه في قلبي. ومنذ تلك اللحظة سمحتُ لأفكاري بأن تجول حول إدوارد وستن، أو في الأقل أن أشغل بالي به بين الفينة والأخرى، فقط مكافأةً للمناسبات النادرة، وسواء أكان ذلك بسبب اقتراب الصيف أم بتأثير هذه الحلول الناجعة، أو مضي الوقت، أو جميعها معاً، استعدتُ هدوء ذهني سريعاً، والصحة الجسدية والنشاط أخذا أيضاً ببطء، لكن على نحو مؤكّد، بالعودة.

مبكراً في حزيران/يونيو، تسلمتُ رسالة من السيدة آشبي، التي عُرفت سابقاً بالآنسة مري. كتبت إليّ مرتين أو ثلاثاً من قبل، خلال المراحل المختلفة في رحلتها الزفافية، دائماً معنوياتها مرتفعة، وتصرح دائماً بأنها سعيدةٌ جداً. تعجبتُ في كل مرة مِن أنها لم تنسني في خضِمِّ الكثير من المباهج والمناظر

المتنوعة. لكن، أخيراَ، توقفت عن الكتابة زمناَ، وبدا أنها نسيتني؛ لأنه مرَّ نحو سبعة أشهرٍ من دون رسالة. بطبيعة الحال، لم أحطِّم قلبي بسبب ذلك، رغم أني تساءلتُ كثيراً كيف أصبح حالها، وحين وصلت هذه الرسالة الأخيرة على نحو غير متوقع، سعدتُ كفاية بتسلّمها. كانت مؤرخة من آشبي بارك، حيث استقرت أخيراً، بعد أن قسمت وقتها سابقاً بين أوربا والعاصمة. قدمتْ أعذاراً كثيرة على إهمالي مدّة مديدة، وأكدت أنها لم تنسني، وغالباً ما نوت الكتابة... إلخ، إلخ، لكنّ شيئاً ما دائماً يعيقها. أقرَّت بأنها تعيش حياة خليعة جداً، وأن عليّ أن أعدّها فاسدة جداً وغير مراعية للآخرين إطلاقاً، لكن، رغم ذلك، فكرتْ كثيراً، من بين عدة أفكار أخرى، أنّها راغبة في رؤيتي رغبةً شديدة، كتبت قائلة: «نحن هنا منذ عدة أيام بالفعل. ليس معنا صديق واحد، وفي الأرجح سنشعر بالملل الشديد. تعلمين أني لم أرغب قطُّ في العيش مع زوجي مثل سلحفتين في عش، وإن كان أبهج كائن ارتدى المعطف في يوم؛ لذا أشفقي عليّ وتعالي. أفترض أن عطلتكِ في منتصف الصيف تبدأ في حزيران/يونيو، مثل الناس الآخرين؛ لذا لا يمكنكِ أن تتذرعي بقلة الوقت، وعليك أن تأتي. في الواقع، سأموت إن لم تأتِ. أريدكِ أن تزوريني بصفتكِ صديقة، وأن تظلي وقتاً طويلاً. لا أحد معي، كما أخبرتُكِ سابقاً، عدا السيد توماس والسيدة العجوز آشبي، لكن ليس عليكِ أن تبالي بهما، فلن يزعجانا بصحبتهما إلا قليلاً. وستُخصَّص لكِ غرفة متى رغبتِ في أن تأوي إلى فراشكِ، والكثير من الكتب لتقرئيها حين لا تكون صحبتي مسلية كفاية.

نسيتُ ما إذا كنتِ تحبين الرُّضَّع أو لا، إن كنتِ تحبينهم، فقد تسعدكِ رؤية رضيعتي، أجمل طفلة في العالم بلا شك، بل الأفضل من ذلك أنّه لا يتحتم إزعاجُ نفسي بإرضاعها، عزمتُ على أني لن أزعج نفسي بذلك.

للأسف، إنّها فتاة، والسيد توماس لم يسامحني قط، لكن، على أي حال، إن أتيتِ فحسب، أعدكِ بأنكِ ستكونين مربّيتها ما إن يتأتّى لها الكلام، ويجب أن تربّيها كما ينبغي، وتجعليها امرأة خيراً من أمها. وسترين بودلي أيضاً، الفاتن الصغير الرائع الذي جُلبَ من باريس، ولوحتين إيطاليتين ممتازتين لهما قيمة كبيرة. نسيتُ اسم الرسام. لا شكَّ في أنكِ ستكونين قادرة على اكتشاف جماليات مذهلة فيهما، جماليات يجب عليكِ أن تبينيها لي؛ لأني أعجب بالأشياء عن طريق السماع فقط، والكثيرَ من التحف الراقية، إلى جانب ذلك، التي اشتريتها من روما وأماكن أخرى، وأخيراً، سترين بيتي الجديد، البيت الفخم والأراضي المجاورة التي رغبتُ فيها بشدة. وأسفاه! إنَّ أمل الترقب يفوق لذة الامتلاك! يا لها من عبارة حكيمة! أؤكد لكِ أني قد أصبحتُ تماماً عقيلة عجوز رصينة. أرجوكِ تعالي، ولو كان ذلك فقط لتشهدي التغيُّر المذهل.

أرسلي إليّ ردكِ بالبريد فوراً، وأخبريني متى تبدأ عطلتكِ، وقولي إنكِ ستأتين في اليوم الذي يليها، وستظلين إلى اليوم الذي يسبق نهايتها. رحمةً بِـ...

«مُحِبَّتكِ، روزالي آشبي»

أريتُ أمي هذه الرسالة العجيبة، وشاورتُها في ما ينبغي لي فعله. نصحتني بالذهاب، فذهبتُ راغبةً كفايةً لمقابلة السيدة آشبي، ورضيعتها أيضاً، وفعل أيّ شيء بوسعي فعله لأفيدها، بالمواساة أو النصيحة؛ لأني تصورتُ أنها لا بد حزينة، وإلا لما كتبت إليّ، لكن شعرتُ، كما كان ليُتصوَّر بسهولة، أني بقبولي الدعوة قد ضحيتُ تضحيةً كبيرة لها، وأضررتُ بمشاعري بطرق عديدة، بدلاً من أن أسعد بالامتياز المشرف المتمثّل في توسّل السيدة البارونة إليّ أن أزورها بصفتي صديقة. على أي حال، عزمتُ أمري على أن تكون زيارتي مدة بضعة أيام في أقصى حدّ، ولن أنكر أني استمديتُ بعض المواساة من فكرة كون آشبي بارك ليست بعيدة عن هورتن، وقد أتمكن من مقابلة السيد وستن، أو في الأقل أن أسمع خبراً عنه.

22

الزيارة

كان آشبي بارك يقيناً بيتاً يبعث السرور في النفس؛ هو قصرٌ فخمٌ من الخارج، واسعٌ وأنيقٌ من الداخل، وذو ميدان فسيح وجميل بسبب أشجاره القديمة العظيمة، وقطيع أيائله الفخمة، وبركةِ مائه الكبيرة، والأيكات العتيقة التي تمتد إلى ما يجاوزه، فما من أرض وعرة لتمنحه تنوعاً طبيعياً، وما من أرضٍ متموجة إلا قليلٌ فحسب، تضفي على مرأى الميدان سحراً أخَّاذاً. إذاً، هذا هو المكان الذي تاقت روزالي مري إلى أن تَعدّه بيتها، ويجب أن يكون لها نصيب منه تحت أيّ شروط؛ أيّاً كان الثمن الذي عليها دفعه لنيل لقب السيدة، وأيّاً كان من سيكون شريكها في شرف وسعادة عزبة كهذه! حسناً. أنا لا أرغب في لومها الآن.

استقبلتني استقبالاً لطيفاً جدّاً، ورغم أنّي ابنة قس فقير ومربية ومعلمة، رحبت بي بسعادة غير مصطنعة في بيتها. وما فاجأني بالأحرى أنها كلفت نفسها عناء جعل زيارتي مريحة. صحيح أنَّ بوسعي رؤية أنها توقعت مني أن أفتن أيّما فتنة بالفخامة المحيطة بها، لكني أعترف بأنّي بالأحرى انزعجتُ من محاولاتها الواضحة لطمأنتي، ومنعي من الارتباكِ بسبب هذه الفخامة الكثيرة، خائفة جداً من فكرة مقابلة زوجها وأمه، أو محرجة جداً من مظهري المتواضع. لم أخجل منه إطلاقاً، فقد -وإن كان غير مبهرج- حرصتُ على ألا يبدو رثّاً أو مبتذلاً، وانبغى أن أكون مرتاحة على نحو كبير لولا أن مضيفتي المتعاطفة كلفت نفسها عناء واضحاً لجعلي كذلك. أمَّا الفخامة التي أحاطت بها فلم تفتِنّي، ولم يؤثر فيّ تأثيراً نزراً أيُّ شيء أبصرتُه في مظهرها المتغير. سواءٌ أكان ذلك عائداً إلى الانغماس في الملذات الأنيقة أم شرّاً آخر. لقد بانَ عليها، في مدة تزيد على اثني عشر شهراً بقليل، تأثيرٌ قد يُتَوَقَّع من سنين مديدة تقليص امتلاء جسدها، ونضارة بشرتها، ونشاط حركتها، وحيوية معنوياتها. أردتُ أن أعرف ما إذا كانت حزينة، لكني شعرتُ بأنَّ ذلك ليس من شأني لأسأله. قد أسعى لكسب ثقتها، لكن إن شاءت إخفاء هموم زواجها عني، فلن أزعجها بأيّ أسئلة فضولية. لذا قيَّدتُ في البداية نفسي بعدة أسئلة عامة عن صحتها ورفاهها، وبضع مدائح للميدان والفتاة الصغيرة التي كان ينبغي أن تكون فتى، وهي طفلةٌ صغيرةٌ ضعيفةٌ تبلغُ من العمر سبعة أو ثمانية أسابيع،

بدا أنّ أمها لا تُعيرها أيّ اهتمام أو عاطفة على نحو كبير، رغم أني لم أتوقع منها أن تبدي أكثر من هذا.

بعد وقتٍ قصير من وصولي، كلّفت خادمها بإرشادي إلى غرفتي والتأكد من أنّ عندي كلّ ما أردتُه. كانت غرفة صغيرة ومتواضعة، لكنها مريحة على نحو كافٍ. حين نزلتُ منها، بعد أن جردتُ نفسي من كل عوائق السفر، وتزينتُ على نحوٍ يراعي مشاعر مضيفتي السيدة، أرشدتني بنفسها إلى الغرفة التي سأشغلها حين أرغب في أن أكون وحدي، أو حين تكون مشغولة مع الضيوف، أو مجبرة على أن تكون مع أمِّ زوجها، أو منعها شيء ما في حالة أخرى من الاستمتاع بلذّة صحبتي. كانت غرفة معيشة هادئة مرتّبة صغيرة، ولم أشعر بالذنب على أن يُوَفَّر ملاذٌ كهذا لي.

قالت: «سأريكِ المكتبة في وقتٍ ما. لم أعاين رفوفها قط، لكن بوسعي أن أقول إنها مليئة بالكتب الحكيمة، ولكِ أن تذهبي وتستعيري أيّاً منها متى أردتِ. والآن عليكِ تناول الشاي، سيحين قريباً وقت الوجبة الرئيسة، لكني ظننتُ أنك، لمّا كنت معتادة على العشاء في الساعة الواحدة، ربما ستفضلين شرب كوب من الشاي عند هذا الوقت، وأن تتعشي حين نتغدى، ثم أنتِ تعلمين أن بوسعكِ أن تحظي بشايكِ في هذه الغرفة، هذا سينقذكِ من ضرورة العشاء مع السيدة آشبي والسيد توماس. سيكون الأمر بالأحرى محرجاً، على الأقل، ليس محرجاً، لكن، بالأحرى... أ... أنتِ تعرفين ما أعني. ظننتُ أن ذلك لن يروق لكِ جداً، ولاسيما أننا قد نحظى بسيداتٍ وسادة آخرين ليتعشوا معنا أحياناً».

قلتُ: «بالتأكيد. أفضل أن أتناوله بالطريقة التي ذكرتِها، وإن لم يكن عندكِ اعتراض، أفضل أن أحظى بكل وجباتي في هذه الغرفة».

«لماذا؟».

«لأني أتصور أن ذلك سيكون ملائماً أكثر للسيدة آشبي والسيد توماس».

«غير صحيح إطلاقاً».

«على أي حال، سيكون ذلك ملائماً أكثر لي».

اعترضتْ اعتراضات يسيرة، لكنها رضخت سريعاً، وكان بوسعي أن أرى أن عرضي أراحها راحة كبيرة.

قالت: «تعالي الآن إلى قاعة الاستقبال. ها هو الجرس الذي ينادي لارتداء اللباس، لكني لم أقرعه بعد، لا فائدة من التأنق حين لا يوجد أحد ليراكِ، وأريد

أن أحظى بمحادثة صغيرة».

كانت حجرة الاستقبال -لا شك- جليلةً ومؤثثة على نحو راقٍ، لكني رأيتُ سيدتها الصغيرة ترمقني أثناء دخولنا، كما لو أنها تريد أن تلاحظ مدى افتتاني بالمنظر، ولذلك عزمتُ عليّ أن أحافظ على مظهر اللامبالاة الخالية من التعابير، كما لو أني لم أرَ شيئاً مبهراً إطلاقاً. لكن كان ذلك للحظة فقط، همس الضمير فوراً قائلاً: «لمَ عليَّ تخييب ظنّها حماية لكبريائي؟ لا. على العكس لا بد من أن أضحي بكبريائي لأمنحها مسرة غير مؤذية صغيرة». ونظرتُ صدقاً حولي، وأخبرتها أنّها حجرة بديعة، ومؤثثة على نحو أنيق. قالت القليل، لكنّي رأيتُها سعيدة.

أرتني كلبها الفرنسي السمين الراقد ملتفّاً حول نفسه على وسادة حريرية، واللوحتين الإيطاليتين البديعتين اللتين لم تمنحني وقتاً لمعاينتهما، لكنها، أثناء قولها إنَّ عليّ أن أنظر إليهما في يوم آخر، أصرَّت على أن أبدي إعجابي بالساعة الصغيرة المرصعة بالجواهر التي اشترتها من جنيف، ثم أخذتني في الحجرة لتشير إلى عدة طرائف فنية اشترتها من إيطاليا: ساعة راقية صغيرة، وعدة تماثيل نصفية، وتماثيل صغيرة جميلة، ومزهريات، كلها منحوتة من رخام أبيض. تحدثتْ عن تلك الأشياء بحيوية، وسمعتْ تعليقاتي المعجَبة بابتسامة سعادة، لكنَّ ابتسامتها تلاشت سريعاً، وأُتبِعَت بتنهيدة كئيبة، كما لو أنها مدركةٌ عجزَ كل تلك الأشياء التافهة عن إسعاد قلب الإنسان، وعجزها المحزن عن إشباع طلباته النهمة.

ثم، وهي تتمدد على الأريكة، أشارت إلى كرسي مريح واسع منتصب في الجهة المقابلة، ليس أمام النار، بل أمام نافذة مفتوحة على مصراعيها تُذكرنا بأننا في فصل الصيف، في مساء جميل دافئ في أواخر منتصف حزيران/يونيو. جلستُ لحظةً صامتة، مستمتعة بالهواء الهادئ النقي والمنظر المبهج للميدان أمامي الغني بالخضرة وأوراق الشجر والمستدفئ بأشعة الشمس الصفراء، مرتاحةً بالظلال الطويلة لليوم الآخذ بالأفول. لكن عليّ أن أستغل هذا الصمت. لدي أسئلة لأطرحها. ومثل فحوى حاشية رسالة ليدي، ينبغي أن يأتي أهم موضوع في الأخير؛ لذا بدأتُ بالسؤال عن حال السيد والسيدة مري، والآنسة ماتلدا، والسيدين الصغيرين.

قالت لي إن بابا أصيب بالنقرس؛ الأمر الذي جعله متوحشاً، مؤكداً أنه لن يترك خموره الفاخرة، ووجباته الرئيسة وعشاءاته. تشاجر مع طبيبه، لأنّ الأخير جرؤ على أن يقول إنّه ما من دواء بوسعه شفاؤه وهو يعيش على هذا النحو غير المنضبط. أما ماما والباقي فعلى خير ما يرام. لا تزال ماتلدا طائشة ومتهورة، لكن أصبح لديها مربية أنيقة، وتحسّنت على نحو كبير في سلوكها،

وستُقَدَّم قريباً للمجتمع، وجون وتشارلز (اللذان هما الآن في المنزل أثناء العطلة) لا شك: «فتيان ممتازان، جريئان، عنيدان، مولعان بالإزعاج الطفيف».

قلتُ: «وكيف حال الباقي؟ آل غرين مثلاً؟».

أجابت مبتسمةً ابتسامةً واهنة: «آه! السيد غرين منفطر الفؤاد، كما تعلمين، لم يتخطَ خيبة أمله بعد، وأفترض أنه لن يتخطاها أبداً. محكوم عليه أن يبقى أعزبَ شيخاً، وأختاه تبذلان جهدهما لتتزوجا».

«وآل ميلثام؟».

قالت: «أوه. أفترض أنهم على حالهم، لكني لا أعرف إلا القليل عن أيّ منهم. وأردفتْ قائلةً، محمرةً خجلاً قليلاً، ومبتسمة مجدداً: «باستثناء هاري. رأيتُه كثيراً ونحن في لندن؛ لأنه ما إن سمع أننا هناك حتى جاء متذرعاً بزيارة أخيه، وكان إما يتبعني مثل ظلّي أينما ذهبتُ وإما يقابلني مثل انعكاسي في المرآة في كل منعطف. لا ينبغي لكِ أن تبدي مذهولةً جداً يا آنسة غري، كنتُ متحفظة جداً، أؤكد لكِ هذا، لكن أنتِ تعلمين أنّ المرء ليس بيده حيلة في منع إعجاب الناس به. يا للرجل المسكين! لم يكن المتيم الوحيد بي، رغم أنه لا شك أبرزهم، وأشدهم إخلاصاً بحسب ما أظن، وقرَّر ذلك البغيض... احم... السيد توماس أن يشعر بالغضب من ذلك، أو من نفقاتي المسرفة، أو شيء من هذا القبيل، وأسرع بإعادتي إلى الريف بغتة؛ حيث عليَّ أداء دور الناسك كما أفترض لبقية حياتي».

عضت شفتها، وعبست عبوساً انتقاميّاً في وجه عزبتها الجميلة التي تاقت ذات يوم إلى أن تعدُّها ملكيتها.

قلتُ: «والسيد هاتفيلد؟ ماذا حلّ به؟».

ابتهجت مجدداً، وأجابت بمرح: «أوه! لقد غازل عانسَ طاعنة في السن، وتزوجها منذ وقت ليس بطويل، مرجّحاً ثراءها على جمالها الزائل، متوقعاً أن يجد في المال العزاء الذي حُرم منه في الحب، هاها!».

«حسناً. أظن أن هذا كل شيء، باستثناء السيد وستن، كيف حاله؟».

«أنا متأكدة من أني لا أعرف. لقد غادر هورتن».

«منذ متى؟ وإلى أين ذهب؟».

أجابتني قائلة وهي تتثاءب: «لا أعرف شيئاً عنه، باستثناء أنه غادر قبل شهر. لم أسأل إلى أين قط»، (كنتُ لأسأل ما إذا كان قد غادر للسكن أو لمحض وظيفة خوري أخرى، لكنني ارتأيتُ أنه يستحسن ألا أفعل)، واصلتْ قائلة: «وقد اضطرب الناس اضطراباً عظيماً لرحيله ما جعل السيد هاتفيلد يستاء، فهو لم يحبه لأن له نفوذاً كبيراً على العامة، ولأنه لم يكن طيعاً وخاضعاً له كفاية، وبسبب آثام أخرى لا تُغفر لا أعرفها. لكن الآن، عليّ حقاً أن أذهب وألبس، سيرنُّ الجرس التالي قريباً، وإن ذهبتُ إلى العشاء بهذا الزي فلن تكف السيدة آشبي عن انتقادي. عجيب أنَّ المرء لا يستطيع أن يكون سيداً في بيته! اقرعي الجرس فحسب، وسأرسل خادمي وأخبرهم أن يجلبوا لكِ بعض الشاي. آهٍ من تلك المرأة التي لا تطاق!».

«من؟ خادمكِ؟».

«بل أم زوجي، يا للخطأ المحزن الذي ارتكبتُه! بدلاً من أن أدعها تنتقل إلى منزل آخر كما عرضتْ عليَّ حين تزوجتُ، كنتُ حمقاء كفاية لأطلب منها البقاء للعيش هنا، وأن تدير شؤون البيت لي؛ لأنه، في المقام الأول، أملتُ أننا سنقضي معظم وقت السنة في المدينة، وفي المقام الثاني، لأني يافعة جداً وغير خبيرة. ذُعرتُ من فكرة امتلاك بيت مليء بخدم عليّ إدارتهم، بيت عليَّ تنظيم عشائه، وتضييف الناس في حفلاته، وكل ذلك. وظننتُ أنها قد تساعدني بخبرتها، ولم أحلم قط في أنها قد تكون غاصبة وطاغية وكابوساً وجاسوسة وكل شيء آخر مقيت. أتمنى لو أنها ميتة!».

ثم استدارت لتعطي أوامرها للخادم الذي كان يقف منتصباً قريباً من الباب خلال نصف الدقيقة الأخيرة، وسمع الجزء الأخير من ملاحظاتها الانتقادية، وبطبيعة الحال، كوَّن تأملاته عن تلك الملاحظات، بالرغم من مظهره الجامد المتخشب الذي ارتأى أنه ينبغي له الحفاظ عليه في قاعة الاستقبال. حين علقتُ بعد ذلك بأنه لا بد قد سمعها، أجابتْ قائلة: «أوه، لا يهم! لا أكترث للخدم قط. إنهم أناسٌ آليِّون فحسب، لا يعنيهم ما يقوله أو يفعله رؤساهم. لن يجرؤوا على إذاعة الأمر. أما في ما يتعلق بما يفكرون فيه -إن جرؤوا على التفكير أساساً- فبالتأكيد لا أحد يكترث لذلك. سيكون ذلك مضحكاً جداً بالتأكيد، أن يُخرسنا خدمنا!».

بقولها ذلك، هرعت لتتزين زينتها المتعجلة، تاركة إياي لأهتدي إلى طريق العودة إلى غرفة معيشتي؛ حيث قُدِّم لي في الوقت المناسب كوب شاي. بعد ذلك، جلستُ أتأمل حال ماضي السيدة آشبي وحاضرها، وقلة المعلومات التي عرفتُها عن السيد وستن، والفرصة الضئيلة السانحة لرؤيته أو سماع المزيد عنه خلال حياتي الهادئة الرتيبة، التي، من الآن فصاعداً، بدا أنها لا تقدم بديلاً

للأيام الماطرة بغزارة، والأيام الغائمة بالغيوم الرمادية من دون وابل المطر. لكني، أخيراً، بدأتُ أتعب من أفكاري، ورغبتُ في أن أعرف أين أحد المكتبة التي ذكرتها مضيفتي، وتساءلتُ حول ما إذا كنتُ سأظل هناك لا أفعل شيئاً حتى موعد النوم.

لأني لم أكن غنية كفاية لامتلاك ساعة، لم أكن أعرف كم من الوقت مضى، باستثناء ملاحظتي الظلال التي تتمدّد ببطء من النافذة، والتي قدمت منظراً جانبياً يشمل موضعاً من الميدان، ولفيفَ أشجار احتلَّ عددٌ لا يحصى من سرب غدفان صاخبةٍ أغصانَها العليا، وجداراً عالياً بوابته خشبية ضخمة، متصلة -لا شك- بفناء الإسطبل؛ لأن طريق عربات واسعاً يمتد إليه من الميدان. احتلت ظلال هذا الجدار سريعاً كل الأرض بحسب ما أمكنني الرؤية، مجبرةً أشعة الشمس الذهبية على التراجع تدريجياً، لتلوذ أخيراً برؤوس الأشجار، بعد وقت قصير، حتى هي تُركَت في الظلال، ظلال التلال البعيدة، أو ظلال الأرض نفسها. وتعاطفاً مع سكان المغدفة الفضوليين، حزنتُ لرؤية مسكنهم، الذي استحمّ، قبل وقت قصير، في الضوء المتألق، يتضاءل إلى لون العالم الأدنى الكئيب اليومي، أو عالمي الداخلي. للحظة، ربّما لا تزال الطيور، التي حلّقت فوق البقية، تستلم البريق في أجنحتها، وأضفى ذلك على ريشها الأسود لونَ وتألّق الذهب الأحمر الغامق. أخيراً،

اختفى هذا أيضاً. دنا الشفق منسلاً، وأمستِ الغدفان أشد هدوءاً، وأكثر تعباً، وتمنّيت أني ذاهبة إلى المنزل غداً. أخيراً خيم الظلام، وفكرتُ في أن أقرع الجرس ليجلبوا لي شمعة، وأخلد إلى النوم، حين ظهرت مضيفتي معتذرةً اعتذارات عديدة على إهمالي وقتاً طويلاً، مُلقيةً كلّ اللوم على تلك «العجوز البغيضة» كما كانت تسمّي أم زوجها.

قالت إذا لم أقعد معها في حجرة الاستقبال حين يحتسي السيد توماس نبيذه، فلن تغفر لي أبداً، ثمّ إذا غادرتُ الحجرة في اللحظة التي يأتي فيها، كما فعلتُ مرة أو مرتين، فإنّ تلك إهانة لا تُغفر بحقّ عزيزها توماس، فهي لم تُظهِر عدم احترام كهذا لزوجها قط. أما العاطفة، فتفترض أنّ الأزواج لا يفكرنَ بها أبداً هذه الأيام، لكن الأمور مختلفة في زمنها، وكأنّ بقائي في الحجرة سيُجنَى منه أيّ نفع، وهو لا يفعل شيئاً سوى التذمّر والتوبيخ حين يكون في مزاج سيّئ، ويتحدّث بهراء مقرف حين يكون في مزاج جيد، ويذهب للنوم على الأريكة حين يكون أغبى من أن يفعل شيئاً سواهما، وهو الأمر الذي يفعله كثيراً الآن، حين لا يجد ما يفعله سوى إدمان نبيذه.

«لكن ألا يمكنكِ محاولة إشغال عقله بشيء أفضل، وإغرائه بالكفِّ عن عاداته هذه؟ أنا متيقنة من أنكِ تتمتعين بقوة الإقناع، ومؤهلات تخولكِ تسلية

سيدٍ موقّر ستسعد كثيرٌ من النساء بامتلاكها».

«إذاً، تظنين أنّي سأكلف نفسي عناء تسليته! لا، هذا ليس مفهومي عن امرأة الرجل. إن الزوج هو المطلوب منه أن يسعد امرأته، وليس هي أن تسعده، وإن لم يكن سعيداً معها كما هي، وممتنّاً لامتلاكها أيضاً، فإنه لا يستحقها. هذا كل ما في الأمر. أما عن الإقناع، فإني أؤكد لكِ أني لن أزعج نفسي بذلك. لدي ما يكفي لفعله كي أتحمله دون أن أحاول إصلاحه. لكني آسفة لترككِ وحدكِ زمناً طويلاً، يا آنسة غري، كيف أزجيتِ الوقت؟».

«أزجيتُ معظمه بمراقبة الغدفان».

«رُحماك. ما أشدَّ الضجر الذي لا بد من أنكِ شعرتِ به! عليّ حقّاً أن أريكِ المكتبة، ويجب أن تقرعي الجرس لكلّ ما تحتاجين إليه، تماماً كما كنتِ لتفعلي لو كنتِ في نُزل، وأن تريحي نفسكِ. لدي أسبابي الأنانية لرغبتي في جعلكِ سعيدة؛ لأني أريدكِ أن تبقي معي، وألا تحقّقي تهديدكِ المروّع بهروبكِ خلال يوم أو يومين».

«حسناً، لا تدعيني أبقيكِ خارج حجرة الاستقبال وقتاً أطول الليلة. أما الآن فأنا متعبة وأرغب في الخلود إلى النوم».

23

الميدان

نزلتُ قبل الساعة الثامنة بقليل في الصباح التالي، بحسب ما عرفتُ من صوت دقّات ساعة بعيدة. ما كان هناك من أثر للفطور. انتظرتُ أكثر من ساعة قبل أن يُجلَب، وأنا ما زلتُ أتوق عبثاً إلى إذنٍ بدخول المكتبة. وحين انتهت تلك الوجبة الوحيدة، انتظرتُ مجدداً نحوَ ساعةٍ ونصف الساعة في ترقّب وقلق، غير متيقّنة ممّا عليّ فعله. جاءت السيدة آشبي أخيراً لتصبِّح علي. أعلمتني أنها أفطرت لتوّها، والآن تريدني أن أتنزّه معها نزهة مبكرة في الميدان. سألتْ منذ متى وأنا مستيقظة، وحين أجبتُها، أبدت أسفها الشديد، ووعدتني مجدداً بأن تريني المكتبة. اقترحتُ عليها أنّه يُستحسن بها فعل ذلك فوراً؛ لأنه حينها لن توجد بعدها أيُّ مشكلة تعزوها إلى التذكّر أو النسيان. امتثلتْ، بشرط ألا أفكر في القراءة أو أشغل بالي بالكتب الآن؛ لأنها ترغب في أن تريني الحديقة، وأن تتنزه في الميدان معي قبل أن يصبح الجو حاراً جداً على التمتع بالتنزه، وقد أصبحَ تقريباً حارّاً سلفاً. بطبيعة الحال، وافقتُ بسرور، وهكذا تنزهنا. ونحن نتمشى متنزهتين في الميدان ومتحدثتين عمّا رأته مرافقتي وسمعته خلال تجربة سفرها، إذا سيدٌ على صهوة جواده يمرّ بنا ويتجاوزنا. حين التفتُّ، وهو يتجاوزنا، وحدّقَ في وجهي كاملاً، سنحت لي فرصة جيدة لرؤية هيئته. كان طويلاً، نحيلاً، ثملاً، كتفاه محدودبان احديداباً يسيراً، ووجهه شاحب، لكنَّ فيه بثوراً قليلة، وكان محمراً احمراراً كريهاً حول الجفنين. ملامحه عادية، ومظهره العام يوحي بالوهن والرتابة. يخفف من رتابته التعبير الشرير في فمه، وعيناه عديمتا الروح ومتبلدتا الحس.

همستِ السيدة آشبي قائلة، بتشديد لاذع، وحصانه يخبُّ ببطء:

«أمقت ذلك الرجل!».

سألتُ قائلة: «من هو؟»، غير راغبة بافتراض أنها تتحدث عن زوجها.

أجابت قائلة بهدوء حزين: «السيد توماس آشبي»، سألتُ قائلة: «وهل تمقتينه يا آنسة مري؟»، لأني كنتُ أشدّ صدمةً من أن أتذكّر اسمها في تلك اللحظة.

«أجل. أمقته يا آنسة غري، وأحتقره أيضاَ، وإن عرفتِه فلن تلوميني».

«لكنكِ كنتِ على علمٍ بسلوكه قبل زواجكِ منه».

هتفتْ قائلة وهي تبكي بكاءً لها الحقّ فيه بسبب غيظها الشديد: «لا. بل ظننتُ أني أعرف فحسب. لم أعرف نصف حقيقته حقاً. أعلم أنكِ حذرتني من ذلك، وأتمنى لو أني استمعتُ إليكِ، لكن فات الأوان على الندم الآن. وإلى جانب ذلك، كان ينبغي على ماما أن تعرف خيراً من كلتينا، ولم تقل شيئاً ضدّ الموضوع، بل على العكس تماماً. ثم إني ظننتُ أنه عشقني، وسيجعل الأمور تسير على هواي. تظاهر بأنه سيفعل ذلك في البداية، لكنه الآن لا يكترث بشأني إطلاقاً. مع ذلك لا ينبغي عليّ أن أعبأ بذلك؛ له أن يفعل ما يحلو له، لو أن لي فقط حرية أن أمتع نفسي وأظل في لندن، أو أن يكون لي بضع أصدقاء هنا، لكنه سيفعل ما يحلو له، وعليّ أن أكون سجينةً وأَمَة. في اللحظة التي فطن فيها إلى أنّي قادرةٌ على أن أسلّي نفسي من دونه، وأنَّ الآخرين يدركون قيمتي خيراً منه، بدأ التَّعِس الأنانيُّ باتهامي بالغنج والتبذير، وشتم هاري ميلثام الذي لا يستحقُّ حتى أن ينظف حذاءيه. ثم اضطر إلى أن يجعلني في الريف، لأعيش حياة راهبة، خوفاً من أن أجلب له العار أو أتسبب في إفلاسه، كما لو أنه ليس بأسوأ من ذلك عشر مرات بسجلّ مراهناته، وطاولة قماره، وفتيات أوبيراته، وسيدته هذه وآنسته تلك، أجل، وزجاجات نبيذه، وكؤوسه المليئة بالبراندي المخلوط بالماء! أوه، سأفعل أي شيء لأكون الآنسة مري مجدداً! من المؤسف جداً أن نشعر بالحياة والصحة والجمال وهي تهدر، دون أن نحس بها أو نستمتع بها لأجل متوحش كهذا!».

بطبيعة الحال، أشفقتُ عليها شفقةً شديدة، كما أشفقتُ على فكرتها الخاطئة عن السعادة وتجاهلها للواجب، وكذلك أشفقتُ على شريكها البائس الذي ارتبط مصيرها به. قلتُ ما وسعني لمواساتها، وأسديتُ إليها النصائح التي رأيتُ أنها تحتاج إليها بشدة، ناصحة إياها أولاً بأن تحاول تحسين زوجها بالحجة اللينة وباللطف، كونها قدوة بالإقناع، ثم حين تكون قد فعلت كلّ ما بوسعها، إن كانت لا تزال تعتقد أنَّه لا مجال لتقويمه، عليها أن تسعى لصرف انتباهها عنه، وتشغل نفسها باستقامتها، وألا تزعج نفسها معه إلا قليلاً قدر الإمكان. نصحتها بأن تبحث عن العزاء في تأدية واجباتها مع الله والناس، وأن تثق بالله، وأن تسلي نفسها بعناية وتربية ابنتها الصغيرة مؤكّدةً لها أنّها ستُكافأ بسخاء برؤية ارتقائها في القوة والحكمة ونيل حبها الصادق.

قالت: «لكن، لا أقدر على تكريس نفسي بالكامل لطفلة، فقد تموت، وهو احتمالٌ ليس بمستبعد إطلاقاً».

«لكن، مع العناية، أصبحَ الكثير من الرضع الضعفاء رجالاً أقوياء أو نساءً شديداتِ البأس».

«لكنها قد تكبر على نحوٍ لا يطاق مثل والدها فأكرهها».

«هذا غير مرجح. إنها فتاة صغيرة، وتشبه أمها جداً».

«بغض النظر، كنتُ سأفضلها لو أنّها فتى، لكنّ الحسنة الوحيدة أنّ والدها لن يترك لها أيّ إرث يمكنها أن تبدّده مثلما هو الحال لو كانت فتى. ما هي السعادة التي بوسعي أن أحظى بها من رؤية فتاة تكبر لتتفوق علي، وتتمتع بكلّ الملذات التي أنا محرومة منها إلى الأبد؟ لكن، إن افترضنا أني سأصبح كريمة جداً لأسعد بذلك، فإنّها رغم ذلك لا تزال طفلة فحسب، ولا يمكنني أن أعلق كلّ آمالي في طفلة، فهذا أفضل بدرجة واحدة من تكريس المرء نفسه لكلب. أمَّا كل الحكمة والفضيلة، التي حاولتِ غرسها فيّ، فإن كلّ هذا قويم وملائم، بوسعي قول ذلك، ولو كنتُ أكبر بعشرين سنة لأثمر ذلك فيّ، لكن على الناس أن يمتّعوا أنفسهم وهم شباب، وإن لم يسمح لهم الآخرون بذلك، فسيكرهونهم بسبب ذلك!».

«خير طريقة لإمتاع نفسكِ هي أن تفعلي الصواب وألا تكرهي أحداً. هدف الدين ليس تعليمنا كيف نموت، بل كيف نعيش. كلما أسرعتِ لتصبحي حكيمة وصالحة حصلتِ على سعادة أكثر. والآن، يا ليدي آشبي، عندي نصيحة أخرى أسديها لكِ هي ألا تجعلي أمّ زوجكِ عدوتكِ. لا تجعلي إبقاءها على مبعدة منكِ عادة، ولا تعامليها بارتياب غيور. لم أرها قط، لكنّي سمعتُ عنها الحسن كما القبيح، وأتصوّر رغم أنّها غير ودية ومتعجرفة في سلوكها، بل حتى كثيرة المطالب في حاجاتها، أن عندها حبّاً قوياً لأولئك القادرين على الوصول إليه. ورغم أنها متعلقة جدّاً تعلّقاً أعمى بابنها، ليست بلا مبادئ حسنة، أو غير قادرة على الإصغاء للحجة. إن استرضيتِها قليلاً فحسب، وتصرفتِ معها تصرفاً ودوداً صريحاً، بل حتى لو أفضيتِ إليها بشكواكِ، شكواكِ الحقيقية، شكوى لكِ حقّ التشكي بها، فإني واثقةً ثقة تامة بأنّها سوف تصبح صديقتكِ المخلصة مع مرور الوقت، وعزاءً وعوناً لكِ، بدلاً من كونها كابوساً كما وصفتِها».

لكني أخشى أن نصيحتي لم تؤثر في السيدة الصغيرة غير المحظوظة إلا قليلاً، وحين اكتشفتُ أني لن أستطيع جعل نفسي سوى ذات نفع ضئيل، أصبحت إقامتي في آشبي بارك مؤلمة على نحو مضاعف. لكن، رغم ذلك، ما زال عليّ البقاء في ذلك اليوم والذي يليه كما وعدتُ، لكن، مقاومةً كلّ التوسلات والتحفيزات لإطالة زيارتي، أصررتُ على المغادرة في الصباح التالي، مؤكّدة أنّ أمي ستكون وحيدة من دوني، وأنّها تنتظر عودتي بفارغ

الصبر. ورغم ذلك، ودعتُ السيدة آشبي بقلبٍ مثقل، وتركتُها في بيتها الفاخر. لم يكن ذلك بدليل إضافي هيّن على تعاستها، أن تتشبّث بشدّة بعزاء حضوري، وترغب رغبةً جادةً في رفقةِ مَنْ أفكارُها وذوقُها العام لا يتواءمان مع أفكارها وذوقها العام إلا قليلاً، مَنْ نسيتْها نسياناً تامّاً في ساعة رخائها، ومَنْ حضورُها سيُعدُّ بالأحرى إزعاجاً أكثر منه متعة لو كان بوسعها فقط أن تحظى بنصف ما يتمنّاه قلبها.

24

الرمال

لم تكن مدرستنا في وسط البلدة. حين تدخل أ*** من الشمال الغربي يوجد صفّ من البيوت ذات المظهر المتوسط الجودة في جانبَيّ الطريق الفسيح المكسو بالثلج، أمامها مزالق قطع أرض ضيقة مخصصة للحدائق، وستائر فينسية في نوافذها، وسُلَّمات درج تقود إلى كلِّ باب مزين ذي مقبض نحاسي أصفر. في أحد أكبر هذه المساكن سكنتُ أنا وأمي، مع آنسات صغيرات رضي أصدقاؤنا وعامة الناس أن يعهدوا بهنّ إلينا. بذلك، كنّا على مبعدة كبيرة من البحر، وتفصلٍ بيننا وبينه شبكة معقّدة من الشوارع والبيوت. لكنّ البحر كان بهجتي، وكثيراً ما اخترقتُ بسعادة البلدة لأحظى بمتعة التنزه بجانبه، سواء مع الطالبات، أم وحدي مع أمي أثناء العطل. ابتهجتُ به في كلّ الأوقات والمواسم، ولاسيما أثناء اضطراب نسيم البحر الهائج، وفي صباح الصيف المنعش المتألق.

صحوتُ مبكراً في الصباح الثالث بعد عودتي من آشبي بارك. كانت الشمس تشرق عبر الستارة، وفكرتُ: ما أمتعَ أن أشقّ طريقي عبر البلدة الهادئة وأتنزّه نزهة انعزالية على الرمال في حين نصف العالم نائم. لم يطل اتخاذي القرار، ولا تنفيذي له. بالتأكيد لن أزعج أمي؛ لذا انسللتُ بسكون نحو الطابق السفلي، وفتحتُ الباب بهدوء. كنتُ مرتدية ثوبي. وبالخارج دقت ساعة الكنيسة معلنةً أنّها السادسة إلا ربع. لفَّ شعورٌ بالانتعاش والنشاط الشوارع، وحين تحرّرتُ من البلدة،

حين كانت قدماي على الرمال ووجهي نحو الخليج الواسع المشمس، ما من لغةٍ بوسعها أن تصف تأثيرَ عمق وصفاءِ لازورديَّة السماء والمحيط؛ أشعة شمس الصباح المشمس على أجرافِ التُّخم نصف الدائريّة المخدّدة التي تعلوها التلال الخضراء المكورة، وعلى الرمال الناعمة الرحيبة، والصخور المنخفضة في البحر بعيداً عن الشاطئ، وهي تبدو مغطاة بالأعشاب الضارة والطحالب، مثل جُزر نمت عليها الأعشاب بكثرة. والأهم من كلّ هذا الأمواج المتألقة اللامعة، ثمّ نقاء الهواء وصفاؤه اللذان لا يُوصفان! كان يوجد هناك فقط حرارة كافية لتعزيز جودة النسيم، وريح كافية لإبقاء البحر بأكمله يتحرك، لجعل الأمواج ترتد إلى الشاطئ، راغياً ومتلألئاً، كما لو كان جَذِلاً جَذَلاً عظيماً.

لم يكن أيّ شيء آخر يتحرّك، ما من مخلوق مرئي عداي. خطواتي أولى خطواتٍ تطأ الرمال الراسخة غير المحروثة، ما وطأها قبلي أحدٌ منذ محا مَدّ الليلة الماضية المتدفّق أعمق آثار أمس، وخلّفها مستوية وسهلة، خلا ما خلّف الماء المترسب من آثار بركٍ منقورةٍ ومجارٍ صغيرة جارية.

سرتُ منتعشةً، مسرورةً، نشيطةً، ناسية كل همومي، شاعرةً بأن لقدميّ جناحين، ويمكنني المضي في أدنى حالٍ أربعين ميلاً من دون أن أتعب، ومختبرة شعوراً بالابتهاج اغتربتُ عنه اغتراباً كاملاً منذ أيام الصبا المبكرة. لكن بدأ يتوافد نحو السادسة والنصف سائسو الخيل ليعرِّضوا أحصنة أسيادهم للهواء، في البدء واحد، ثمّ الآخر، إلى أن أصبح هناك بضع دزينة أحصنة وخمسة أو ستة ممتطين، لكن ليس على ذلك أن يزعجني؛ لأنهم لن يأتوا إلى الصخور المنخفضة التي أقترب منها الآن. حين بلغتُها، ومشيتُ على الطحالب البحرية الرطبة الزلقة (مخاطرة بأن أتعثّر بواحدة من برك المياه المالحة الصافية العديدة القابعة بينها) نحو قمة صخرة صغيرة طحلبية والبحر يترشرش حولها، التفتُّ مجدداً لأرى من أيضاً يتحرك. رغم ذلك، لا مرأى إلا لسائسي الخيل المبكرين مع أحصنتهم، وسيد مع كلب صغير داكن مبقع يركض أمامه، وعربة ماءٍ تخرج من البلدة لجلب الماء للمغاطس. بعد دقيقة أو اثنتين، ستبدأ أكشاك السباحة[27] البعيدة بالتحرك، وسيأتي سادة كهول يرتدون أردية الرهبان، وسيدات رزينات صاحبيات[28] ، ليتنزهوا نزهاتهم الانعزالية الصباحية. لكن مهما بدا منظرٌ كهذا مثيراً للاهتمام، ما وسعني الانتظار لأشهده؛ لأن الشمس والبحر أبهرا عينيّ جداً نحو ذلك الاتجاه إبهاراً لا أستطيعُ معه إلا أن أحدق تحديقةً واحدة، ثم ألتفتُّ مجدداً لأمتع نفسي بمرأى وصوت البحر يطرطش على قمة صخرتي، بلا قوة استثنائية؛ لأن الموج كسره الطحلب البحري المتشابك والصخور غير المرئية بالأسفل، وإلا لغُمِرتُ سريعاً بالرشات. لكنْ تقدَّم المدُّ، وارتفعت المياه، وامتلأت الخلجان والبحيرات، واتسعت المضائق؛ آن الأوان لألوذ بموطئ قدم أشدّ أماناً؛ لذا مشيتُ، تخطيتُ، زللتُ ساقطةً نحو الخلف على الرمال الفسيحة الناعمة، وعزمتُ على أن أواصل نحو جزء ناتئ معين بارز في الأجراف، ثم أعود.

سريعاً، سمعتُ صوتاً يتشمَّم خلفي يقفز مرحاً ويتلوى عند قدميَّ. إنّه سنابي، الكليب الداكن، سلكيُّ الشعر! حين نطقت باسمه، وثب في وجهي وصاح من الفرحة. أمسكتُ -أنا الفَرِحة تقريباً مثل فرحه- المخلوق الصغير بين ذراعي، وقبلته أكثر من مرة. لكن كيف له أن يكون هنا؟ لا يعقل أنه سقط من السماء، أو جاء كلّ هذه المسافة بمفرده، لا بدّ من أنّه إمّا سيده صائد الجرذان، وإما شخص آخر الذي جلبه إلى هنا، لذا، كابحةً ملاطفاتي المفرطة، ومحاولةً كبح ملاطفاته أيضاً، نظرتُ حولي وأبصرتُ... السيد وستن!

قال ممسكاَ بودٍّ اليد التي مددتُها إليه دون أن أعي تماماَ ما الذي أفعله: «كلبكِ يتذكّركِ جيداً يا آنسة غري. أنتِ تنهضين مبكراً».

أجبتُ قائلة، بهدوء عظيم، إذا أخذنا بعين الاعتبار كلّ ما يحدث في الوضع الذي كنتُ فيه: «ليس غالباً مبكراً جدّاً كما اليوم».

«كم تنوين الاستمرار في نزهتكِ؟».

«كنتُ أفكر في العودة، فأعتقد أنَّ الوقت لا بد قد أوشك على الحلول».

راجع ساعته (ساعة ذهبية الآن) وأخبرني أنّ الساعة كانت السابعة وخمس دقائق فقط.

قال: «لكن لا شك في أنَّكِ تنزهتِ نزهةً طويلةً كفاية»، ملتفتاً نحو البلدة التي أسير نحوها سيراً متمهلاً لأرجع من حيث أتيتُ، وسار بجانبي.

سألني قائلاً: «في أيّ منطقة من مناطق البلدة تسكنين؟ لم أتمكن من اكتشاف ذلك قط».

لم يتمكن من اكتشاف ذلك قط؟ إذاً، هل حاول فعل ذلك؟ أخبرتُه عن مكان سكننا. سألني عن مدى نجاحنا في شؤوننا، فأخبرتُه أنَّنا في منتهى النجاح، وأننا حصلنا على زيادة كبيرة في عدد طالباتنا بعد عطلة عيد الميلاد، وما زلنا نتوقع زيادة أكثر في نهاية عطلة عيد الميلاد هذه.

قال مُعَلِّقاً: «لا بدَّ من أنكِ معلمة متمكنة».

أجبتُه قائلة: «لا. إنها أمي. إنّها تدبر هذا الأمر تدبيراً حسناً جدّاً، وهي نشيطة جدّاً، وذكية، وطيبة».

«أرغب في معرفة والدتكِ. هل ستقدمينني إليها في وقت ما إن عرَّجتُ عليكم؟».

«أجل. بسرور».

«وهل ستمنحينني امتياز صديق قديم بأن أزوركِ بين الفينة والأخرى؟».

«نعم. إنْ... أفترض ذلك».

كانت تلك إجابة حمقاء جداً، لكن الحقيقة أني رأيتُ أنَّه لا حقّ لي بدعوة أحدٍ إلى بيت أمي من دون علمها، ولو أنّي قلتُ: «نعم. إن لم تعترض أمي على

ذلك»، فسيبدو ذلك وكأني فهمتُ من سؤاله أكثر مما يُتَوَقّع؛ لذا بافتراض أنها لن تعترض، أضفتُ قائلة: «أفترض ذلك»، لكن كان يجدر بي، بطبيعة الحال، قول شيء أكثر حكمة وتهذيباً، لو أنّي كنت متيقظة. واصلنا نزهتنا دقيقةً بصمت، لكنّه صمتٌ لطّفهُ سريعاً (تلطيفاً ليس بالهين عليَّ) السيد وستن معلقاً على إشراق الصباح وجمال الخليج، ثم على المزايا التي تتفوق بها أ*** على العديد من المنتجعات الأنيقة.

قال: «ألن تسألي ما الذي أتى بي إلى أ***. لا يمكن أن تفترضي أني غني كفاية لآتي لمتعتي الخاصة».

«سمعتُ أنك غادرتَ هورتن».

«إذاً، لم تسمعي أنّي حصلتُ على وظيفة في فـ***؟».

كانت فـ*** قرية تبعد قرابة ميلين عن أ***.

قلتُ: «لا. إننا نعيش خارج العالم تماماً، حتى هنا، والأخبار نادراً ما تبلغني من أيّ أحد، باستثناء الصحيفة. لكن أرجو أن تحبّ أبرشيتك الجديدة، وهل لي أن أُهنّئك على امتلاكها؟».

«أتوقّع أن أحبَّ أبرشيتي على نحو أفضل بعد سنة أو سنتين من الآن، حين أكون قد أنجزتُ بعض الإصلاحات التي أرغب في القيام بها بشدة، أو في الأقل أحقّق بعض التقدم في أمرٍ كهذا. لكن لكِ أن تهنئيني الآن؛ لأني أحسبه أمراً حسناً جدّاً أن أمتلك أبرشيّةً وحدي، من دون أن يتدخّل أحدٌ ليُحبط خططي أو يعرقل جهودي. وإلى جانب ذلك، لدي بيتٌ محترم في حيٍّ جميل إلى حدٍّ ما، وثلاثمئة جنيه إسترليني في السنة. وفي الواقع، ليس عندي ما أشتكي منه سوى الوحدة، ولا أمنية سوى أن أحظى برفيقة».

نظر إليّ حين انتهى من كلامه، وبدا أنَّ وهج عينيه الداكنتين يشعل وجهي، ما جعلني غير مرتاحة جداً؛ لأن إبداء ارتباك في وقت كهذا لهو أمر لا يطاق؛ لذا حاولتُ أن أصلح ما فسد، وأنكر كل التلميحات الشخصية في قوله، برد سريع قيل على نحو سيّئ فحواه أنه إن انتظر حتى يصبح معروفاً في الحي، فإنّه قد يحظى بفرص عديدة لسدّ نقصه من بين سكان فـ*** وما جاورها، أو زوار أ*** إن كان يتطلب اختياره الكثير، دون أن آخذ بعين الاعتبار المجاملة المضمنة في توكيده ذاك، إلى أن جعلني ردّه أدركها.

قال: «لستُ وقحاً وقاحةً تخوّلني تصوُّر حدوث ذلك مع أنكِ تؤكدين لي ذلك، لكن إن كان ذلك ممكناً، فأنا بالأحرى دقيقٌ في اشتراطاتي للرفيقة التي

ستشاركني الحياة، وربّما لن أجد من تناسبني بين الآنسات اللاتي ذكرتِهنّ».

«إن كان الكمال شرطك، فلن تجدها أبداً».

«ليس الكمال شرطي، فلا حقَّ لي في اشتراطه؛ لأني أنا ذاتي بعيد عن الكمال».

هنا قاطعت عربة ماء تقعقع أمامنا المحادثة؛ لأننا بلغنا الآن المكان المزدحم في الرمال، وخلال الثماني أو العشر دقائق التالية، بين العربات والأحصنة، والحمير، والرجال، ما كان هناك إلا مساحة صغيرة للاتصال الاجتماعي، إلى أن أدرنا ظهرينا للبحر، وبدأنا نصعد الطريق شديد التحدر المؤدي إلى البلدة. هنا عرض عليّ رفيقي ذراعه التي قبِلتُها، مع أنّ قبولي لها لم يكن بنية استعمالها سنداً.

قال: «أظنكِ لا تأتين عادة إلى الرمال؛ لأني مشيتُ هناك العديد من الأوقات في الصباح والمساء منذ مجيئي ولم أركِ إلا الآن. وخلال عدة مرات وأنا أعبر البلدة أيضاً بحثتُ عن مدرستكِ، لكنّي لم أفكر في مرسى السفن، وسألتُ مرة أو مرتين، لكن دون أن أحصل على الإجابة المطلوبة».

حين اعتلينا الحَدَب أوشكتُ على سحب ذراعي من ذراعه، لكن، بشَدَّةٍ يسيرة من مرفقه، أَعْلِمتُ ضمنيّاً أن تلك ليست رغبته، فكففتُ عن ذلك. مُتَحدِّثَين عن موضوعات مختلفة، دخلنا البلدة، واجتزنا عدة شوارع. أدركتُ أنَّه خرج عن عادته لمرافقتي، رغم النزهة الطويلة التي لا تزال أمامه، ولخشيتي من أنه ربما يزعج نفسه بدافع التهذيب، قلتُ معلقة: «أخشى أنّي آخذك بعيداً عن طريقكِ يا سيد وستن، فأنا متيقنة من أن الطريق المؤدي لفـ*** في جهة أخرى تماماً».

قال: «سأفارقكِ عند نهاية الشارع التالي».

«ومتى ستأتي لزيارة ماما؟».

«غداً إن شاء الله».

كانت نهاية الشارع التالي تقريباً نهاية رحلتي، لكنّه توقف هناك، تمنّى لي صباحاً طيباً، ونادى سناب الذي بدا حائراً قليلاً أيتبع سيدته القديمة أم سيده الجديد، لكنّه هرول حين استدعاه الأخير.

قال السيد وستن مبتسماً: «لن أعيده إليكِ يا آنسة غري، لأني أحبه».

أجبتُ قائلةً: «أوه. لا أريده، فأنا سعيدة جداً الآن لأنّه يملكُ سيداً صالحاً».

«إذاً، أنتِ متيقنة من أنّي شخصٌ صالح؟».

غادر الرجل والكلب وعدتُ إلى البيت، ممتلئةً بالامتنان للربّ على نعمة عظيمة كهذه، وداعيةً ألا تتحطم آمالي ثانية.

25

الخاتمة

قالت أمي: «حسناً، يا أغنس. لا ينبغي عليكِ التنزه نزهات طويلة مجدداً قبل الفطور». ملاحِظةً أنّي شربتُ كوب قهوة إضافيّاً، ولم آكل شيئاً متعذرةً بسخونة الجو، وإرهاقي من نزهتي الطويلة؛ شعرتُ بالتأكيد أنّي محمومة ومتعبة أيضاً.

«أنتِ دائماً ما تُفرطين في فعل الأمور. لو أنكِ تنزهتِ نزهةً قصيرة كل صباح، وواظبتِ على فعل ذلك، فسيعود عليكِ ذلك بالنفع».

«حسناً، ماما، سأفعل».

«لكن هذا أسوأ من الاستلقاء على السرير، أو الانحناء فوق كتبكِ. لقد عرضتِ نفسكِ للإصابة بالحمى».

قلتُ: «لن أفعل ذلك مجدداً».

أرهقتُ ذهني بكيف سأخبرها عن السيد وستن؛ لأنه يجب أن تعرف أنه قادمٌ غداً، لكني انتظرتُ إلى أن أزيلت أغراض الفطور، وإلى أن أصبحتُ أكثر هدوءاً ورصانة، ثم، بعد أن جلستُ أمام رسمتي، شرعتُ أقول: «قابلتُ صديقاً قديماً على الشاطئ اليوم، يا ماما».

«صديق قديم! من عساه يكون؟».

«صديقان قديمان في الواقع، أحدهما كلب»، ثم ذكَّرتُها بسناب الذي سردتُ لها قصته من قبل، وحكيتُ لها حادثة ظهوره المفاجئ، وتمييزه الاستثنائي لي، واصلتُ قائلة: «والآخر السيد وستن، خوري في هورتن».

«السيد وستن! لم أسمع عنه قط».

«بل سمعتِ عنه. أعتقد أني ذكرتُه عدة مرات، لكنكِ لا تتذكرين».

«سمعتكِ تتحدثين عن السيد هاتفيلد».

«السيد هاتفيلد هو الكاهن، والسيد وستن هو الخوري. اعتدتُ أن أذكره أحياناً لإظهار التباين بينه وبين السيد هاتفيلد، كونه كاهناً أشد كفاءة. لكن كان في الرمال هذا الصباح مع الكلب. أفترض أنه اشتراه من صائد الجرذان، وقد تعرَّف إليَّ جيداً مثل الكلب، بل الأرجح أنه تعرّف إليّ بفضله، وتحدثتُ معه محادثة قصيرة دُفِعتُ خلالها حين سأل عن مدرستنا إلى أن أقول شيئاً عنكِ، وعن حسن إدارتكِ، وقال إنه يرغب في معرفتكِ، وسأل فيما لو سأقدّمه إليكِ إن سمح لنفسه بالزيارة غداً؛ لذا قلتُ إني سأفعل. أكنتُ على صواب؟».

«مؤكدٌ هذا. أيّ نوع من الرجال هو؟».

«أظنّه رجلاً محترماً جدّاً، لكنكِ ستقابلينه غداً. إنه قس فـ*** الجديد، ولأنه كان هناك بضعة أسابيع فقط، أفترض أنه لم يصادق بعد، ويريد شيئاً من الرفقة».

جاء الغد. ما أشد انفعال القلق والترقّب الذي شعرتُ به من الفطور حتى الظهر، الوقت الذي ظهر فيه! بعد أن قدَّمتُه إلى أمي، أخذتُ عملي إلى النافذة، وانتظرتُ نتيجة المقابلة. انسجما انسجاماً حسناً جداً؛ الأمر الذي أسعدني جداً؛ لأني قلقتُ جداً مما قد تعتقده أمي فيه. لم يمكث طويلاً في تلك المرة، لكن حين نهض ليغادر، قالت إنه سيسعدها أن تراه مجدداً متى ناسبه أن يزورنا مجدداً. وحين رحل، سُررتُ لسماعها تقول: «حسناً! أراه رجلاً حكيماً، لكن لماذا جلستِ هناك في الخلف يا أغنس»، أضافت قائلة: «وتحدثتِ قليلاً جداً؟».

«لأنّكِ تتحدثين على نحو حسن جداً، يا ماما، إلى الحدّ الذي جعلني أرى أنكِ لا تحتاجين إلى مساعدتي، وإلى جانب ذلك، لقد كان زائركِ، لا زائري».

زارنا بعد ذلك غالباً عدّة مرات خلال الأسبوع، ووجَّه معظم حديثه عموماً إلى أمي، ولا عجب؛ لأنّها قادرة على الحديث. كدتُ أحسد طلاقة حديثها المتحررة النشيطة، والعقل الشديد الذي يظهره كلّ شيء تقوله. ورغم ذلك، لم أفعل؛ لأني، رغم أني كثيراً ما حزنتُ على أوجه قصوري في ما يتعلق به، استمتعتُ أيّما متعةٍ بالجلوس وسماع المخلوقَيْن، اللذين أحببتُهما وأجللتُهما أكثر من أيّ أحدٍ آخر في العالم، يتحدثان بعضهما مع بعض على نحو وديٍّ جداً، على نحو حكيم جداً، وعلى نحو جيد جداً. لكنّي لم أصمت دائماً، ولم أهمَل إطلاقاً، بل لوحِظتُ الملاحظة التي رغبتُ فيها. ما كان هناك نقصٌ في الكلمات الطيبة أو النظرات الأطيب. ما كان هناك نهاية للاهتمام الرقيق، اهتمامٍ أصغر

وأشدّ تواريا من أن يُفهَم بالكلمات، ما جعله لا يوصف، بيد أنّه يُشعَرُ عميقاً في القلب.

سقطت الرسميات بيننا سريعاً. أصبح السيد وستن يزورنا على نحو متوقَّع زائراً مرحباً به في كلّ وقت، ولا يفسد اقتصاد شؤوننا المنزلية أبداً، بل إنّه حتى دعاني «أغنس»، نطق بالاسم بخجل في البداية، لكن حين لاحظ أنه لا يشعرني بالإهانة بأيّ شكل، بدا أنّه يفضل هذا الاسم على «آنسة غري»، وأنا كذلك. ما أشد ضجر وكآبة الأيام التي لم يأتِ فيها! لكنّها لم تكن مثيرة للبؤس؛ لأنه ما زال بوسعي أن أتذكّر فيها زيارته الأخيرة، وأترقب زيارته التالية لتبهجني. لكن حين مرّ يومان أو ثلاثة من دون أن أراه، شعرتُ بالتأكيد بقلق شديد على نحو سخيف وغير منطقي، فله، بطبيعة الحال، عمله وشؤون أبرشيّته التي عليه الالتفات إليها. وخفتُ من نهاية العطلة، حين سيبدأ عملي أيضاً، فلن أتمكّن من رؤيته أحياناً، وأحياناً حين تكون أمي في حجرة الدرس، وأضطرّ إلى البقاء معه وحدي، هذا وضعٌ لم أحبذه إطلاقاً في البيت، مع أنّ مقابلته في الخارج والسير بجانبه اتضح أنها غير مزعجة إطلاقاً.

لكن ذات مساء، في آخر أسبوع من العطلة، أتى على نحوٍ غير متوقع؛ لأن وابلاً رعديّاً ثقيلاً ومطولاً خلال ما بعد الظهيرة أوشك على تدمير آمالي برؤيته في ذلك اليوم، لكن الآن انتهى المطر الغزير، وأشرقت الشمس إشراقاً متألقاً.

قال وهو يدخل: «مساءٌ جميلٌ يا سيدة غري! يا أغنس، أريدكِ أن تتنزهي معي إلى...»، (سمَّى منطقةً محددة من الساحل، تلاً بارزاً في جانب اليابسة، ونحو البحر جرف شديد الانحدار، من القمة التي يُرى منها منظرٌ رائع). «أخمد المطر الغبار، وبرَّد الهواء وصفّاه، والمنظر سيكون جميلاً جداً. هل ستأتين؟».

«هل يمكنني الذهاب، يا ماما؟».

«أجل، بالتأكيد».

ذهبتُ لأتجهز، ونزلتُ مجدداً بعد بضع دقائق، مع أنّي، بطبيعة الحال، اهتممتُ بثوبي أكثر ممّا كنتُ لأفعل إذا كنتُ سأخرج فقط لرحلة تسوّقٍ وحدي. وابل الرعد بالتأكيد أثّر تأثيراً حسناً جداً في الجو، وكان المساء مبهجاً جدّاً. جعلني السيد وستن أتأبّط ذراعه. لم يتحدّث إلا قليلاً خلال رحلتنا بين الشوارع المزدحمة، لكنّه سار بسرعة، وبدا وقوراً وشارد الذهن. تساءلتُ ما الخطب، وشعرتُ بخوفٍ غامض من أنّ شيئاً لا يسرّ يدور في ذهنه، وأقلقتني تخمينات غامضة عمّا قد يكون هذا الأمر إقلاقاً ليس بالهيّن، وجعلتني وقورةً وصامتةً كفاية. لكن تلاشت هذه الخيالات حين بلغنا ضواحي البلدة الهادئة؛ لأنه

ما إن وصلنا إلى المنطقة، التي يمكن رؤيتها من الكنيسة القديمة المهيبة، والتل الذي وراءه الأزرق الغامق، وجدتُ أن مرافقي كان مرحاً كفاية.

قال: «أخشى أنّي سرتُ سيراً سريعاً جداً عليكِ يا أغنس، أثناء نفاد صبري لرغبتي في التخلص من البلدة، ونسيتُ أن أتأكّد من راحتكِ، لكنّنا الآن سنمشي بأبطأ ما ترغبين فيه. أرى من خلال هذه الغيوم الخفيفة في الغرب أنه سيكون هناك غروب رائع، وسنكون في الوقت المناسب لنشهد مظهره على البحر، ونحن نتقدّم سيراً على أشدّ نحو معتدل».

حين بلغنا تقريباً نصف الطريق صعوداً إلى التل، خيّم الصمت علينا مجدداً، الصمتُ الذي كان كالمعتاد أوّل من يقطعه.

قال معلقاً وهو يبتسم: «ما زال بيتي موحشاً يا آنسة غري، وأنا الآن على معرفة بكلّ الآنسات في أبرشيّتي، وعدة آنسات في هذه البلدة أيضاً، وأخريات أعرفهنّ إمّا لأنّي رأيتهنّ أو سمعتُ عنهنّ، لكن لن تناسبني أيّ واحدة منهن لتكون رفيقتي. في الواقع إنَّ في هذا العالم إنسانة واحدة ستناسبني فقط، وهي أنتِ، وأريد أن أعرف قراركِ؟».

«أجادٌّ أنت يا سيد وستن؟».

«جاد! أنّى لكِ أن تظنّي أنّي أمزح في موضوع كهذا؟».

وضع يده على يدي التي على ذراعه. لا بد من أنّه قد شعر بها وهي ترتجف، لكن ليس هذا بالأمر الجلل الآن.

قال بنبرة جدية: «آمل أنّي لم أكن متهوراً جدّاً. يجدر بكِ أن تعرفي أن الإطراء والأحاديث الحميمية الجوفاء ليست أسلوبي، ولا هو بأسلوبي أن أبدي العشق الذي شعرتُ به، وأن كلمة أو نظرة عجلى مني تعني أكثر مما تعنيه كلمات معظم الرجال الآخرين المعسولة أو توكيداتهم المتقدة».

قلتُ شيئاً عن عدم رغبتي في ترك أمي، وفي ألا أفعل شيئاً من دون موافقتها.

أجاب قائلاً: «سويتُ كلّ شيء مع السيدة غري أثناء اعتمارِكِ قلنسوتكِ، قالت إنّ لي أن أحظى بموافقتها إن استطعتُ الحصول على موافقتكِ، وطلبتُ منها، وهو الأمر الذي سيسعدني جداً، أن تأتي وتعيش معنا؛ لأني تيقنتُ من أنكِ ستفضلين الوضع على ذلك النحو، لكنها رفضت قائلة إنّ بوسعها الآن أن توظّف مساعدة، وتستمرّ في المدرسة إلى أن تتمكّن من الحصول على دخلٍ سنوي كافٍ لتضمن بقاءها في مسكنها المريح. وفي

غضون ذلك، ستقضَي عطلها بالتَناوب بيننا نحن وأختكِ، وستكون راضيةً جداً إن كنتِ سعيدة. والآن وقد نقضتُ كلّ اعتراضاتكِ بشأنها، أعندكِ اعتراضٌ آخر؟».

«لا. ما من اعتراض».

قال: «إذاً، تحبينني؟»، ضاغطاً على يدي بحماسة.

«أجل».

***

أتوقّف هنا، فمذكّراتي، التي جمعتُ منها هذه الصفحات، لا تزيد عليها إلا قليلاً. بوسعي أن أواصل الحديث سنواتٍ، لكني سأرضى بأن أضيف قائلة إنّي لن أنسى أبداً مساء الصيف البهيّ ذاك، وإني أتذكّر بسرور دائماً ذاك التل شديد الانحدار، وحافة الجرف الذي وقفنا فيه معاً، مشاهدَيْن الغروب الرائع منعكساً على بركة الماء الكبيرة المضطربة تحت قدمينا، وقلبانا ممتلئان بحمدِ الرب والسعادة والحب امتلاءً يكاد يكون أبلغ من أن تصفه الكلمات.

بعدها ببضعة أسابيع، حين زوّدت أمي نفسها بمساعدة، أصبحتُ زوج إدوارد وستن، ولم أجد قط سبباً للندم على ذلك، وأنا متيقنة من أنّي لن أجد سبباً أبداً. عانينا الصعوبات، ونعرف أنّ علينا أن نعانيها مجدداً، لكنّنا نحتملها جيداً معاً، ونسعى لتحصين أنفسنا والآخرين ضدّ الفراق الأخير؛ ذلك الفراق الذي هو أعظم مصائب الحي. لكن إن أبقينا في أذهاننا الجنّة المجيدة في الآخرة؛ حيث كلاهما قد يلتقيان مجدداً، ولا تُعرَف فيها الآثام والأحزان، فإنّ ذلك أيضاً يمكن أن يحتمل. وفي الوقت الراهن سعينا للعيش لتمجيد الذي نثر الكثير من النعم في طريقنا.

أحدث إدوارد بجهوده الجهيدة تصليحاتٍ مذهلة في أبرشيته، ويحترمه ويحبّه سكانها، وحُقَّ له ذلك؛ لأنه مهما تكن عيوبه رجلاً (وما من أحد خالٍ من العيوب تماماً) أتحدى أيَّ أحد أن يعيبه قساً، أو زوجاً، أو أباً.

أطفالنا، إدوارد وأغنس وماري الصغيرة، يبشّرون بخير. تعليمهم في الوقت الحالي معهودٌ إليّ أكثر، وينبغي ألا يعوزهم شيء جيد بوسع عناية الأم أن تمنحه. يكفي دخلنا المعتدل متطلباتنا بوفرة، وبممارستنا الاقتصاد الذي تعلّمناه وقت الشدة، وبعدم محاولتنا تقليد جيراننا الأثرياء، تمكّنا لا من التمتع بالراحة والرضا بنفسينا فحسب، بل بأن يكون عندنا كلّ سنة شيءٌ ندخره

للأطفال، وشيءٌ نعطيه لأولئك الذين في عوز. والآن إخالني قلتُ ما فيه الكفاية.

النهاية

الملاحظات

[←1]

by Winifred Gerin.ëAnne Bront ()
at 200 by Nick Holland.ëAnne Bront
by Elizabeth Gaskell.ëThe life of Charlotte Bront
Myth by Lucasta Miller.ëThe Bront

() بيتٌ من قصيدة (الربيع/Spring) من كتاب (المواسم/The Seasons) للشاعر جيمس تومسن. [←2]

[3→] () كلمة Heavy إن جاءت صفة للأرض تكون بمعنى «موحلة»، وإذا جاءت صفة لوزن شخص أو شيء فتكون بمعنى «ثقيل».

() مقطع من قصيدة (مقاطع شعرية إلى أوغوستا/ Stanzas To Augusta) للورد بايرون. [4→]

() الغُرغونة: مخلوقة شريرة، أخت ميدوسا في الميثولوجيا الإغريقية. [←5]

[6←]

() مصطلح يُشير إلى الإفساد والتخريب بُغية عدم الاستفادة، نسبة إلى الإسكتلندي السير جيمس دوغلاس الذي أحرق مؤن قصره حتى لا ينتفع منها المهاجمون الإنجليز.

() إنجيل متى، الإصحاح 5، الآية 7.

[←7]

() ميدان :(Park) أرض مسيجة مخصصة لصيد الطرائد أو للنزهة، وهي تكون ملحقة عادة ببيت ريفي. [←8]

() بيت من قصيدة) الشتاء (Winter/من كتاب) المواسم (The Seasons/للشاعر جيمس تومسن. [9←]

() شخصية في مسرحية شكسبير «جعجعة بلا طحن». [←10]

() كتاب لغة لاتينية شائع حينها، وامتلكت آن واحداً منه. [11←]

[12→]

() حركة دينية مسيحية منشقَّة عن البروتستانتية في إنجلترا، وتتركز تعاليمها الرئيسة في: ولادة الإنسان آثماً، بالإيمان وحده يجني الغفران، بالإيمان يحظى بالقداسة روحاً وجسداً. وقد كان لمعتقد خالة آن، الآنسة إليزابيث برانويل الميثوديّ تأثيره في الصغيرة آن وشعورها بالإثم والخطيئة المرافق لها، وقد أوردت بعضاً من تلك الحالة النفسية في قصائدها، وكان ذلك من أبرز أسباب ورع آن وتقواها حتى لفظت أنفاسها.

[←13]

()

إشارة إلى إنجيل لوقا، الإصحاح 13، الآية 24 التي نصها: «ابْذِلُوا الجَهْدَ لِلدُّخُولِ مِنَ البَابِ الضَّيِّقِ، فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَسْعَوْنَ إِلَى الدُّخُولِ، وَلا يَقْدِرُونَ.»

[←14]

() الآية 1 التي نصها: «لَوْ كُنْتُ أَ
إشارة إلى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح 13، الأية 1 التي نصها « لو كنت أتكلم بلغات الناس والملائكة وليس لدي محبة، لكنت نحاسا يطن وصنجاً يرنُّ.«!

() لمدرعة :(surplice) رداء كهنوتي أبيض طويل فضفاض.

[←15]

() إشارة إلى إنجيل متى، الإصحاح 22، الآيات 35–40 التي نصها: «وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ، يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَدْرِجَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، مَا هِيَ الْوَصِيَّةُ الْعُظْمَى فِي الشَّرِيعَةِ؟», فَأَجَابَهُ: «أَحِبِّ الرَّبَّ إِلهَكَ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَكُلِّ نَفْسِكَ وَكُلِّ فِكْرِكَ! هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الْعُظْمَى الأُولَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: أَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ! بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ تَتَعَلَّقُ الشَّرِيعَةُ وَكُتُبُ الأَنْبِيَاءِ.«!

[←16]

() الأمثال، الإصحاح 15، الآية 1.

[17←]

[←18] () حارس الطرائد :(Gamekeeper) شخص مكلف بحماية الطرائد ومنع الناس من اصطيادها في عزبة أو أملاك ريفية.

() المَأرَبة :(Warren) أرض تتوالد فيها الأرانب.

[←19]

() إشارة إلى سفر التكوين، الإصحاح 4، الآية 5 التي نصها: «لَكِنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ قَايِينَ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ، فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدّاً وَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ كَمَداً.» [←20]

[←21]

() إشارة إلى إنجيل متى، الإصحاح 24، الآية 2 التي نصها: «فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَمَا تَنْظُرُونَ جَمِيعَ هَذِهِ؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يُتْرَكُ هَهُنَا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ«!

[←22]

() ذُكرت القصة في صموئيل الثاني، الإصحاح 12، الآيات من 1 – 6 التي نصها: «وَأَرْسَلَ الرَّبُّ نَاثَانَ إِلَى داوُدَ. وَعِنْدَمَا وَفَدَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: «عَاشَ رَجُلانِ فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، أَحَدُهُمَا ثَرِيٌّ وَالآخَرُ فَقِيرٌ. وَكَانَ الْغَنِيُّ يَمْتَلِكُ قُطْعَانَ بَقَرٍ وَغَنَمٍ كَثِيرَةً. وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى نَعْجَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ، اشْتَرَاهَا وَرَعَاهَا فَكَبُرَتْ مَعَهُ وَمَعَ أَبْنَائِهِ، تَأْكُلُ مِمَّا يَأْكُلُ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ كَأَنَّهَا ابْنَتُهُ. ثُمَّ نَزَلَ ضَيْفٌ عَلَى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ، فَامْتَنَعَ أَنْ يَذْبَحَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُعِدَّ طَعَاماً لِضَيْفِهِ، بَلْ سَطَا عَلَى نَعْجَةِ الْفَقِيرِ وَهَيَّأَهَا لَهُ». عِنْدَئِذٍ احْتَدَمَ غَضَبُ دَاوُدَ عَلَى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ وَقَالَ لِنَاثَانَ: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، إِنَّ الْجَانِيَ يَسْتَوْجِبُ الْمَوْتَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ لِلرَّجُلِ الْفَقِيرِ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ لأَنَّهُ ارْتَكَبَ هَذَا الذَّنْبَ وَلَمْ يُشْفِقْ.«

() رسالة فيلبي، الإصحاح 4، الآية 8 التي نصها: «وَخِتَاماً، أَيُّهَا الإِخْوَةُ: كُلُّ مَا كَانَ حَقّاً، وَكُلُّ مَا كَانَ شَرِيفاً، وَكُلُّ مَا كَانَ عَادِلاً، وَكُلُّ مَا كَانَ طَاهِراً وَكُلُّ مَا كَانَ مُسْتَحَبّاً، وَكُلُّ مَا كَانَ حَسَنَ السُّمْعَةِ، وَكُلُّ مَا كَانَ فِيهِ فَضِيلَةٌ وَحَصْلَةٌ حَمِيدَةٌ، فَاشْغِلُوا أَفْكَارَكُمْ بِهِ.» [←23]

() المَجازة :(causeway) ممر أو طريق مرتفع عبر أرض منخفضة أو سَبِخة. [←24]

() إشارة إلى سفر التكوين، الإصحاح 31، الآية 51 و52 اللتين نصهما: «وَأَضَافَ: «لِتَكُنِ الرُّجْمَةُ، وَهَذَا الْعَمُودُ الَّذِي أَقَمْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَاهِدَيْنِ أَنْ لَا أَتَجَاوَزَ هَذِهِ الرُّجْمَةَ لإِيقَاعِ الأَذَى بِكَ، أَوْ تَتَجَاوَزَ أَنْتَ الرُّجْمَةَ وَهَذَا الْعَمُودَ لإِلْحَاقِ الضَّرَرِ بِي.»

[←25]

() خرقة أو نحوها تستخدم لإشعال النار. [←26]

[←27]

() كشك السباحة :(Bathing machine) شبه كوخ متنقل على عجلات يُدفَع إلى الشاطئ حيث يغير فيه السابحون ملابسهم.

[←28]

() الصاحبيون :(Quakers) أتباع طائفة مسيحية أسَّسها جورج فوكس، تُعرَف بجمعية الأصدقاء الدينية.